

چان بول سارتر
الكلمات

ترجمة: محمد مندور
تقديم: خليل صابات



ميراث الترجمة



إن "كلمات" سارتر- المؤلف المسرحي والروائي والفيلسوف -
شأنها شأن اعترافات "روسو" و"أوغسطين" تتجاوز وجهتها
وموضوعاتها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان
الأبدية لظروف وجوده. إن "الكلمات" قصة تبحث عن أصل
"الأنا" وحلم الماضي ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب
الأخر للفلسفة السورية.

الكلمات

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2443
- الكلمات
- جان بول سارتر
- خليل صابات
- محمد مندور
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Les Mots

Par: Jean-Paul Sartre

Copyright © Editions Gallimard, 1964

Arabic Translation © 2015, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكلمات

تأليف : جان بول سارتر
تقديم : خليل صابات
ترجمة : محمد مندور



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سارتر ، جان بول ، ١٩٥٠
الكلمات / تأليف : جان بول سارتر؛ ترجمة: خليل صابات؛
مراجعة: محمد مندور - ٢٢٨ ص : ٢٠ سم
القاهرة - المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٥
١ - الرجوعية
(أ) صابات، خليل (مترجم)
(ب) مندور، محمد (مراجع)
(ج) العنوان ١٤٢،٧

رقم الإيداع ٢٥٥٩٧ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي 7-0021-92-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

مقدمة المترجم

لا يمكن أن نفهم الكلمات ، الفهم الصحيح لها دون أن نستعرض
شيء من التمهيد حياة مؤلفها وأعماله . إن جان بول سارتر يعتبر رأس
الفلسفة الوجودية والداعى لها فى المجالس التى يعقدها فى المقاهى الأدبية
وأقبة حتى سان جرمان دى برية يباريس ؛ ويراها بعض الناس شخصية
سياسية تدعو إلى كتابة المنشورات وتحمر فى مجلة يسارية وتشترك فى
الاجتماعات السياسية ونحوها . ويحكم عليه آخرون بأنه فيلسوف يتأمل
فى سكون غرفة فندق . تلك هى الوجوه الثلاثة لجان بول سارتر الروائى
والمؤلف المسرحى وكاتب المقالات الأدبية الذى اعتذر عن قبول جائزة نوبل
فى الأدب وأثار اعتذاره مختلف التعليقات لا فى الأوساط الأدبية الفرنسية
فحسب ، بل فى العالم أجمع .

ولد سارتر فى باريس خلال شهر يونية من سنة ١٩٠٥ وكان أبوه
ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، أما أمه آن ماري شوايتزر ، فقد كان عمها
الدكتور البير شوايتزر الطبيب الشهير الذى نال هو الآخر جائزة نوبل .
وقد كان بول أباه وهو فى الثانية من عمره فعاش مع أمه عند جده .

ويقول الحفيد عن هذا الجد فى الكتاب الذى تقدم له بأنه دفعه
إلى اعتبار الشيء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشيء الذى نعيشه
ونحوها . ومنذ السادسة من عمره كان جان بول سارتر يكتب الروايات .

« لحاجتي إلى أن أبرر وجودي جملة من الأدب مطلقا . وكانت لابد لي من ثلاثين سنة كي أتخلص من هذه الحالة الذهنية . »

وبعد أن درس سارتر في ليسيه لاروشيل ثم في ليسيه هنري الرابع التحق بمدرسة المعلمين العليا وهو في التاسعة عشرة من عمره . وبعد ثلاث سنوات من الدراسة نجح في « اجريجاسيون » الفلسفة ، وكان الأول على أقرانه . وفي هذه الأثناء بدأ يهتم مع مجموعة صغيرة من زملاء الدراسة بفلسفة الوجود التي كان يدعو إليها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر خليفة الفيلسوف الدنمركي كيركجارد . وعين سارتر مدرسا في الهافر التي اتخذها أطارا لروايته « الغثيان » ، ثم انتقل إلى لاون . وقضى سنة في المعهد الفرنسي ببرلين حيث التقى بالفيلسوف ادموند هوسرل مؤسس فلسفة الظواهر . وقد تأثر سارتر بهذه الفلسفة في كتابه « الوجود والعدم » الذي ظهر في سنة ١٩٤٣ . غير أن الجمهور لم يكتشف الناحية المثيرة من مذهبه بعد الحرب ، أي « الوجودية » ، إلا في مؤلفاته الروائية .

فبعد « الغثيان » ، يقدم سارتر « الحائط » ، ثم ثلاثية « طرق الحرية » ، التي ظلت نافذة . لقد أعلن سارتر عن قرب ظهور الجزء الرابع من هذا الكتاب ولكنه لم يظهر أبداً ؛ والواقع أن كتابنا « الزم » ، أكثر فاكث العمل السياسي . فقد حاول أن يؤسس أثناء احتلال الألمان لفرنسا جماعة « الاشتراكية والحرية » ، ولكنه لما كان « ماركسيا إنسانيا » فسرعان ما وقف يعارض الحزب الشيوعي ويتهمة بأنه يعارض « ماركسية »

جامعة ، . وحى وطيس الجدال واحتل مكانا رجباً من مجلة « الأزمة الحديثة » التي أنشأها أدينا الفيلسوف في سنة ١٩٤٦ مع ليف من أصدقائه نذكر منهم الفيلسوف موريس مرلو بونتي والبير كامو الذي لم يلبث أن اختلف معه وانفصل عنه .

ويعتبر سارتر ، المسرح منبراً دائماً لعرض آرائه . فبعد « الذباب » و « الجلسة السرية » التي أخرجها للمسرح ألبير كامو ، قدم « المومس الفاضلة » و « الأيدي القذرة » وكانت التمثيلية الأخيرة تنديداً بالوسائل الستالينية وقد أثارت بطبيعة الحال جدلاً عنيفاً . وألف بعد ذلك « الشيطان والله » و « كين » وقد اقتبس التمثيلية الأخيرة اقتباساً حراً عن اسكندر دوماس الأب وآخر مسرحياته « سجناء التونة » .

إن سارتر يخوض معركة رهية من أجل الوضوح والحرية وهما ، في نظامه ، الصفتان اللتان لا بد منهما لحياة الإنسان . وفي رأيه أن الإنسانية تكون من فئتين : « الصاحون » الذين اختاروا وهم يعلمون ماذا يفعلون و « القذرون » الذين لا يريدون أن يختاروا أو الذين يختارون وهم يكذبون على أنفسهم .

ولكن إذا أردنا أن نكون أحراراً فلا بد لنا أيضاً من أن نريد أن يكون الآخرون أحراراً .

لقد أدى هذا الرأي الجديد إلى مجادلات لاحد لها . وقد حاول سارتر أن يؤسس حزباً سياسياً أطلق عليه « المنظمة الديمقراطية الثورية » كما حمل حملات شعواء على الاستثمار وأيد ثورة فيدل كاسترو واستقلال الجزائر

إن سارتر بصدد نشر مجموعة جديدة من «المواقف» ، وهي عبارة عن عدد من المقالات والموضوعات والمقدمات التي كتبها بين سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٣ وكلها تعالج الاستعمار والاستعمار الجديد وتبرهن على أن مؤلف «الكلمات» لم يعدل عن الكفاح السياسى .

إن «كلمات» سارتر شأنها في ذلك شأن «اعترافات» ، جان جاك روسو أو القديس أوغسطينوس تتجاوز وجهتها وموضوعها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان الأبدية لظروف وجوده . إن «الكلمات» قصة تبحث عن أصل «الأنا» وحلم الماضى ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب الآخر للفلسفة الصورية . إن الفلسفة والأدب كلاهما نوع من الكذب أو بالأحرى اقتراب من الواقع ، على حد تعبيره في «الكلمات» الذى كتبه فى التاسعة والخمسين من عمره .

خليل صابات

الجزء الأول
القراءة

في مقاطعة الأتراس ، حوالى سنة ١٨٥٠ ، قبل معلم مرهق بالأطفال
أن يعمل بدالا . وقد أراد هذا المرتد تعويضاً . فبما أنه تخلى عن تكوين
العقول ، فليتول أحد أبنائه تكوين النفوس ، لسوف يكون في الأسرة
راع^(١) ، هو شارل . ولكن شارل تهرب ، وفضل أن يقطع الطرقات
في إثر سائسة تعمل في سيرك . فأدبرت صورته إلى الحائط ومنع النطق
باسمه . على من الدور إذن ؟ لقد أسرع أوغست إلى تقليد تضحية أبيه .
فدخل التجارة وسكن إليها . لم يبق إلا لويس الذى لم يكن لديه أى
استعداد محدد : لقد استولى الأب على هذا الصبي الهادىء وجعله راعياً في
غمضة عين وبلغت الطاعة بلويس بعد ذلك جداً جملةً ينجب بدوره
راعياً ، هو اليرشوايتزر الذى نعرف مهنته^(٢) . غير أن شارل لم يثر
على سائسته ، لقد أثر سلوك أبيه الجميل فيه : فاحتفظ طول حياته بطعم
الرفعة وبذل جهده في صنع ظروف عظيمة بأحداث صغيرة . ولم يكن
يفكر ، كما نرى في التلمص من الميل العائلى : فقد كان يتمنى أن يهب
نفسه لشكل مخفف من الروحانية ، لكهنوت يسمح له بالسائسات .
ووجد غايته في العمل كأستاذ . وفضل شارل أن يعلم الألمانية .

(١) قديس بروتستانتى (المترجم) .

(٢) هو الطبيب الفرنسى الذى أسس في الجابون مستشفى لعلاج الجذام ونال

جائزة نوبل للسلام (المترجم) .

وناقش رسالة عن هانس ساكس^(١) واختار المنهج المباشر الذى ادعى بعد ذلك أنه مبتكره ، ونشر بالاشتراك مع م . سيمونو « المطالعة الألمانية » التى نالت تقديراً ، وتقدم بسرعة : وانتقل من ماكون إلى ليون فباريس ، وفى هذه المدينة الأخيرة ، ألقى فى حفل توزيع الجوائز خطاباً استحق شرف طبعه فى طبعة خاصة وفيه يقول : « سيدى الوزير ، سيداتى ، سادى ، أولادى الأعزاء ، لن تحزروا قط عما سأتحدث إليكم اليوم ! سأحدث عن الموسيقى ! » وكان يدع فى الأشعار التى تلقى فى المناسبات . وتعود أن يقول فى اجتماعات الأسرة : « أن لويس هو الأتقى وأوغست الأغنى وأنا الأذكى » ، وكان الاخوان يضحكان وكانت ازوجتان زمان شفتيهما . وفى ماكون كان شارل شوايتزر قد تزوج بلوبز جيهان ابنة وكيل دعاوى كاثوليكي . وكرهت العروس شهر عسلها : فقد اختطفها قبل نهاية الطعام وألقى بها فى قطار . وفى سن السبعين كانت لويز لا تزال تتحدث عن سلطة الكراث التى قدمت لها فى مقصف إحدى المحطات قائلة : « كان يأخذ الأبيض كله ويترك لى الأخضر . »

لقد أمضيا خمسة عشر يوماً فى الأتراس دون أن يتركا المائدة ؛ وكان الاخوان يتبادلان باللهجة الريفية قصصاً غير مهذبة ؟ وكان الراعى يلتفت إلى لويز بين آن وآخر ويرجمها لها على سبيل المحبة المسيحية . ولم تتوان فى الحصول على شهادات مجاملة أعفتها من الاتصال بزوجها وأعطتها حق أن يكون لكل منهما غرفته الخاصة ؛ كانت تسكلم عن صداها ،

(١) شاعر ألماني ولد فى نورمبرج سنة ١٤٩٤ وتوفى فى سنة ١٥٧٦ ألف عدداً من التمثيليات ذات الموضوعات الدينية أو القديمة (المترجم) .

واعتادت ملازمة الفراش ، وبدأت تكره الضوضاء ، والهوى والحماس . وكل حياة أسرة شويتزر الغليظة المفتعلة . إن هذه المرأة الحية والحيثة بل الباردة كانت تفكر تفكيراً مستقيماً سيئاً ، لأن زوجها كان يفكر جيداً وبمؤاربة ؛ ولأنه كان كذاباً وسريع التصديق ، كانت تشك في كل شيء . وتقول : إنهم يدعون أن الأرض تدور ؛ ما الذى يديرهم بذلك ؟ ، ولما كانت محاطة بممثلين فضلاء ، فقد كرهت التمثيل والفضيلة . إن هذه الواقعية البالغة رقة ، التأهبة وسط أسرة من الروحانيين الغلاظ ، اعتنقت الفولتيرية تحدياً دون أن تقرأ فولتير . وكانت ظريفة وسمينة وسفهمية ومازحة فأصبحت السلية البحتة ؛ فبرقع للعاجيين وبابتسامة غير محسوسة كانت تسحق كل المواقف الكبيرة ، بنفسها وبدون أن يلحظ أحد . أن كبرياءها السلية وأنانيتها إياها أفيئها . ولم تكن ترى أحداً ، فقد كان تكبرها الزائد يمنعها من السعى للحصول على المكان الأول ، وكان زهوها لا يدعها ترضى بالمكان الثانى . وكانت تقول « تعلمى كيف تجعلهم يشتهونك . » لقد اشتوها كثيراً ، ثم أخذ هذا الاشتهاً يقل شيئاً فشيئاً وانتهى الأمر بنسيانها لقلة ما رؤيت . ولم تعد تغادر كرسيها أو فراشها إلا قليلاً . ولما كانت أسرة الشوايتزر من أتباع المذهبين الطبيعى والبوريتانى ^(١) — وتآلف هذين المذهبين في الفضائل أقل ندرة مما نعتقد — فقد كان أفراد هذه الأسرة يحبون الألفاظ الفجة التى مع تحقيرها الجسد من الوجهة المسيحية البحتة ، تعبر عن قبولها للوظائف.

(١) مذهب يتمسك أصحابه بمعرفة ما جاء في الكتاب المقدس ويميزونه

بالصلابة . (المترجم)

الطبيعية ؛ وكانت لويز تحب الألفاظ المغطاة . وكانت تقرأ كثيراً من الروايات الخفيفة التي كانت تقدر فيها شفافيتها القننة أكثر من تقديرها لحبكة أحداثها . وكانت تقول في لطف : « إنها جريئة ، ومكتوبة جيداً : مروا أيها الناس ولا تلعنوا ! » واعتقدت هذه المرأة الناصعة البياض أنها ستموت من الضحك وهي تقرأ « فتاة من نار » لأدولف ييلو : وكانت تحب أن تحكي قصص ليالى الأعراس التي تنتهى دائماً نهاية سيئة : فتارة ترى الزوج ، فى عجلته البهيمية ، يقصف رقبة زوجته على خشبة السرير ، وتارة يعثر على المروس الصغيرة فى الصباح وقد لجأت فوق خزانة الملابس ، عارية ، ومجنونة : وكانت لويز تعيش على ضرر ، خافت ؛ وكان شارل يدخل عندها ويدفع مصاريع النوافذ ويضئ كل المصاييح ، وكانت تزفر وهي تضع يديها على عينيها قائلة : « إنك تعيشين يا شارل ، ولكن مقاوماتها لم تكن تعد حدود المعارضة الدستورية : فقد كان شارل يوحى إليها بالخوف ، وبازعاج مدهش وأحياناً أيضاً بالصدافة ، بشرط ألا يلمسها : وكانت تسلم له بكل شيء منذ أن يأخذ فى الصباح : وأنجبت له أربعة أطفال دون توقع : بنت ماتت صغيرة وصبيان وبنت أخرى : وعن عدم مبالاة أو عن احترام سمح الزوج بأن يربى الأولاد وفق المذهب الكاثوليكي . ولما كانت لويز غير مؤمنة ، فقد جعلتهم يؤمنون بالكاثوليكية عن تفرز من العقيدة البروتستانتية : وأخذ الصبيان جانب أمهما ؛ فأبديتهما رويداً عن هذا الأب الضخم ؛ ولم يلحظ شارل ذلك ودخل جورج الابن البكر مدرسة الهندسة : وأصبح الابن الثانى مدرساً للغة الألمانية ، وكانت الأم تقول عنه إنه يخلق بالي فأنا أعرف أنه ظل عزيباً ولكنه كان يقلد أباه فى كل شيء ، على الرغم من عدم حبه له ، وانتهى

الأمر باختلاف الأب مع الابن ، وحدثت مصالحات لا تنسى ، إن اميل كان يخفى حياته ، وكان يعبد أمه ، احتفظ حتى النهاية بمادة زيارتها زيارات سرية ، دون سابق اخطار ؟ وكان يعطرها بقبلاته وملاطفاته ثم يأخذ في الكلام عن أبيه بسخرية في أول الأمر ثم بغضب شديد ويتركها وهو يصفق الباب من خلفه . اعتقد أنها كانت تحبه ولكنه كان يخيفها : إن هذين الرحلين الغليظين والصعبين كانا يتعبانها وكانت تفضل عليهما جورج الذي كان غائبا باستمرار ، ومات اميل في سنة ١٩٢٧ ، وقد جن من الوحدة : ووجد تحت وسادته مسدس : وفي حقيبته وجدت مائة زوج من الجوارب الثقوبة وعشرون زوجاً من الأحذية المكعوبة .

وقضت آن ماري ، الابنة الصغرى ، طفولتها على كرسى . لقد علموها الضجر وأن تقب وتقمع معتدلة ، كما علموها الحياطة . وكانت لها مواهب واعتقدوا أنه من اللباقة تركها على سجيتهما ؛ وكانت فيها نضارة : ولكنهم عملوا على اخفائها عنها . إن هؤلاء البورجوازيين البسطاء والتكبريين كانوا يجدون الجمال فوق إمكانياتهم أو دون وضعهم ؛ وكانوا يسمحون به للركيزات والمومسات . كانت كبرياء لوز عقيمة للغاية : خوفاً من أن ترمى بالبلاهة ، فقد كانت تتكر في أولادها وفي زوجها وفيها نفسها الصفات الواضحة كل الوضوح ؛ ولم يكن شارل يعرف كيف يتعرف على الجمال عند الآخرين : فكان يخلطه بالصحة : ومنذ مرض زوجته كان يجد سلواه في صحبة السيدات المثاليات المتوردات ذوات الشوارب الجيدات الصحة . وبعد مرور خمسين سنة ، لاحظت ماري ، وهي تتصفح سجل صور الأسرة ، أنها كانت جميلة .

وفي حوالى الوقت الذى التقي فيه شارل شوايتزر بلويز جيان ، تزوج أحد أطباء الريف ابنة أحد أصحاب الأملاك الأغنياء من مقاطعة البريجور وأقام معها فى شارع تيفيه الكبير والحزين ، أمام الصيدلى . وغداة الزفاف اكتشف أن والد العروس لا يملك شيئاً . ومن الغيظ ، ظل الدكتور سارتر أربعين سنة لا يوجه الكلام إلى زوجته ، فعلى المائدة كانا يتحدثان بالإشارات ، وانتهى الأمر بأن أسمته « نزيل » . وكان ، مع ذلك ، يشاركها فراشها ، وكان ينبج منها بين آن وآخر ، دون أن ينبس بكلمة : فقد أعطته ولدين وابنة ؛ وأطلق على أولاد الصمت هؤلاء جان باتيست وجوزيف وهيلين . وتزوجت هيلين متأخرة ، من أحد ضباط سلاح الفرسان الذى أصيب بعد ذلك بالجنون . وأدى جوزيف الخدمة للمسكرية فى فرقة المشاة الجزائرية وعاد فى سن مبكرة إلى والديه . ولم يكن صاحب مهنة . ولما كان واقعاً بين بكم أبيه وصياح أمه فقد أصبح لجلاجا وقضى حياته يكافح الكلمات . وأراد جان باتيست أن يعد نفسه للمدرسة البحرية ليرى البحر . وفى سنة ١٩٠٤ ، وهو ضابط فى البحرية وقد وقع فريسة لحيات كوشاشين^(١) ، تعرف فى شربورج على آن مارى شوايتزر واستحوذ على هذه الفتاة الكبيرة المقطوعة وتزوجها وأنجب منها بسرعة ولداً هو انا وحاول أن يلجأ إلى الموت .

إن الموت ليس سهلاً : كانت الحمى المعوية ترتفع دون عجل بل وتراجع

أحيانا وكانت آن ماري تعني به بتقان ، ولكن دون أن تصل بها الجراءة إلى حد الحب . لقد حذرته لويز من الحياة الزوجية : فبعد زفاف دام ، تابعت التضحيات إلى ما لا نهاية تقطعها تفاهات ليلية . واقتداء بأُمها فضلت أُمي الواجب على اللذة . ولم تكن تعرف أبي كثيراً ، لا قبل الزواج ولا بعده . ولا بد أنها تساءلت أحيانا لماذا اختار هذا الغريب أن يموت على ذراعيها . لقد نقلوه إلى مزرعة على بضعة فراسخ من تيفيه ؛ وكان أبوه يأتي لزيارته يوميا على عربة صغيرة . وأنهك السهر والهجوم آن ماري ، خفف لبنها ، وعهد بي إلى إحدى الممرضات غير البعيدة من هناك واجتهدت أنا أيضا في الموت : من إلهاب الامعاء وربما من القيظ . وفي العشرين من عمرها وبدون خبرة ولا نصائح ، كانت أُمي تمزق نفسها بين محضرين مجبولين ؛ إن زواج العقل الذي قبلته كان يجد حقيقته في المرض والحزن وقد استفدت أنا من الموقف : ففي ذلك الوقت كانت الامهات يرضعن أطفالهن بانفسهن ولمدة طويلة ؛ ولولا هذا الاحتضار المزدوج لتعرضت لصعوبات الطعام المتأخر . ولما كنت مريضا ومقطوما بالقوة في شهرى التاسع ، فإن الجُمى والتهافت الجسمي منعاني من الشعور بآخز حز للمقص الذي يقطع الروابط بين الأم والولدا لقد انغمست في عالم مشوش ، تسكنه أوهام بسيطة وأصنام خشنه . وعند موت أبي استيقظت أنا وآن ماري من كابوس مشترك ؛ وشفيت . ولكننا وقعنا ضحية سوء تفاهم . لقد عادت من حب إلى ابن لم تكن قد تخلت عنه قط تخليا حقيقيا واستعدت أنا وعبي على ركبتى سيدة غريبة .

ولما كانت آن ماري بلا مال ولا صنعة ، فقد قررت العودة لتعيش

في بيت والديها . غير أن الموت الوقع الذي نزل بأبي أغم أسرة شوايتزر :
 إنه يشبه كثيراً التطليق : ولأن أمي لم تعرف كيف تتوقعه ولا كيف تمنعه
 فإنها اعتبرت مذنبه : وقد قبلت في طيش زوجها لم يدم طويلاً . وبالنسبة
 لأريان (١) الطويلة التي عادت إلى مودون مع طفل على ذراعيها كان
 الجميع ممتازين : فجدى الذي كان قد طلب إحالته إلى المعاش استأنف العمل
 دون كلمة عتاب ؛ وكان انتصار جدتي نفسها انتصاراً رزينا . ولكن آن
 ماري ، وقد جمدها عرفان الجليل ، كانت تتبين العتاب من خلال العمالة
 الطيبة : إن الأسر تفضل بالتأكيذ الأرامل على البنات اللواتي ينجبن
 سفاحاً ، ولكنه تفضيل قليل للغاية . ولكي تحصل على الغفران ، بذلت
 نفسها دون حساب ، وأشرفت على منزل والديها ، في مودون ثم في باريس
 وعملت مربية وممرضة ورئيسة خدم ومصاحبة وخادمة دون أن تتمكن من
 تهدئة مضايقة أمها الصامتة . وكانت لويز ترى من الملل أن تعد قاعة
 الطعام كل صباح والحساب كل مساء ولكنها كانت لا تتحمل أن يقوم
 أحد غيرها بذلك ؛ وكانت لا تقبل أن تعفى من التزاماتها إلا في غضب
 خوفاً من أن تحرم من امتيازاتها . إن هذه المرأة التي تتقدم في السن والتي
 لا تحترم آداب المجتمع لم يكن لديها إلا وهم واحد . فقد كانت تعتقد أنها
 ضرورية . ولكن الوهم تبدد : وأخذت لويز تغار من ابنتها . يا لآن
 ماري المسكينة : فهي إن اتخذت موقفاً سلبياً ، اتهمت بأنها عبء ؛
 وإن اتخذت موقفاً إيجابياً ظن بها أنها تريد الهيمنة على المنزل . ولكي

(١) يشبه المؤلف أمه بأريان في أساطير الأغريق التي هجرها تيزيه

تجنب القبة الأولى احتاجت إلى كل شجاعتها ولتجنب الثانية احتاجت إلى كل تواضعها . ولم تحتج الأرملة الشابة إلى وقت طويل لكي تعود قاصرة : عذراء دنسة . ولم يمنع عنها مصروفها الشخصى : ولكن كانوا ينسون أن يعطوها هذا المصروف ؛ لقد استعملت ملابسها كلها حتى بليت دون أن يفكر جدى في تجديدها ، وبالكاد كانوا يجيزون لها الخروج وحدها . وحين كانت صديقاتها القديعات ، وأكثرن متزوجات ، يدعونها إلى العشاء ، كان عليهن أن يطلبن الإذن قبل الموعد بوقت طويل وأن يعدن بإعادتها قبل العاشرة . وفى وسط الطعام ، كان رب البيت يقوم من المائدة ليصحبها بالعربة إلى منزلها . وفى هذه الأثناء ، كان جدى يذرع أرض حجرة نومه وهو بقميص النوم وساعته فى يده . وكان يرعد عندما تدق الماشرة آخر دقة وأخذت الدسوات تقل كثيراً وكرهت والدتى هذه اللذات الباهظة الثمن .

وكانت وفاة جان باتيست أكبر حدث فى حياتى إذا أعاد أى إلى أغلالها ومنحنى الحرية .

لا يوجد أب طيب ، تلك هى القاعدة ؛ ويجب ألا نلوم الرجال على ذلك ، بل نلوم رباط الأبوة المتعفن . ليس هناك أحسن من إنجاب الأطفال : ولكن ياله من ظلم حين نرزق بهم ! ولو عاش أبى لرقد على بكل طوله ولسحقنى . وبالصدفة مات صغيراً ؛ وأنا فى وسط الأبناء الذين يحملون آباءهم ، أعبر من ضفة إلى أخرى بمفردى ، كارها هؤلاء الآباء المحتجين الراكبين على ظهور أولادهم مدى الحياة ؛ لقد تركت خلفى شاباً ميتاً لم يمتد به الزمن ليكون أبى وكان من الممكن أن يصبح اليوم ابنى .

هل كان ذلك شراً أم خيراً ؟ لست أدري ؛ ولكنى أنضم إلى حكم عالم
نفساني كبير : فليس عندى العقدة المسماة « الأنا العليا » .

لا يكفى أن نموت : لابد أن نموت فى وقتنا . لقد شعرت بعد ذلك
بأنى مذنب ؛ إن اليتيم الواعى يلوم نفسه : إن والديه ، وقد أعشبتها رؤيته
أنسجبا إلى جناحهما فى السماء . أما أنا فكنت سعيداً : إن وضعى الحزين
كان يفرض الاحترام ويؤسس أهميتى ؛ كنت أعتبر حزنى فى عداد فضائلى .
كان أبى قد تطف ومات بحطئه : وكانت جدتى تكرر أنه تخلص من
واجباته ؛ وجدى الفخور بطول عمر أسرة شوايتزر ، لم يكن يقبل أن
يموت الانسان فى الثلاثين من عمره ؛ وعلى ضوء هذه الوفاة المشكوك
فيها وصل إلى الشك فى وجود زوج ابنته فى وقت من الأوقات ونسبه
لينتهى منه . ولم يكن علىّ حتى أن أنساء : فبانسحاب جان باتست على
الطريقة الإنجليزية ، حرمنى لذة التعرف به . ولا زلت حتى اليوم فى دهشة
من القليل الذى أعرفه عنه . ومع ذلك فقد أحب وأراد أن يعيش ووجد
نفسه يموت ؛ وهذا يكفى لصنع رجل مكتمل . ولكن لم يعرف أحد من
عائلى أن يثير فضولى عن هذا الرجل . خلال عدة سنوات استطعت أن
أرى فوق سررى صورة ضابط صغير ذى عينين بريئتين ورأس مستدير
أصلع وشارب كث : وعندما تزوجت أمى مرة ثانية اختفت الصورة .

وقد ورثت بعد ذلك كتباً كانت به : كتاب من تأليف لوداسك عن
مستقبل العلم وكتاب آخر تأليف وير عنوانه : نحو الإيجابية بالمثالية المطلقة .
وكانت قراءاته سيئة مثل جميع معاصريه . وقد اكتشفت على الهوامش

كتابات مكتوبة بخط ردىء لا يمكن قراءتها ، إنها علامات ميتة للعبة الهام كانت حية وراقصة حوالى مولدى . لقد بعث الكتب : فهذا الراحل يخصنى قليلا - فقد عرفته بالسمع كما عرفت الرجل ذا القناع الحديدى ^(١) أو فارس أيون ^(٢) ، وما أعرفه عنه لا يتعلق بى قط : هل أجنى ، هل ضمنى بين ذراعيه ، هل أدار نحو ابنه عينه الفاتحى اللون والثأرتين . الآن ، لا يذكر أحد شيئا من ذلك : إنه عذاب حب ضائع . إن هذا الأب لم يكن ظلا ولا نظرة : لقد وطئنا ، أنا وهو ، أرضا واحدة ، هذا كل شيء . لقد أفهمونى أنى ابن المعجزة بدلا من أن أكون ابن ميت . ومن هنا تأتى بلا أدنى شك خفى غير المقولة . فأنا لست زعيما ولا أبتغى أن أصبغه . إن القيادة والطاعة شيء واحد . إن الأكثر تسلطا يأمر باسم آخر ، باسم طفيلى مقدس هو اسم الوالد . وينقل العنف المجرد الذى يتحملة . لم أعط فى حياتى أمرا دون أن أضحك ودون أن أضحك غيرى ؛ ذلك أن قرحة السلطة لا تعذبى : كما أننى لم أتعلم الطاعة .

ومن أطيع ؟ إنهم يشيرون إلى عملاقة شابة ويقولون لى إنها أمى . ولو ترك الأمر لى ، لاعتبرتها شقيقى الكبرى . إن هذه العذراء المحددة إقامتها وانخاضة للكل ، أرى جيدا أنها هنا لتخدمنى . إنى أحبها :

(١) رجل مجهول ألقوا به فى قلعة بنيرول فى سنة ١٦٧٩ ثم فى الباستيل حيث توفى سنة ١٧٠٣ . ولم تعرف شخصيته قط لأنه كان مضطرا أن يضع قناعا على وجهه . (المترجم)

(٢) هو الفارس شارل دى يومون ديون معتمد لويس الخامس عشر السياسى . ظهر فى بلاط القيصرية البصابات فى ملابس امرأة فمبته « فارقتها » الخاصة . (المترجم)

ولكن كيف لي أن أحترمها ، ولا أحد يحترمها ؟ توجد ثلاث غرف في منزلنا : غرفة جدي وغرفة جدتي وغرفة « الأولاد » . إن « الأولاد » هم نحن : فكلانا قاصر وكلانا معال . ولكن كل الرعاية كانت موجهة لي . ففي حجرتي وضعوا سرير فتاة . والفتاة تنام وحدها وتستيقظ بعفة ؛ وأكون نائماً حين تهرع لتغتسل في الطست في الحمام ؛ وتعود مرتدية ملابسها كلها : كيف ولدت منها ؟ إنها تقص على مصائبها وأصغى إليها بشفقة . لقد وعدتها بأن أتزوجها في المستقبل لأحميها : سوف أبسط يدي عليها وأضع أهميتي الشابة في خدمتها . هل يعتقد أني سأطيعها ؟ إنني أنكرم وأخضع لرجولتها . وهي على أي حال لا تعطيني أوامر : إنها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلاً تطلب مني أن أتفضل بتحقيقه فتقول : « إن صغيري العزيز سوف يكون لطيفاً جداً ، وعاقلاً جداً إنه سوف يدعى بكل ظرافة أضع نقطة في أنفه » . وكنت أنساق إلى فتح تنبؤاتها الناعمة .

بقى البطيريك : إنه كان يشبه الله الأب إلى درجة كانت كثيراً ما تجعل الناس يظنونه هو . فقد دخل ذات يوم كنيسة من باب الهيكل ؛ وكان القسيس يهدد ضعاف الإيمان بصواعق السماء : « إن الله هنا ! وهو يراكم ! » ، وجماعة اكتشف المؤمنون تحت المنبر عجوزاً طويلاً القامة وملتحياً كان ينظر إليهم : ففروا هارين . ومرات أخرى كان جدي يقول إنهم ألقوا بأنفسهم تحت أقدامه . وقد أحب التجليات . ففي شهر سبتمبر من سنة ١٩١٤ ظهر في دار للسينا بمدينة أركاشون : وكنت مع أمي في الشرفة ، حين طلب أن تضاء القاعة ، وكان رجال آخرون من حوله يقلدون الملائكة ويصيحون : « النصر ! النصر ! » وصعد الله على

اللسرح وقرأ بلاغ المارن^(١) . وحين كانت لحيته سوداء كان يمثل الرب وأشك في أن أميل مات بسببه بطريقة غير مباشرة . إن إله الغضب هذا كان يتغذى على دم أبنائه . ولكنني ظهرت في نهاية حياته الطويلة ، فقد ابيضت لحيته واصفرت من الدخان ولم تعد الأبوة تسليه . ومع ذلك ، فلو أني كنت ابنة فإني أعتقد جيداً أنه لم يكن يتوانى عن استعبادي بحكم العادة . وكان حظي أنني كنت ملكايت : ميت سكب بضع نقط من النبي ، هي الثمن العادي لطفل ؛ لقد كنت قبساً من الشمس وكان في استطاعة جدى أن يتمتع بى دون أن يمتلكنى : كنت « أعجوبته » . لأنه كان يتمنى أن ينهى أيامه شيخاً مذهبوا ؛ وقرر أن يعتبرنى منة فريدة من القدر ، هبة مجانية قابلة للالغاء دائماً ؛ ما المفروض أن يتطلبه منى ؟ لقد كنت أغمره بوجودى وحده . كان إله الحب بلحية الأب وقلب الابن المقدس ؛ كان يضع يديه على رأسى ، وكنت أشعر بحرارة راحتيه على جمجمتى ، كان يسمينى صغيره الصغير بصوت يرتجف حناناً ، وكانت الدموع تملأ عينيه الباردتين . وكان الكل يصبحون معترضين : « لقد أصابه بالجنون هذا الشقى ! » كان يعبدنى ، وهذا أمر ظاهر . ولكن هل كان يحبنى ؟ فى مثل هذه العاطفة العامة ، يصعب على أن أميز بين الصدق والتصنع : ولا أعتقد أنه أبدى محبة كثيرة لأحفاده الآخرين ؛ صحيح أنه كان يراهم قليلاً وأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه . أما أنا فكنت أتبعه فى كل شئ : وكان يعبد فى كرمه .

(١) معركة من معارك الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

والحقيقة أنه كان يبالغ في السمو بعض الشيء : كان رجلا من القرن التاسع عشر. وكان يعتقد في نفسه ، ككثيرين غيره ، فكثتور هوجو نفسه ، أنه فكثور هوجو . وإنى أعتبر هذا الرجل الوسيم ذا اللحية الطويلة ، وهو بين اهلايين فخائين دأعين ، كالدمن على الحمر النشوان ، ضحية فنين اكتشفا أخيرا : فن الصور الفوتغرافي وفن كونه جدآ . وكان من حسن طالعه وسوءه أن يبدو وسيما في الصور الفوتوغرافية ؛ وكانت صورته تملأ المنزل : ولما كانوا لا يارسون التصوير الفوتغرافي ، فقد شغف بالأوضاع واللوحات الحية ؛ وكان يتخذ كل شيء حجة لتعليق حركاته ، ولتجميد نفسه في وضع جميل ، ولتصجره ؛ كان مولما بلحظات الخلود هذه حيث يصبح تمثال نفسه . ولم أحتفظ منه — بسبب شغفه باللوحات الحية — إلا بصور خيال ظل مشدودة : صورة في الغابة ، حيث أجلس على جذع شجرة ، وكنت في الخامسة من عمري : وشارل شوايتزر يضع على رأسه قبعة بناما ويرتدى حلة من الصوف القابلة الطحيني الفاتح بخطوط سوداء وصديرية من نسيج القطن الأبيض تقطعها سلسلة ساعة ؛ وتبدل نظارته الأتية بطرف جبل ؛ ويميل إلى ، ويرفع إصبعي محلى بخاتم ذهبي ، ويتكلم : كل شيء معتم وكل شيء رطب ما عدا لحية الشمسية : إنه يحمل هالته حول ذقنه . ولا أعرف ما يقوله : فقد كنت مشغولا بالاصغاء أكثر مما يجب كي أسمع . ويبدو لي أن هذا الجمهوري العجوز في المهدي الامبراطوري كان يعلمني واجباتي المدنية ويحكى لي التاريخ البورجوازي ؛ فقد كانت هناك ملوك وأباطرة ، وكان هناك أيضا أشرار طردوا ، وكل شيء كان يسير على ما يرام . وفي المساء ، حين كنا نذهب

لا يتظاره على الطريق ، كنا نعرفه بسرعة ، بين زحمة المسافرين الخارجين من القطار ، بقامته الطويلة ، وبمشيته التي تشبه مشية معلم الرقص . ومن أبعد مسافة يرانا منها كان يتخذ موضعا ، وكأنه يطيع أوامر مصور فوتوغرافي خفي : فلحيته في الهواء ، وجسمه مستقيم وقدماه في زاوية قائمة ، و صدره منتفخ وذراعا مفتوحان كثيرا ، وكنت عند هذه الإشارة أتوقف عن الحركة وأميل إلى الأمام ، فقد كنت العداء الذي يبدأ في الانطلاق ، والمصغور الصغير الذي سيخرج من الجهاز ؛ كنا نكث وجهها لوجه بضع لحظات ، كمجموعة جميلة من خزف ساكس ، ثم أثب محملا بالفواكه والأزهار وبسعادة جدى وأصطدم بركبته وأنا أنصنع اللهث ، وكان يحملني من الأرض ويرفعني عاليا إلى أقصى ما تستطيع ذراعاها وينزلني على صدره وهو يتمتم : « يا كنزى ! » ، وكنت الوجه الثانى الأكثر إلفاتا للنظر من بين المارة . وكنا نلعب ملهاة ضافية ذات مائة مشهد مختلف ، فهناك الغزل وسوء التفاهم الذى يزول سريعا والمعاكسات المتناهية فى الطيبة والتأنيب اللطيف ، وغضب الحبيب والتكم الحنون والهوى ؛ كنا نخيل عقبات لجناحى نقرح بتذليلها ، كنت متعجرفا أحيانا ، ولكن النزوات لم تكن تستطيع أن تخفى حساسيتى العذبة ؛ كان يظهر الزهو السامى البريء الذى يتلاءم مع الجود ، كما كان يظهر العمى والضعف الأثيم اللذين يوصى بهما فكتور هوجو ، فلو عوقبت بأكل الخبز الجاف ، لأحضر لى المريات ؛ ولكن المرأتين المراهبتين كانتا تتجنبان هذا العقاب وكنت فوق ذلك طفلا عاقلا أجد دورى مناسباً إلى الحد الذى جعلنى لا أخرج منه . والحقيقة أن

انسحاب والذى السريع قد وهبني د أودياً ، متاهيا في التقصان : صحيح
 أن عقدة ، الأنا العليا ، غير موجودة ولكن لا وجود لمركب التدوان
 أيضا . فأني كانت لي ، ولم يكن أحد يعترض على ملكيتي الهادئة لها :
 كنت أجهل العنف والكراهية ، وكفوني مؤونه التدريب القاسي على
 الغيرة ؛ وكانت أول معرفتي للواقع عن طريق ميوعته الضاحكة ، وذلك
 لأنني لم أصطدم بمخاله . فعلى من وعلى أى شيء أثور : إن نزوة الغير
 لم تستطع أن تسيطر على .

كنت أسمح بلطف بأن يلبسوني خذائي ويضعوا قطعا في أنفي
 ويفرشوا ملابى وينسلوني ويلبسوني الملابس وينزعوها عني ويزينوني
 وينظفوني ؛ فليس هناك ما يسلى أكثر من أن تلعب دور العقلاء . وأنا
 لا أبكى أبداً ولما أضحك ، ولا أضح ؛ وفي الرابعة من عمري قبضوا
 على وأنا أضع ملحا على الربى ؛ وكان ذلك على ما أعتقد جبا في العلم
 أكثر منه جبا في الايذاء ؛ وعلى أية حال فإن هذه هي الجريمة الوحيدة
 التي أذكرها . ويوم الأحد كانت هاتان السيدتان تذهبان أحيانا إلى
 القداس لسماع موسيقى جيدة وعازف أرغن معروف ؛ وكنتاها لا تقومان
 بواجباتهما الدينية على وجه كامل ، ولكن إيمان الآخرين كان يؤهلهما
 للوجد الموسيقى ؛ وكنتا تؤمنان بالله أثناء تذوق لحن . وكانت لحظات
 الروحية العليا هذه تسعدني : كان يبدو الناس على الجميع ، وهي فرصة
 لعرض ما أستطيع عمله . فكنت أجثو على الركع ، وأتحول إلى تمثال ؛
 مانعاً نفسي حتى من تحريك أصبع قدمي ؛ ناظراً في خط مستقيم أمامي ،
 دون أن أطرف بعيني حتى تسيل الدموع على خدي ؛ وكنت بالطبع

أقاتل النمل قتال الجابرة ، ولكن كنت متأكداً من الانتصار ، مدركا
 قدرتي إلى الحد الذي يجعلني لا أتردد عن أن أثير في نفس أبشع
 الاغراءات لا استمتع بقدرتي على طردها : ولو وقفت صائحا ، بدا
 يوم ! ، ولو تسلفت العمود لأتبول في جرن الماء المقدس ؟ إن هذه
 الأفكار الرهية سترفع من قدر التهشات التي ستقدمها لي أمي بعد هنية .
 ولكني أكذب على نفسي ؛ فأتظاهر بأنني في خطر لأزيد مجدى : ولم
 تكن المغريات تبعث الدوار لحظة واحدة ؛ فأنا شديد الخوف من
 الفضيحة ؛ وإن كنت أريد إثارة العجب ، بففضائي ، وكانت هذه
 الانتصارات السهلة تقنعني بأن لدى استعداد طيب ؛ وما على إلا أن أترك
 نفسي على سجيتهما لكي ينهال المدح علي . وإن الرغبات والأفكار السيئة
 إن وجدت ، كانت تأتي من الخارج ؛ وما أن تستقر في حتى تسقم
 وتذبل : فأنا أرض جدياء للشر . ولما كنت أمثل الفضيلة . فاني لأجهد
 نفسي ولا أقهرها قط : كنت أخترع . ولي حرية المثل الواسعة الذي
 يجذب جمهوره ويفرط في الاعتناء بدوره . إنهم يعبدونني ، فأنا مستحق
 إذن للعبادة . ولا غرابة في ذلك ، ما دام العالم قد أحسن صنعه ؛
 يقولون لي إني جميل فأصدق . وقد ظهرت منذ بعض الوقت ، على عيني
 النخبي ، العشاوة التي سوف تجعلني أعور وأحول ، ولكن شيئا من هذا
 لم يظهر بعد . انهم يلتقطون لي مائة صورة تنقحها أمي بأقلام ملونة .
 وفي واحدة من هذه الصور التي بقيت ، أبدو ورديا وأشقر ، بشعر مموج
 وخذ مستديرة وفي نظرتي احترام باش للنظام القائم ؛ وفي يفتخ بغطرسة
 خيشة : فانا أعرف قدرى .

ولا يكفي أن يكون لدى استعداد طيب ؛ بل يجب أن تكون لدى حاسة النبوة ، فالحقيقة تخرج من فم الأطفال . ولما كان هؤلاء لا يزالون قريين جدا من الطبيعة ، فانهم أولاد عمومة الريح والبحر : إن لجلجنتهم تقدم لمن يفهمها تعاليم واسعة ومبهمة . لقد اجتاز جدى بحيرة جنيف مع هنرى برجسون . ويقول لنا : « لقد جئنا حماسا ، ولم تكن عيني تكفياني للاعجاب بالقسم المتلاثة ولتأبئة لمعان الماء . ولكن برجسون الذى كان يجلس على حافة ، لم يكف عن النظر بين قدميه . » وكان يستخلص من ذلك الحادث الذى وقع له أثناء السفر ، أن التأمل الشمعى أفضل من الفلسفة . وتأمل فى : وكان يجلس فى الحديقة وكأنه على ظهر إحدى عابرات المحيط الأطلسي ، وكوب من الجعة فى متناول يده ، ورآنى أعدو وأقفز ، وبحث عن حكمة فى أحاديثي المبهمة ، ووجدها . وقد ضحكت بعد ذلك من هذا الجنون ؛ وأنا آسف على ذلك الآن لأنه كان من عمل الموت . كان شارل يكافح القلق بالاعجاب الشديد . ويعجب فى شخصى بعمل الأرض الرائع ليقنع نفسه بأن كل شيء حسن ، حتى نهايتنا الجديرة بالشفقة . إن هذه الطبيعة التى كانت تستعد لاسترجاعه ، كان يذهب للبحث عنها على القمم وفى الأمواج ، وفى وسط النجوم ، وفى ينبوع حياتي الصغيرة ليتمكن من احتضانها كلها ومن تقبل كل شيء منها ، حتى الحفرة التى كانت تحضر له فى هذه الطبيعة . ليست الحقيقة هى التى كانت تكلمه من فمى ، بل موته . ولا عجب إن كان للسعادة التافهة لسنواتي الأولى طعم الموت أحيانا : إنى أدين بحريتي لوفاة حدثت فى الوقت المناسب ، وبأهميتي لوفاة ستحدث

قريباً . ولكن ماذا : إن جميع كاهنات أبولون ^(١) من الموتى ، الكل يعلم ذلك ؛ كل الأطفال مرأيا للموت .

وكان جدى إلى جانب ذاك ، يحب مضايقة أولاده ، لقد أمضى هذا الوالد المرعب حياته فى سحقهم ؛ كانوا يدخلون على أطراف أصابعهم ويفاجئونه على ركبتى طفل : فتنفطر قلوبهم ! فى كفاح الأجيال غالباً ما يقف الأطفال والشيوخ فى جهة واحدة : إن البعض يودى هتاف الآلهة ويقوم الآخرون بحل طلاسها ، إن الطبيعة تسلكم والخبرة تترجم : وليس على البالغين إلا أن يسدوا أفواههم . وإن لم تنجب فلنرب كلباً : فى مدافن الكلاب ، حين كنت أزورها فى العام الماضى ، وفى الكلمة المؤثرة التى تتابع من قبر إلى قبر ، عزفت حكم جدى ؛ إن الكلاب تعرف أن تحب ؛ إنها أحن من الناس وأشد إخلاصاً منهم ؛ إنها فطنة ولها غريزة بلا شوائب تسمح لها بالتعرف على الخير والتمييز بين الصالحين والطالحين . لقد كتبت إحدى التكالى على قبر كلبها ، أى بولونيوس أنت أحسن منى : فلم يكن فى إمكانك أن تعيش بعدى ؛ بينما أعيش أنا بعدك . . وكان يصحبنى صديق أمريكى ، بكل من القبط بقدمه كلباً مصنوعاً من الأسمنت فكسر أذنه لقد كان على حق : فانتا حين نبالغ فى حبنا للأطفال والحوانات فإننا نحبهم بدلا من حبنا للناس

(١) كانت كاهنات أبولون مكلفات بالنطق بهتاف الآلهة وكن يجلسن على مقعد من ثلاث أرجل فوق شق تنبث منه أشجرة باردة ينتج عنها هذيان مؤقت .
(انترجم)

فأنا إذن كلب المستقبل ؛ إنى أتنبأ . لدى كلمات أطفال ، إنهم يحفظونها ويكررونها على . وأتلم أن أصنع كلمات أخرى . لى كلمات رجال : وأعرف أن أتحدث بكلمات ، أكبر من عمرى ، دون أن ألمسها إن هذه الأقوال شعرية ، والوصفة سهلة : يجب أن تثق فى الشيطان والصدقة والفراغ ، وأن نستعير جملاً كاملة من الكبار وأن نضعها الواحدة فى طرف الأخرى وأن نكررها دون فهم . وبالاختصار ، كنت أتفوه بتنبؤات حقيقية وكان كل يفهمها حسبما يريد . إن الخير يولد فى أعماق أعماق قلبى ، وتولد الحقيقة فى ظلمات فهمى الصغيرة . إنى أعجب بنفسى عن ثقة : ويحدث أن يكون لحركاتى وكلماتى صفة لا أدركها ولكنها تكون واضحة بالنسبة للكبار ؛ ولكن دعنا من ذلك ! سوف أقدم لهم دون توقف اللذة الرقيقة التى حرمت منها . إن مزاحى يتخذ ظواهر الكرم : كان بعض الناس الساكنين يأسفون على أنهم لم يرزقوا أطفالاً ؛ فاشتغلت عليهم وخرجت من العدم فى فورة إثارة وتنكرت بلباس الطفولة لأوهمهم بأن لهم ابناً . وكانت أمى وجدتى كثيراً ما تدعوانى إلى إعادة تمثيل مشهد الطيبة السامية التى أعطتني الحياة : إنهما تملقان هوس شارل شوايتزر ، وجه المفاجآت المسرحية ، فكاتباً تدبران له المفاجآت . وكنت أختفى خلف قطعة أثاث وأجسب نفسى ، وتغادر الامرأتان الغرفة أو تتظاهران بنسيانى وأتوارى ؛ ويدخل جدى الغرفة تعباً وعابساً ، كما لو كنت غير موجود ؛ وأخرج فجأة من مخبئى ، وأنعم عليه بمولدى ، فيلمحنى ويندمج فى التمثيلية ويغير وجهه ويرفع يديه إلى السماء . كنت أسعده بوجودى باختصار كنت أهب نفسى ؛ أهب نفسى دائماً وفى كل مكان ، أهب كل

شيء : كان يكفي أن أدفع باباكي أشعر أنا كذلك بأننى أظهر فى رؤياي .
 إلى أضع مكعباتى بعضها على بعض ، وأخرج فطائرى الرملية من قوالبها .
 وأنادى بأعلى صوتى ؛ فيأتى أحد ويبدى عجيبة ! لقد زدت السعداء
 واحدا . إن الطعام والنوم والاحتياطات من تقلبات الجو تشكل الأعياد
 الأساسية والالتزامات الرئيسية لحياة كلها احتفالات . فانى أتناول طعامى
 علنا كذلك : فإذا أكلت جيداً هنا ونى ؛ وتصيح جدتى نفسها : وكم من
 العقل أن نجوع ! . . .

ولا أكف عن أن أصبح قائلا : أنا الواهب والهبة . ولو كان أبى
 على قيد الحياة ، لعرفت حقوقى وواجباتى ؛ ولكنه مات وأنا أجهلها ؛
 فليس لى حق لأن الحب يعلانى ؛ وليس لى واجب لأننى أعطى . عن حب
 وعلى مهمة واحدة هى أن أرضى الناس ؛ من أجل المظهر . إن عائلتنا
 مفرطة فى الكرم : فجدى يعولنى ، وأضع أنا سعادته ؛ وأمى تبدل نفسها
 من أجل الجميع . واليوم ، حين أفكر فى ذلك ، يبدو لى أن هذا البذل
 وحده هو الحقيقى ؟ ولكن كنا نميل إلى أن نلتزم الصمت إزاءه . ولكن
 حياتنا ليست إلا سلسلة من الاحتفالات وكنا ننفق وقتنا فى امطار أنفسنا
 بالمجاملات . وكنت أحترم الكبار على شرط أن يعبدونى ؛ أنا صريح ،
 ومتفتح ورقيق كالبلت أفكر جيداً واثق بالناس : الجميع طيرون بما أن
 الجميع راضون . وأرى المجتمع تدرجا قاسيا من الفضائل والسلطات .
 إن الذين يحتلون قمة السلم ، يعطون كل ما يملكون للذين تحتم . ومع
 ذلك فأنا لا أهتم بأن أفق على أعلى درجة : فأنا لا أجهل أنهم يحتفظون
 بها . لأشجاش قساة وذوى نية حسنة يوطدون النظام . إننى أفق على مجنم

صغير هامشي ، ليس يعيد عنهم ، ويمتد إشعاعى من أعلى السلم إلى أسفله .
 وباختصار ، أبذل كل جهدى لأبتعد عن السلطة الدينية لا أسفل ولا أعلى
 بل فى موضع آخر . ولما كنت حفيد رجل دين ، فأنا رجل دين منذ
 الطفولة ؛ على مسحة أمراء الكنيسة ، وبشاشة كهنوتية ، وأعامل الرؤس
 كأنداد : إنها كذبة بريئة لاسعادم ومن المناسب أن يصدقها إلى حد ما
 إنى أحدث إلى خادمى وإلى ساعى البريد وإلى كلبى بصوت متأن ومعتدل
 فى هذا العالم المنظم يوجد قراء . وتوجد كذلك خراف بخمس أرجل ،
 وأخوات توائم وحوادث سكة حديد : إن هذه المظاهر الشاذة ليست من
 خطأ أحد ولا يعرف الفقراء الطييون أن واجهم أن يدربوا كرمنا ، إنهم
 قراء يستحون من التسول ، فهم يتمسحون بالجدران ؛ وأثب ، وأدس فى
 يدهم قطعة من فئة الصلدين وأهديهم على الاخص أبتسامة رقيقة تؤمن
 بالمساواة . وأرى أن القباء يبدو عليهم ولا أحب أن ألسهم ولكنى أكره
 تقسى على ذلك : إنها تجربة ؛ ثم من واجهم أن يحبوني ، وهذا الحب
 سوف يحمل حياتهم . وأعرف أن الضرورى ينقصهم ويسرنى أن أكون
 فائضهم . ومن جهة أخرى ، أيا كان يؤسهم ، فإنهم لن يتألموا أبداً بقدر
 ما تألم جدى : حين كان صغيراً ، كان ينهض من فراشه قبل الفجر ويرتدى
 ملابسه فى الظلام ؛ وفى الشتاء كان لابد من أن يكسر الجليد فى إناء الماء
 ليغتسل . ولكن الظروف تحسنت لحسن الحظ منذ ذلك الحين : إن
 جدى يؤمن بالتقدم ، وأنا كذلك : التقدم هذا الطريق الطويل الوعر
 الذى يؤدى إلى .

كان الفردوس . فكنت أستيقظ كل صباح فى ذهول من الفرح ،

معجبا بالخط المجنون الذى جعلنى أولد فى أكثر العائلات اتحاداً ، وفى
أجل بلد فى العالم . وكان المستاءون يصدموننى : فم يستطيعون الشكوى ؟
لقد كانوا عصاة . وكانت جدتى على وجه الخصوص تسبب لى أحر القلق :
وكنت لاحظ بأنهم لم تكن تعجب بى إعجاباً كافياً . وبالفعل فإن
لويز كشفتنى . فقد كانت تلومنى صراحة على هذا التمثيل الردىء الذى
لم تكن تجرؤ على أن تؤنب من أجله زوجها . كنت أراجوزا ومهرجا
وبهلوانا ، وكانت تأمرنى بأن أكف عن تصنى . وكنت أغتاض إلى
الحد الذى أتهمها بأنها تسخر كذلك من جدى : كانت « الروح التى
تسخر دائماً » . وكنت أجابها ، وكانت تطلب أن أعذر ؛ ولا كنت
واقفاً من التأيد ، فكنت أرفض الاعتذار . وكان جدى يتلفف فرصة
إظهار ضعفه : وكان ينضم إلى ضد زوجته التى كانت تهض ، غاضبة ،
وتذهب إلى غرفتها وتعلق الباب عابها . وتقلق واللبتى خوفاً من حقد
جدتى ، فتحدث بصوت منخفض وتقول بتواضع لوالدها إنه مخطيء ،
فيبرز كنفه متهكماً ، وينسحب إلى حجرة مكتبه ؛ وكانت تتوسل إلى
أخيراً أن أذهب لطلب الصفح . كنت أمتع بسلطتى : كنت القديس
ميخائيل وقد سحقت الروح الشريرة ، ولكى انتهى كنت أذهب للاعتذار
بعدم اكتراث وفيما عدا ذلك كنت أعبدها طبعاً لأنها كانت جدتى .
واقترحوا على أن أناديها بمامى وأن أنادى رب العائلة باسمه الأتراسى
كارل . إن جرس كارل ومامى أفضل من جرس روميو وجوليت
ومن فيليمون وبوسيس ^(١) . وكانت أمى تكرر على مائة مرة فى اليوم

(١) فى الميثولوجية الاغريقية ، زوجان أسطوريان ، أصبح اسمهما رمزاً للحب
بين الزوج والزوجة . (المترجم) .

عن قصد عامد : إن كارل ومامى ينتظرا نسا ، كارل ومامى سيكونان
 مسرورين ، كارل ومامى . . . ذاكرة باتحاد هذه المقاطع
 الأربعة التفاهم التام بين الشخصين . ولم أكن سوى نصف أبه ، وكنت
 أرتب أمرى بحيث أبدو غاية فى البله : أمام نقى أولا . وكانت الكلمة
 تلقى بظلمها على النىء ؛ فخلال كارل ومامى كنت أستطيع الاحتفاظ
 بوحدة العائلة دون شائبة وصب جانب كبير من مزايا شارل على رأس
 لوز . كانت جدتى ظئنة وشاعرة بالخطأ ، وكانت لذلك على حافة
 السقوط دائماً ولكن كان يحول دون ذلك ذراع ملائكة أو قوة كلة .

هناك أشرار حقيقيون : البروسيون الذين أخذوا منا الأتراس واللورين
 وكل ساعاتنا الكبيرة الدقاقة فيما عدا ساعة المرمر الأسود التى تزين مدفأة
 جدى والتى قدمها له بالذات جماعة من التلاميذ الألمان ؛ من أين سرقوها
 يا ترى ؟ وكانوا يشترون لى كتب هانسى ^(١) ويرونى صورته فلا أبدى
 أى تقور من هؤلاء الرجال السمان الصنوعين من السكر الوردى
 الكثيرى الشبه بأخوالى الأتراسيين . وإن جدى الذى اختار فرنسا فى سنة
 ١٨٧١ كان يذهب من آن لآخر إلى جنسباخ وبفافهوفن ليزور هؤلاء
 الذين ظلوا هناك . وكان يأخذنى معه . وفى القطار ، حين كان
 يطلب مفتش ألمانى تذاكره ، وفى المقامى ، حين كان خادم يتأخر فى أخذ
 الطلب ، كان وجه شارل شوايتزر يصطبغ بحمرة الغضب الوطنى ؛ وكانت

(١) برسام كارىكانور ألزابى ولد فى سنة ١٨٧٣ وتوفى فى سنة ١٩٥١
 (المترجم)

المرأتان تعلقان بذراعيه : « شارل ! هل تفكر فيما تعمل ؟ سيطردوننا ولن نتال شيئاً ! » وكان جدى يرفع صوته قائلاً : « أود أن أراهم يطردوننى : أنا فى بلدى ! » وكانت المرأتان تدفمان بى بين ساقيه ، وكنت أنظر إليه كمن يتوسل ، فيهدأ . وكان يقول متهدأ وهو يحك رأسى بأصابعه : « حسناً ، من أجل الصغير . » وكانت هذه المشاهد تكدرنى منه دون أن تثير حفيظتى ضد المحتلين . ومع ذلك ، كان لا يفوت شارل فى جنسباخ أن يثور على زوجة أخيه ؟ فعدة مرات فى الأسبوع ، كان يلقي بفوطته على المائدة ويترك حجرة الطعام وهو يصفق الباب : ومع ذلك فإنها لم تكن المانية . وبعد تناول الطعام كنا نذهب لنسبح ونتعجب عند قدميه ولكنه كان يواجهنا بنظرة قاسية . وكيف لا أنضم إلى رأى جدتى القائل : « إن الأتراس لا تناسبه ، ويجب ألا يعود إليها كثيراً ، » ومن جهة أخرى ، فانى لا أحب الأتراسيين كثيراً لأنهم يعاملوننى بغير احترام وأنا لست متكدرآ لأنهم أخذوهم منا . ويبدو أنى كنت أذهب كثيراً جداً عند بدال بلا قهوفن ، السيد بلومفيلد ، وأنى أزعجه بلا داع . وأبدت خالى كارولين ملاحظاتها لأمى فى هذا الشأن . فنقلت إلى : « ولأول مرة كانت لويز شريكى فى الجريمة : إنها كانت تكره عائلته زوجها . وفى ستراسبورج ، سمعت من غرفة فندق حيث كنا مجتمعين ، أصوات ضيفة ورفيعة ، فحريت إلى النافذة : إنه الجيش ! أنا سعيد جداً أن أرى بروسيا تسير على أنغام هذه الموسيقى الصيبانية ، وأصفق . وظل جدى جالساً على كرسيه وهو يدمدم ؛ وجاءت أمى لتهمس فى أذنى بأن أترك النافذة . فأطمت مظهرآ قليلاً من الاستياء . أى نعم إنى أكره

الألمان ، ولكن بدون اقتناع . فضلا عن ذلك ، فإن شارل لا يستطيع أن يسمح لنفسه إلا بقدر قليل من الوطنية المتطرفة : ففي سنة ١٩١١ تركنا مودون لنستقر في باريس بشارع لوجوف رقم ١ ؛ ولا شك أنه تقاعد وجاء يؤسس معهد اللغات الحية ليقم أودنا . وكان هذا المعهد يعلم الفرنسية بالطريقة المباشرة للأجانب العابرين . وكان أغلب التلاميذ يأتون من ألمانيا . وهم يدفعون جيداً : ويضع جدى الجنيئات الذهبية ، دون أن يعدها قط ، في جيب سترته ؛ وفي الليل تنسل جدتى المصابة بالأرق إلى الدهليز لتقطع عثرها وخفية ، كما كانت تقول بنفسها لابنتها . وخلاصة القول كان العدو يصرف علينا ؛ وإن حرباً تقوم بين فرنسا وألمانيا تعيد لنا الأتراس ، تفلس لنا المعهد : كان شارل إذن مع الرأي القائل بالمحافظة على السلام . ثم كان هناك ألمان طيبون يأتون عندنا لتناول الغداء : ومن بينهم قصاصة حمراء الوجه وشعراء كانت لويز تسميها بضحكة صغيرة غيور : « حبيبة شارل » ، وطبيب أصلع كان يدفع أمى إلى الأبواب ويحاول تقييلها ؛ وحين كانت تشكو منه بخجل ، كان جدى ينفجر قائلاً : « تفسدين بينى وبين الجميع ! » ويرفع كتفيه ، مقررّاً « إنها تهيئات يا ابنتى ، وكانت هى التى تشمر بأثنا المذنبه . وكان جميع هؤلاء المدعوين يفهمون انه يجب عليهم أن يذهلوا أمام فضائلى ، وكانوا يلاطفوننى بوداعة : إن لديهم إذن ، على الرغم من أصلهم ، فكرة غامضة عن الخير . وفي العيد السنوى لتأسيس المعهد ، يدعى أكثر من مائة ضيف ويقدم شراب الشامبانيا ، وتعزف أمى والآنسة موتيه موسيقى باخ بأربع أيد ؛ وكنت أرتدى ثوباً من الموسلين الأزرق ، وتثر

النجوم في شعري وتركب لي أجنحة وأنتقل من مدعو إلى آخر مقدما شار
اليوسفي في سبت ، وكانوا يصبحون : « إنه ملاك بحق ا ، لا ، إنهم
لمينوا بأشرار كما تصور . لا شك أننا لم نعدل عن الانتقام للألتراس
الشهيدة : وفي العائلة ، وبصوت منخفض ، كما يفعل أولاد الأخوال في
جنسباخ وبفاكهوفن كنا نقتل الألمان بالسخرية منهم ؛ فكنا نضحك مائة
مرة ، الواحدة بعد الأخرى ، وبدون كلل من هذه الطالبة التي كتبت
توا في ترجمة إلى الفرنسية قائلة : « كانت شارلوت « كسيحة » من
الآلام على قبر فرر » ، ومن هذا المعلم الشاب الذي تأمل ، خلال عشاء ،
قطعة من السم في غير ثقة وانتهى بأن أكلها كلها يذورها وقشرتها .
إن هذه الغلطات الكبيرة تجعلني أميل إلى التسامح : إن الألمان قوم أقل
مرتبة منا ومن حسن حظهم أن يكونوا جيراننا ؛ فسوف نعطهم معارفنا .

إن القبلية بدون شارب ، كما كانوا يقولون آنئذ ، كالبيضة بدون
ملح ؛ وأضيف : وكالحير بدون شر ، كحياتي بين ١٩٠٥ و ١٩١٤ .
وإن كنا لا نعرف أنفسنا إلا بالتضاد ، فقد كنت اللامعروف بلحمه وعظمه
وإن كان الحب والكرهية هما وجه النوط نفسه وظهره ، فاني لم أكن
أحب شيئا ولا إنسانا . كان ذلك حسنا : فلا يمكن أن نكرة ونكون
موضع رضا الآخرين في وقت واحد . ولا أن ترضى ونحب .

هل أنا نرجسي إذن ؟ ولا حتى ذلك : ولما كنت شديد الاهتمام بأن
أغري فاني أنسى نفسي . ومع هذا كله ، فإن ضنع الفطائر والحريشة
وقضاء حاجاتي الطبيعية لم تكن تساني كثيرا : فلكي ترتفع قيمتها في

نظري، كان لابد على الأقل أن يدي شخص كبير اعجابه الزائد بمتجاني..
ولحسن الحظ فإن التصفيق لم يكن يتقضى : وسواء أصغوا إلى ثرثرتي وإلى
« فن المتابعات ^(١) » فإن للبالغين نفس ابتساماة التذوق الحبيثة المتواطئة ؛
وهذا ما يؤكده هوبن بال فعل التي تعني أنني تاج ثقافي.. فقد تشبعت بالثقافة
وأنا أرجعها إلى الأسرة عن طريق الاشعاع ، على نحو ما تشع من
العدران عند المساء حرارة النهار .

بدأت حياتي كما سوف أنهىها بلا شك : بين الكتب . ففي حجرة
مكتب جدي كانت الكتب في كل مكان ؛ كان محظورا تفيضها إلا مرة
في السنة ، في شهر أكتوبر ، قبل العودة إلى المدارس - . وكنت
لا أعرف القراءة بعد ، ومع ذلك فكنت أجعلها هذه الحجارة المرفوعة .
وسواء كانت قاعة أم مائلة ، متزاحمة كقطع الطوب على أرفف المكتبة
أم منفصلة بعضها عن بعض ، على غرار عمرات النهر ^(٢) ، فاني كنت
أشعر أن ازدهار عائلي موقوف عليها . كانت متشابهة كلها ، وكنت
ألهو في معبد غاية في الصغر ، محاطاً بآثار ربة وقديعة شاهدت مولدي
وسوف تشاهد وفاتي ويكفل لي دوامها مستقبلا هادئاً كالماضي . كنت
المسها خفية لأشرف يدي بغبارها ، ولكن لم أكن أعرف كيفية استعمالها
وكنت أحضر كل يوم احتفالات لم أكن أفهم معناها : فان جدي -
الآخرق في المادة إلى الدرجة التي تجعل أمي تزرر له قفازيه - كان

(١) مقطوعة موسيقية تلحين باخ .

(٢) حجر كبير قائم يصل ارتفاعه إلى عشرين متراً ، من آثار القبائل التي

كانت تعيش في إقليم برناني بفرنسا (المترجم) ..

يلبس هذه الأشياء الثقافية بمهارة الكهنة . وقد رأيت ألف مرة ينهض
مشتت الفكر ويدور حول مائدته ، ويحتاز الحجرة في خطوتين ، ويأخذ
عجلدا دون تردد ، وبدون أن يمنع نفسه وقتا للاختيار ويقلب صفحاته وهو
عائد إن مقعده ، بحركة متعاقبة بين الابهام والسياسة ، ثم بمجرد جلوسه
يفتحه بمخبطة واحدة « في الصفحة المطلوبة » وهو يقطع كالخذاء . وكنت
أحيانا أثرب لأراقب هذه الصناديق التي كانت تنشق كالحجار وكنت
أكتشف عرى أعضائها الداخلية ، أوراق شديدة الشحوب ومتعفنة ،
ومتفخة قليلا ، مغطاة بعريقات سوداء تسرب الحبر وتنبعث منها رائحة
عش الغراب .

وفي غرفة جدتي كانت الكتب ماثلة ؛ وكانت تستعيرها من مكتب
المطالعة ولم أر منها قط أكثر من كتابين في وقت واحد . إن هذه
الزيئات الحفيرة كانت تذكرني بحلوى رأس السنة لأن وريقاتها الرخصة
اللامعة تبدو وقد قصت من ورق مصقول . وكانت لامعة وبيضاء وشبه
جديدة وكانت تستخدم حجة لأسرار خفيفة : وفي كل يوم جمعة ، كانت
جدتي ترتدى ملابسها لتخرج قائلة : « أنا ذاهبة لارجاعهما » ؛ وعند
عودتها ، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وخارها ، كانت تخرجهما من
الفرو التي تدفء بها يديها وكانت أسأل نفسي مخدوعا : هل هما بذاتهما ؟
وكانت تغلفهما بعناية ، وبعد أن تختار أحدهما ، تجلس بالقرب من النافذة
على كرسيها الواسع ذي الوسائد الصغيرة وتضع نظارتها وتشهد بسعادة
وتب وتخفض جفניה بابتسامة ناعمة متلذذة ، التقيت بها بعد ذلك على شفتي
الجيو كوندرا ؛ وكانت أمي تصمت وتدعوني إلى الصمت ، وكنت أفكر في

الهداس والموت والنوم : وأملاً تقى بصمت مقدس . ومن وقت لآخر ، كانت لويز تضعك فحكة صغيرة ؛ وتنادى ابتها وتشير بأصبعها إلى سطر ، وكانت المراتان تتبادلان نظرة متواطئة . ومع ذلك كنت لا أحب هذه الكتب المصورة الصغيرة الحجم المتناهية في الأناقة ؛ لقد كانت دخيلة ولم يكن جدى يخفى أنها موضع عبادة صغرى ، مقصورة على النساء . وفى يوم الأحد كان يدخل عن فراغ حجرة زوجته ويقف أمامها ، دون أن يجد ما يقوله لها ؛ وكان الجميع ينظرون إليه وهو ينقر الزجاج ، فإذا نصب خياله ، تحول إلى لويز وأخذ روايتها من يديها . وكانت جدتى تصرخ غاضبة : « شارل ! إنك ستضيع الصفحة ! ، ولكنه كان يرفع حاجبيه ويقرأ ؛ ولجأة يضرب الكتاب بسبابته ويصيح : « إني لا أفهم ، وكانت جدتى تقول له : « ولكن كيف تريد أن تفهم ؟ إنك تقرأ من الداخل ! ، وينتهى الأمر بأن يرمى بالكتاب على المائدة ويذهب رافعا كتيفه .

كان على حق بالتأكيد لأنه ابن الصنعة نفسها . وكنت أعرف ذلك : فقد أرانى على رف من المكتبة كتباً ضخمة مجلدة بالكرتون ومغطاة بنسيج بى . « تلك الكتب أيها الصغير ، صنعها جدك . . يا للفخر ! لقد كنت حفيد صانع متخصص فى صنع الأشياء المقدسة ومحترم . مثل صانع الأرغن وحائك ثياب رجال الاكليروس . وقد شاهدته وهو يعمل . فى كل عام كان يعاد طبع « المطالعة الألمانية » . وأثناء الاجازة الصيفية كانت العائلة كلها تنتظر تجارب الطبعة بفارغ الصبر : وكان شارل لا يحتمل البطالة ، ويفضرب من ضياع الوقت وأخيراً كان ساعى البريد يحضر

رزمات ضخمة رخصة . وكانت الحيوط تقص بالمقص ؛ وكان جدى يرد
 السلخات وينشرها على مائدة حجرة الطعام ويقطعها بخطوط حمراء ؛ وأمام
 كل غلطة مطبعية كان يهدف فى تخته ، ولكنه لم يكن يصرخ إلا حين
 كانت الخادمة تباشر فى إعداد المائدة . وكان السرور يعم الجميع . وكنت
 أقف على كرسى وأنظر باعجاب شديد إلى هذه الأسطر السوداء
 المضرجة بالدماء . وقد أخبرنى شارل شواينز أن له عدوا لدوداً ، هو
 ناشره . جدى لم يعرف الحاسبة قط : ولما كان مسرفاً عن غفلة ، واخيراً
 عن مباحاة ، فقد انتهى به الأمر إلى الإصابة ، بعد وقت طويل ، بهذا
 المرض الذى يناسب الذين بلغوا الثمانين وهو البخل ، نتيجة للمعجز والخوف
 من الموت . وفى ذلك الوقت كان البخل قد ظهر فى شكل ارتياب غريب :
 فحين كان يتسلم بحالة حاصل حقوق التأليف ، كان يرفع ذراعيه إلى
 السماء وهو يصرخ بأنهم يذبحونه أو يدخل حجرة جدتى ويعلن فى كآبة :
 « إن ناشر كتابه يسرقه كما يسرق الناس فى القاعة . » واكتشفت ،
 مذهولاً ، استغلال الإنسان للإنسان . ولولا هذه الشناعة التى أوقفت
 عند حدها لحسن الحظ ، لكان العالم بخير ؛ ومع ذلك فإن أصحاب العمل
 بحسب قدرتهم ، يطمون المال حسب استحقاقهم . ولماذا يشوه جمال هذا
 العالم هؤلاء الناشرون المحتلسون بعصم دماء جدى المسكين ؟ لقد ازداد
 احترامى لهذا الرجل انقيس الذى لم يكافأ على تقانيه . وقد أعددت مبكراً
 لأن اعتبر التدريس كهوناً والأدب هوى .

ولم أكن أعرف القراءة بعد ، ولكنى كنت محباً للظهور إلى الحد
 الذى جعلنى أطلب بكتب لى . وذهب جدى إلى ناشره الوغد وأخذ منه

« قصص » الشاعر موريس بوشور ، المقتبسة من الأدب الشعبي والموضوعة في أسلوب يتناسب وذوق الطفل ، بقلم رجل احتفظ بعيون الطفولة كما يقول . وأردت أن أبدأ في الحال احتفالات التملك . وأخذت المجلدين الصغيرين وشمتهما وجسستهما وفتحتهما بلا اكتراث ، في الصفحة المطلوبة ، وجعلتهما يقرقان . ولكن عبثا : فلم أكن أشعر بأنى أملكهما . وحاولت دون تحقيق نجاح أكبر أن أعاملهما كأهنا دميّتان ، فأهددهما ، وأقبلهما وأضربهما وانتهى بي الأمر ، وأنا أكاد أبكي ، إلى وضعهما على ركبتي امي . فرفعت عينها من على شغلها وقالت لي : « ماذا تريد أن أقرأ لك يا حبيبي ؟ الجنيات ؟ » فآلتها ، غير مصدق : « الجنيات ، هل هي داخل الكتاب ؟ » ، إن هذه القصة كانت مألوفة عندي : وكانت امي تقصها على كثيرا ، حين كانت تغسل لي وجهي ، وتوقف لتدلكني بماء الكولونيا أو لكي تلتقط من الغطس قطعة الصابون التي انزلت من بين يديها . وكنت أضغى ساهيا إلى القصة التي كنت أعرفها جيدا ؛ ولم أكن أنظر إلا للفتاة آن ماري ، التي كانت تطالعني كل صباح ؛ ولم أكن أضغى إلا لصوتها المضطرب بالبودية ؛ كنت أعجب بحملها غير الكاملة وبكلماتها دأمة البطء . وبثقتها الفجائية التي تنكسر بشدة وتحول إلى هزيمة لتختفي في تمزق رخيم . ولتعود ثانية بعد صمت . إن القصة كانت تأتي عرضا باعتبارها الرباط الذي يجمع بين سلسلة مناجياتها . وطالما كانت تسكهم ، كنا وحيدين ومختفين بعيدا عن الناس والآلهة والكهنة ، كوعلين في الغابة مع هذه الوعول الأخرى ألا وهي الجنيات ؛ ولم أكن أستطيع أن أصدق أنهم ذهبوا إلى حد تأليف كتاب كامل ليضمونه هذا

الجزء من حياتنا اللاقدسية التي تنبعث منها رائحة الصابون وماء الكولونيا .

أجلستنى آن مارى فى مواجهتها ، على كرسى الصغير ؛ وانحنت وخفضت جفניה ونامت . ومن هذا الوجه الذى يشبه التمثال خرج صوت جامد . وفقدت عقلى : من كان يحكى ؟ وما الذى كان يحكىه ؟ ولبن كان يحكى ؟ لقد تغيبت أُمى : لا ابتسامة ولا إشارة تواطؤ ، لقد كنت فى النفى . ثم لم أكن أعرف لغتها . من أين أخذت هذه الثقة ؟ وفهمت بعد لحظة : كان الكتاب هو الذى يتكلم ، وتخرج منه جل تخيفى : كانت حرش ^(١) حقيقية وكانت تغص بالمقاطع والحروف وتعد أصواتها وتهز الحرفين الساكنين ؛ والحروف الشادية ، والانتية ، مشطورة بوقفات وتهذبات ، غنية بكلمات غير معروفة ، تأخذ بعضها برقاب بعض وبعطفاتها دون أن تبالى بى : وكانت تختفى أحيانا قبل أن أتمكن من فهمها ، وأحيانا كنت أفهم مقدما وكانت تستمر فى سيرها بكرم نحو نهايتها دون أن تغيبنى من فاصلة . ومن المؤكد أنى لم أكن المقصود بهذا الخطاب . أما القصة فقد ارتدت ثياب العيد : فالخطاب والخطابة وبناتهما والجنية ، كل صفار القوم هؤلاء ، أمثالنا ، اكتسبوا جلالة ؛ فكانوا يتحدثون عن أسماهم بعظمة ، وكانت الكلمات تؤثر على الأشياء بحولة الأعمال إلى طقوس والأحداث إلى احتفالات . وأخذ أحدهم يوجه أسئلة : إن ناشر مؤلفات جدى ، وقد تخصص فى نشر الكتب المدرسية ، كان

(١) جم: حريش : وهو الحيوان الزاحف المسمى بأرم أربع وأربعين .

ينتهز كل فرصة لتدريب ذكاء قرائه الغنى . وبدأ الى أنهم يسألون طفلاً :
 ما الذى كان سوف يعمل لو أنه كان الخطاب ؟ أى الأختين كان يفضل ؟
 ولماذا ؟ هل يقر عقاب بابيت ؟ ولكن هذا الطفل لم يكن أنا تماماً
 وكنت أخشى الاجابة . ومع ذلك فقد أجبت ، وضاع صوتى الضعيف
 وشعرت بأننى أصبحت ، شخصاً آخر . وأن مارى أيضاً كانت شخصاً
 آخر بهيئتها التى تشبه الكفيف قوى البصيرة : لقد بدا الى أننى كنت ابناً
 لكل الأمهات ، وأنها كانت أمّاً لكل الأولاد . وحين كفت عن
 القراءة ، انتزعت منها الكتب وحملتها تحت أبطى دون أن أقول
 كلمة شكر .

وبعضى الوقت أصبحت أتلذذ بهذا الصوت الذى كان ينزعنى من
 نفسى : وكان موريس يوشور ينحنى على الطفولة بتلك العناية الشاملة التى
 يديها رؤساء الأقسام لزبائن المحال الكبرى ؛ وكان ذلك يرضينى .
 وأصبحت أفضل القصص المصنوعة قبلاً على القصص المترجمة . وغدوت
 أتناثر بالتسلسل الدقيق للكلمات : فعند كل قراءة ، كانت تعود دائماً
 بذاتها وبالترتيب نفسه ، وكنت أستظرها . وفى حكايات آن مارى ،
 كان الأشخاص يمشون يوماً بيوم ، كما كانت تفعل هى : وانتهى كل
 منهم إلى مصر . وكنت فى القداس : أشهد الاسماء والأحداث وهى تتردد
 تردداً دائماً .

وقد غرت حينئذ من أمى وقررت أن آخذ دورها منها . واستوليت
 على كتاب عنوانه : « مغامرات أحد الصينيين فى الصين » وحملته إلى حجرة .

الأشياء. المستغنى عنها ؛ وهناك وقفت على سرير مجواجز ، وتظاهرت بالقراءة : وكنت أتابع بعيني الأسطر السوداء دون أن أترك سطرًا واحدًا وأقص على نقى قصة بصوت عال مع العناية بنطق كل المقاطع . وفاجأوني — أو جعلتهم يفاجئونني — وصاحوا متعجبين وقرروا أن الوقت قد حان لتعليمي الحروف الأبجدية . وكنت متحمسا كالموعوظ ^(١) ؛ وذهب بي الحساس إلى حد اعطاء نقسى دروسا خاصة : كنت أتسلق سريري ذا الحاجز مع رواية « بلا عائلة » لهكتور مالو التى كنت أحفظ بعضها وأطالع فى صعوبة بعضها الآخر وأقلب جميع صفحاتها ، الواحدة بعد الأخرى : وعندما قلبت آخر صفحة ، كنت قد تعلمت القراءة .

لقد جئت فرحا : إن هذه الأصوات التى جفت كالنباتات بين الصفحات هى لى ، هذه الأصوات التى كان جدى يبعثها بنظرتة ويسمها ولا أسمها انا ! لسوف أصغى إليها وسوف أملا نقسى بخطب احتفالية وأعرف كل شئ... وتركونى آتجول فى المكتبة وهجمت على الحكمة الانسانية ، الشئ الذى كوننى . وبعد ذلك سمعت مائة مرة أعداء السامية يأخذون على اليهود جهلهم لدروس الطبيعة وصمتها ؛ وكنت أجيب : « إبنى فى هذه الحالة أكثر يهودية منهم . » وعبثا أبحث فى نقسى عن الذكريات الغامضة وعن الشقاوة اللطيفة لأطفال الريف . إبنى لم أحفر الأرض قط ولم أبحث عن أعشاش ، ولم أجمع النباتات من الحقول ولم أقذف الطيور بالحجارة . ولكن

(١) الذى يعتنق دينا جديدا عن اقتناع (المترجم) .

الكتب كانت طيورى وأعشاشى ، وحيواناتى الأليفة وحظيرتى وريفى ؛ إن المكتبة كانت العالم معكوسا فى مرآة ؛ كان لها سمكة اللانهاى وتنوعه وعدم القدرة على التنبؤ بما سيقع فيه من أحداث . لقد نفذت بنفسى فى الغامرات المعجبة : وكان لا بد لى من تسلق الكراسى واللوائذ غير مبال بالانهيارات التى قد تردمنى تحتها . وظلت كتب الرف الأعلى بعيداً عن متاولى مدة طويلة ؛ واتزعت كتب أخرى من يدى بمجرد اكتشافى لها ؛ وغيرها من الكتب كانت غبأة أيضا : كنت قد أخذتها وبدأت قراءتها واعتقدت بأننى أعدتها إلى مكانها ، ولكن كان لابد من أسبوع للعثور عليها . لقد التقيت بأشياء مرعبة : فكنت أفتح دفترا للرسوم ، وأصادف لوحة بالألوان ، وخنرات قبيحة تتحرك تحت نظرى . وكنت أنوم برحلات شاقة خلال فوتنيل واريستوفان وربليه وأنا راقد على السجادة : وكانت الجمل تقاومنى على منوال الأشياء ؛ كان لابد من ملاحظتها واللف حولها والتظاهر بالابتعاد والعودة بغتة إليها لمفاجأها بعيداً عن حراسها : وفى أغلب الأحيان ، كانت تحتفظ بسرها . وكنت لا يروز^(١) وماجلان وفاسكودى جاما ؛ وكنت أكتشف سكانا أصليين غرباء : كلمة « هيو تونيمورومينوس » فى إحدى تراجم تيرانس^(٢) فى بيت شعر ذى اثنى عشر مقطعا ، واصطلاح « المزاج الشخصى » فى كتاب يبحث فى الأدب المقارن . والكلمات « أبوكوب » و « الشبك » و « نموذج »

(١) ملاح فرنسى مشهور توفى سنة ١٧٨٨ (المترجم)

(٢) شاعر كوميدى لاتنى ولد فى قرطاجة فى حوالى سنة ١٩٠ قبل الميلاد .

قلد الشعراء اليونانيين (المترجم)

ومائة كلمة أخرى مغلقة وقصية كانت تظهر في معنى صفحة . وكان مجرد ظهورها يقطع أوصال الفقرة كلها . إننى لم أعرف معنى هذه الكلمات الصلبة والسوداء إلا بعد ذلك بشهر أو خمس عشرة سنة . وهى تحتفظ حتى اليوم بعدم شفافيتها : إنها دبال ذا كرتى .

لم تكن المكتبة تحوى إلا كبار كلاسيكي فرنسا وألمانيا . وكانت هناك أيضا كتب قواعد وبعض الروايات المشهورة ، وتخصص مختارة لموباسان ومؤلفات فى الفن — عن روبانس وفان ديك ودورر ورامبرانت — وكان تلاميذ جدى قد أهدوها له بمناسبة عيد من أعياد رأس السنة . إنه عالم هزيل . ولكن قاموس لاروس الكبير كان كل شيء بالنسبة لى : كنت أتناول جزءا عرضا ، خلف المكتب ، على الرف قبل الأخير ، من حرف ا إلى كلمة يلو ومن يلو ك إلى ش أو من ت إلى ث ومن كلمة ميل إلى بو أو الباء الثقيلة والراء إلى آخر حرف من حروف الأبجدية الفرنسية (إن هذا التآلف بين المقاطع أصبح بالنسبة لى أسماء أعلام تشير إلى أقسام المعرفة العامة : فهناك المنطقة التى تمتد من حرف التاء إلى حرف الثاء ومنطقة الباء الثقيلة المتبوعة بالراء إلى آخر حرف من الأبجدية الفرنسية بحيواناتها ونباتاتها ومدنها ورجالها العظام ومعاركها) ؛ كنت أخطئه بصعوبة على القرطاس الذى يضعه جدى تحت يديه على المكتب ليكتب عليه ، وأفتحه وأخرج منه الطيور الحقيقية . وكنت أصطاد فيه الفراشات الحقيقية . النازلة على أزهار حقيقية . وكان الناس والحيوانات بذواتهم هناك : وكانت الصور المطبوعة هى أجسامها والنص روحها وجوهرها الفريد ؛

هولتقى خارج الأسوار برسوم غير كاملة ، مبهمة تقترب بعض الشيء من التماذج ولكن دون أن تصل إلى كمالها : ففي حديقة الحيوان كانت القردة أقل من القردة ، وفي حديقة اللوكسبورج كان الناس أقل من الناس . ولما كنت أفلاطونيا من حيث الوضع ، فكنت أبدأ بالمعرفة . وانتهى بموضوعها ؛ وأجد الفكرة أكثر واقعية من الشيء ، لأنها كانت تعطى نفسها لى أولا ولأنها كانت تعطى نفسها كشيء . ففي المكتب التقيت بالكون : متمثلا ومصنفا ومعنونا ومتأملا فيه ومرهوبا أيضا ؛ وقد خلطت فوضى تجاربي المكتنية بالمجرى الخطر للأحداث الواقعية . ومن هناك جاءت هذه المثالية التى أنفقت ثلاثين سنة للتخلص منها .

كانت الحياة اليومية راتقة : فكنا نعاشر أشخاص رصينين يتكلمون بصوت عال وبوضوح ويؤسسون يقينهم على مبادئ سليمة ، على حكمة الأمم ولم يكونوا يفضلون تمييز أنفسهم عن العامة إلا ببعض تكلف فى الروح كنت قد اعتدته تماما . وما أن يدلوا بأرائهم حتى أقنع بها يدهاة شفافه وساذجة . فإذا أرادوا أن يبرروا سلوكهم قدموا أسبابا معلقة إلى الحد الذى لا يمكن إلا أن تكون حقيقة ؛ وإن مشكلاتهم الضميرية التى يمرضونها برضاء كامل كانت تقتلنى أذل مما تنبئى : وكانت هذه المشكلات منازعات زائفة تم حلها من قبل ؛ وهى نفس المشكلات دائما ؛ وإن أخطاءهم حين كانوا يعترفون بها لم تكن تثقل ضمائرهم كثيرا : إن المعجلة الشديدة ، هذا الهيجان الشرعى البالغ فيه . بلا شك قد حرفت حكمهم ؛ ولكنكم انتبهوا إليها فى الوقت المناسب لحسن الحظ ؛ وإن أخطاء

العائين الأكبر من أخطائهم كانت قابلة دائماً لأن تغفر : فلا اغتياب عندنا ، إنها عيوب في السلوك كانت تلاحظ بأسى . وكنت أصغى ، وأفهم ، وأوافق ، وأجد هذه الأحاديث مطمئنة ، ولم أكن غخطاً بما أنها كانت تهدف إلى الطمأنينة : لا داء بلا دواء وفي الواقع لا شيء يتحرك ، إن الاضطرابات السطحية الباطلة يجب ألا تخفى علينا الهدوء الجنازى الذى هو نصينا .

كان زوارنا يستأذنون في الرحيل ، فأظل وحيداً وأهرب من هذه القبرة المتبدلة ، وكنت أذهب للحاق بالحياة وبالجنون في الكتب . وكان يكفيني أن أفتح كتاباً منها لاكتشف فيه هذه الفكرة اللاإنسانية ، الحلقة التي تتجاوز أبتها وظلماتها إدراكي والتي تقفز من فكرة إلى أخرى بسرعة تجعلني أفلك قبضتي مائة مرة في الصفحة وأتركها تهرب وأنا مذهول ، ضائع . وحضرت أحداثاً كان جدى يعتبرها بالتأكيد بميدة التصديق ومع ذلك فقد كان لها الصديق الواضح للأشياء المكتوبة . وكانت الأشخاص تظهر دون استئذان وتحاب وتفضل وتتقاتل ؛ وكان الباقي على قيد الحياة يذبل كدماً ويلحق في القبر بالصديق وبالخليلة الحنون التي اغتالها توا ، ما الذى كان يجب على أن أفعله ؟ هل كنت مدعوا كالأشخاص الكبار إلى اللوم والتهنئة والغفران ؟ ولكن هؤلاء الشواذ لم يكن يبدو عليهم أنهم يسرون على مبادئنا . ودوافعهم ، حتى عندما كانوا يقدمونها ، لم أكن أدركها فبروتوس يقتل ابنه وهذا ما يفعله ماتيو فالكونيه (١) أيضاً .

(١) بطل إحدى قصص الأديب الفرنسي بروسير ميرعى (المترجم)

فهذه العادة كانت تبدو مألوفاً بقدر كاف . ومع ذلك فإن أحداً من حولى لم يلجأ إليها . لقد اختلف جدى حين كنا فى مودون مع خالى اميل وسمعتهما يصرخان فى الحديقة : ولكن لم يكن يبدو أنه فكر فى قتله . كيف كان جدى يدين الآباء الذين يقتلون أولادهم ؟ أما أنا فكنت أمتنع عن الادلاء برأىي : حياتي لم تكن فى خطر لأنى كنت يتما وهذه الاغتيالات الاستمرارية كانت تسلىنى بعض الشيء ، ولكن فى القصص التى كانوا يؤلفونها عنها ، كنت أشعر بمواقفة محيرة . وبالنسبة لهوراس كنت مضطراً إلى مقاومة نفسى كي لا أبصق على الصورة التى تظهره لابسا خوذة ، شاهراً سيفه ، جارياً خلف كاهى السكينة . وكان كارل يندن أحيانا :

ليس هناك أقرب

من الأخ والأخت طبعاً ..

كان ذلك يلقىنى : ولو أن الحظ أعطانى أختاً ، لكان من الممكن أن تكون أقرب إلى من آن مارى ؟ من كارليمي ؟ إذن لأضحت جيتي ، و « جيتي » لم تكن بعد إلا كلمة غامضة كنت أصادفها كثيراً فى ماسى كورنى . أحباء يقبلون بعضهم بعضاً ويتواعدون أن يناموا فى نفس السرير (عادة غريبة : ولم لا ينامون فى سريرين متشابهين كما أفعل أنا وأمى ؟) . لم أكن أعرف أكثر من ذلك ، ولكن تحت السطح المضىء للسكر ، كنت أشعر مقدماً بكتلة مشعرة . لو كنت أخاً لعدوت ابن سقاح على أى حال . كنت أحلم بذلك . ولكن هل هو هروب أو إخفاء لشمور

ممنوع ؟ قد يكون ذلك . وكانت لى أخت أكبر ، هى أمى ، وكنت أتمنى أن تكون لى أخت أصغر . وحتى اليوم - ١٩٦٣ - أرى أنه الرباط العائلى الوحيد الذى يحرك شجوى^(١) . لقد اقترفت الخطأ الكبير بأن بحثت كثيراً بين النساء عن تلك الأخت التى لم تكن : وقد حكم بعدم صحة دعواى وبدفع الصاريف . وهذا لا يمنع أنى ، وأنا أخط هذه الأسطر ، أبث الغضب الذى اتابنى على قاتل كأمى ؛ إن غضاضتها الزائدة وحيويتها الفائقة جعلتانى أسائل نفسى عما إذا كانت جرعة هوراس إحدى أسباب عداوتى للمسكرية : إن المسكرين يقتلون أخواتهم . ولو كنت حاضراً لأذقته المر هذا الجندى القظ الغليظ . وأول ما أفعله أربطه إلى عمود وأفرغ فى جسمه اثنتى عشرة رصاصة ! وأدرت الصفحة ؛ إن حروفاً مطبعية تبرهن لى على خطئى : فلا بد من إطلاق سراح قاتل أخته . ولبضع دقائق أخذت أنفخ وأضرب الأرض بقبقابى كالثور المخدوع . ثم كنت أسرع إلى رمى الرماد على غضبي . كان الأمر كذلك ؛ وكان على أن أخضع له إذ كنت صغيراً جداً . وكنت قد فهمت كل شئ بالمقلوب

(١) عندما كنت فى حوالى العاشرة كنت أتلذذ بقراءة « عابرات المحيطات » : حيث نجد أمريكياً صغيراً وأخته غاية فى البراءة . كنت أتجد الصبي وأحب خلاله « بيدي » الفتاة الصغيرة . وقد فكرت طويلاً فى كتابة قصة عن طفلين ضائعين وابنى سفاح سرا . وتوجد فى كتاباتى آثار هذه الرؤية : أورست والكفرا فى « الباب » ، بوريس وإيفيش فى « طرق الحرية » وفرانز وإيلى فى « سجناء التونة » . إن الزوج الأخير هو وحده الذى انتقل إلى العمل . إن ما كان يفرينى فى هذا الرباط العائلى هو تحريم المضاجعة أكثر من اغواء الحب : نادر وجليل ، لذة ممزوجة بالحرمان ، وكان السفاح يروق لى إذا ما ظل عنفياً .

إن ضرورة هذه التبرئة كانت موجودة بالذات في الآيات الكثيرة التي ظلت أمامي مغلقة أو التي تركتها لنفاد صبرى . كنت أحب هذا الشك وأحب أن تغلت منى القصة من كل جهة : كان ذلك يحيرنى . لقد أعدت قراءة الصفحات الأخيرة من رواية « مدام بوفارى » عشرين مرة ؛ وفي النهاية حفظت عن ظهر قلب صفحات كاملة دون أن يكون سلوك الأرملة المسكين أكثر وضوحا لى : لقد وجد خطابات ، ولكن هل هذا سبب تركه لحيته تنمو ؟ إنه يلقي نظرة غامضة على رودولف ، فهو يحقد عليه إذن — ولماذا يحقد عليه بالفعل ؟ ولماذا قال له : « إبنى لا أحقد عليك » ولماذا كان رودولف يحبه « مضحكا ودنياً بعض الشيء » ؟ ثم يموت شارل بوفارى : هل يموت حزنا ؟ هل يموت من المرض ؟ ولماذا يفتحه الطبيب وقد انتهى كل شيء ؟ كنت أحب هذه المقاومة الصلبة التي لم أتمكن قط من القضاء عليها ؛ ولما كنت مخدوعا وعاجزا ، فقد تذوقت لذة الفهم دون فهم ، هذه اللذة الغامضة : إنها بطء فهم الناس ؛ إن القلب الإنسانى الذى كان جدى يتكلم عنه بطيية خاطر مع العائلة كنت أجده فارغا وبلا طعم فى كل مكان ما عدا فى الكتب . إن أسماء مصدعة كانت تكيف أمرجى وتلقى بى فى جو من الرعب أو من الحزن لا أعرف أسبابه . كنت أقول « شاربوفارى^(١) » ولم أكن أرى فى أى مكان رجلا طويل القامة ذا لحية يتنزه فى أسماله داخل حظيرة . ولم يكن ذلك محتلا . كان يوجد فى منبع هذه اللذة القلقة مزيج من خوفين متناقضين . كنت أخشى أن أسقط على رأسى فى عالم خرافى وأن أتوه فيه بلا انقطاع ، بمصاحبة

هوراس وشاربوفارى ، دون أمل فى أن أعثر على شارع لوجوف وعلى كارليماسى ولاعلى أمى . ومن جهة أخرى ، فقد اكتشفت أن هذه الجمل المتتابعة تقدم للقراء البالغين معانى تتوارى عني . ومن عيني كنت أدخل فى براسى كلمات سامة ، أغنى بكثير مما أعلم ؛ إن قوة غريبة كانت تعيد تكوين حزن هائل فى نفسى هو حطام حياة ، وذلك بكلام اعن قصص هائجين لا تتعلق بي : ألن أفسد نفسى وأموت مسموما ؟ ولما كنت أمتص الكلمة وتمتنى الصورة ، فاني لم أكن أتخذ نفسى أخيراً إلا بتناقض هذين الخطرين الآنيين . وعند جنوح النهار ، وأنا تائه فى غابة من الكلام ، أرتعد لأدنى صوت وأظن طقطقة الأرضية الحشوية أصوات تعجب ، كنت أعتقد أنني اكتشفت اللغة فى حالتها الطبيعية ، دون الناس . وبأى عزاء جبان وبأية خيبة أمل أجد الابتذال العائلى حين تدخل أمى وتضىء العرفة وهى تصيح : « يا حبيبي المسكين إنك تملع عينيك ! » وكنت أقفز على قدمي ، شارداً ، وأصبح وأعدو ، وأهرج . ولكن حتى فى هذه الطفولة التى أعدتها ، كانت هذه الأسئلة تطلقني : عم تتحدث الكتب ؟ من الذى يكتبها ولماذا ؟ بحث بقلبي إلى جدى الذى رأى — بعد تفكير — أن الوقت قد حان لتحرري وقد قام بهذه المهمة على أحسن وجه الشيء الذى طبعني بطابعه .

كان يهددني طويلاً على ساقه الممدودة وهو يغني : « أنا رابك حصانى الصغير وحين يخب يضرب » وكنت أضحك من الفضيحة ، ولم يعد يغني : وأجلسني على ركبتيه ونظر إلى فى أعماق عيني وكرر جهاراً « أنا انسان ، أنا انسان وكل ما هو انساني ليس غريباً على . » وكان يخالي كثيراً : وكما قل أنلاطون فى الشاعر ، فقد طرد كارل من جمهوريته

المهندس والتاجر كما طرد الضابط على الأرجح . إن المصانع كانت تشوه المناظر الطبيعية ، ولم يكن يذوق من العلوم البحتة سوى نقاوتها . وفي جريني حيث كنا نقضى النصف الثانى من شهر يوليو ، كان خالى جورج يصحبنا لزيارة السابك : وكان الجو حارا وكان رجال غلاظ فى ملابس رثة يدفعوننا ؛ وكنت أموت من الخوف والملل وقد أصمت أذنى أصوات هائلة ؛ وكان جدى ينظر إلى المدن المنصهر وهو يصفر تأدبا ولكن عينه كانت كالتيه . ولكن فى الأوفرني ، فى شهر أغسطس ، كان يتجول باحثا خلال القرى وكان يقف أمام الأبنية القديمة ويضرب الطوب بطرف عصاه ويقول لى بحرارة : « إن ماتراه هنا يا صغيرى هو حائط غالى — رومانى » . وكان يقدر كذلك الفن الممارى الدينى وعلى الرغم من مقتته لأتباع البابا لم يكن يفوته قط دخول الكنائس حين تكون على الطراز القوطى أو طراز القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كان ذلك موقوفا على مزاجه . لقد اقطع عن الذهاب إلى حفلات الكونسير ولكنه كان يحضرها :: فقد كان يحب بهوفن وأبته وأوركستراه الكبيرة ؛ وكان يحب باخ أيضاً ولكن بدون اندفاع . ويقترب أحيانا من البيانو ويوقع بأصابعه اليابسة بعض التوافقات الموسيقية وهو واقف : وكانت جدتى تقول بابتسامة مكتومة : « إن شارل يؤلف . » وكان ولداه — وخاصة جورج — قد أصبحا عازفين مجيدين يكرهان بهوفن ويفضلان موسيقى الحجرة ؛ ولم يكن جدى يتضايق من اختلاف وجهات النظر هذه ؛ وكان يقول بلهجة تم عن الطيبة : « إن عائلة شفايتزر ولدت موسيقية . » وبعد .

ثمانية أيام من مولدى حين بدا منى أننى مسرور من قرع ملقة ، قرر أن
لدى أذنا موسيقية .

إن نوافذ الكنائس المزخرفة بالزجاج الملون والأقواس والأبواب
المنحوتة والأناشيد ومناظر صلب منحوتة فى الحشب أو فى الحجر
والنوافذ الملونة والشعرية والأشكال الشاعرية ، كل هذه الانسانيات كانت تخلق
فىنا الاحساس بالقداسة وفضلا عن ذلك كان لا بد من الجمال الطبيعى .
إن روحا واحدة كانت تشكل أعمال الله والأعمال الانسانية العظيمة ؛
إن قوس قزح كان يلعب فى زبد الشلالات ويتراقص بين أسطر قلوير
ويلعب فى لوحات رامبرانت التى يصفى السواد المحيط بشخصها البيضاء
مزجاً من اللائى : تلك هى الروح ، الروح التى تحدث البشر عن الله
وتجلبو لهم وجوده . . وكان جدى يرى فى الجمال الوجود المادى للحقيقة
ومصدرا لأعلى سمو . وفى بعض الأحوال الاستثنائية — حين كانت تفجر
عاصفة فى الجبل ، وحين كان يلهم فيكتور هوجو — كنا نستطيع الوصول
إلى النقطة السامية حيث تختلط الحقيقة والجمال والخير بعضها ببعض .

لقد وجدت دينى : ولم يبد لي أن هناك ما هو أهم من الكتاب :
كنت أجد فى المكتبة معبداً ، ولما كنت حفيد قسيس ، فكنت
أعيش على سقف العالم ، فى الطابق السادس جأما على أعلى
فرع من الشجرة الأساسية : وجزعها ، هو نقص المصعد . وكنت
أروح وأغدو على الشرفة وأرى المسارة بنظرة عمودية ، وأحسب
من خلال القنبان لوسيت مورو ، جارتى ، التى كانت فى سنى وشعرى

الأشقر المجد وأنوثى الصغيرة ، وكنت أدخل في الكوة أو في المدخل ولا أنزل أبدا : وحين كانت أمى تصحبني إلى حديقة اللوكسمبورج — أى كل يوم — كنت أعير ملابسى المزقة للجهات السفلى ولكن جسدى المجيد لم يكن يترك جشمه ، وأعتقد أنه لا يزال هناك . ولكل انسان مكانه الطبيعى ؛ ولا يحدد ارتفاعه الكبرياء أو القيمة : إن الطفولة هى التى تقرر ذلك . ومكانى هو طابق سادس فى باريس يطل على أسطح المنازل . لقد اختفت زمنا طويلا فى الوديان وأثقلت السهول كاهلى : وكنت أجزر رجلى على كوكب المريخ وكان الثقل يسحقنى ؛ ونيكفىنى أن أتسلق إحدى الروابي ليعاودنى السرور : وكنت أعود إلى طابقى السادس الرمزى ، واستنشق فيه من جديد هواء الآداب النادر ، وكان الكون يتدرج عند قدمى وكل شىء كان يطلب بتواضع اسما ، واعطاؤه اياه كان يعنى خلقه وأخذه فى وقت مما . ولولا هذا الوجود الأساسى لما كتبت أبدا .

واليوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٦٣ أضحى هذا المخطوط فى الطابق العاشر من منزل جديد : ومن نافذة مفتوحة أرى مقبرة ، وباريس وتلال سان كلو الزرقاء . مما يدل على عنادى . ومع ذلك فشكل شىء قد تغير . فعندما كنت طفلا ، هل كنت أريد أن أستحق هذا المركز العالى ، لا بد أن فى حى لايراج الحمام أثرا للطموح والزهو وتمويضا لقامتى القصيرة . ولكن لم يكن الأمر أن أتسلق على شجرتى المقدسة فقد كنت فوقها وكنت أرفض النزول ، ولم يكن الأمر أن أضغ نفسى فوق الناس : كنت أريد أن أعيش فى وسط الأثير ، بين الأشباح الهوائية للأشياء . وبعد ذلك ، وبدون أن أتشبث غناطيد ، بذلت كل همى فى القوس : وكان لا بد من

ارتداء نعال من رصاص . وحدث لى أحيانا أن مسست بالصدفة ، على رمال جرداء ، أنواعا فى قلاع البحار وكان على أن أبكر لها اسما . وفى مرات أخرى ، بلا فائدة : كانت خفة لا تقهر تمسكنى عند السطح . وفى النهاية ، انكسر ميزان قياس الارتفاع عندى ، فأنا تارة يهلوانا وتارة غطاسا ، وكثيرا ما أكون كليهما كما هو لا ثق فى جهتنا : وأسكن الهواء بالمادة وأتدخل فى شئون الدنيا دون أمل كبير .

ولكن كان لا بد له أن يحدثنى عن المؤلفين . لقد فعل جدى ذلك بفتانة وبدون حرارة . لقد علمنى أسماء هؤلاء الرجال العظام ؛ وكنت أتلو قائمتهم وحدى من هزبود^(١) إلى هوجودون أن أخطىء مرة واحدة : وكان هؤلاء الرجال العظام هم القديسين والأنبياء . وكان شارل شفايتزر يقول إنه يخصهم بنوع من العبادة . ولكنهم كانوا يضايقونه : فان وجودهم المزعج كان يمنعه من أن يسند إلى الروح القدس رأسا أعمال الانسان . لذا كان يفضل سرا المجهولين والبنائين الذين تواضعوا وتواروا خلف كاندراياتهم والعدد الذى لا يحصى من مؤلفى الأغاني الشعبية . ولم يكن يكره شكسير الذى لم تكن شخصيته قد ثبتت ، وللسبب نفسه لم يكن يكره هوميروس ولا بعض المؤلفين الآخرين الذين لم يتأكد وجودهم تماما . وكان يلتمس الأعذار لهؤلاء الذين لم يشاءوا أو لم يعرفوا أن ينسحوا آثار حياتهم ، على شرط أن يكونوا قد مانوا . ولكنه كان يدين معاصريه بالجملة باستثناء أناطول فرانس وكورتلين الذى كان يهجه . وكان

(١) شاعر اغريقى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد (المترجم) .

شارل شفايتزر يتمتع خفورا بالاحترام الذى كان الناس يكتونه لسنه الكبير ولثقافته وجماله وفضائله . إن هذا اللوثيرى لم يكن يمنع نفسه من التفكير ، حسب التوراة ، فى أن الله قد بارك بيته . وعلى المائدة ، كان يفرغ لنفسه أحيانا لينظر إلى حياته نظرة فيها بعض التعجرف ويحتتم قائلا : « كم هو جميل ، يا أولادى ، ألا نجد ما نأخذه على أنفسنا . » وإن احتداده وعظمته وكبرياه وجهه للسمو كانت تضطى خجلا عقليا سببه دينه وعصره والجامعة وبيته . ولهذا السبب كان يكن كراهية سرية للغيلان المقدسة التى فى مكتبته ، هؤلاء الأشرار الذين يعتبر كتبهم مجونا فى قرارة نفسه . وكنت مخطئا فى ذلك : فإن التحفظ الذى كان يدو تحت حماس متكلف . كنت آخذ على أنه قسوة قاض ؛ إن كهنوته كان يرفعه فوقهم . وكان رجل الدين يهمس فى أذنى أن العبقريه ليست على أى حال سوى قرص : ولابد من استحقاقه بعدايات كبيرة وتجارب تحتاز بتواضع وثبات ؛ ويشهى بنا الأمر بأن نسمع أصوات وعلى علينا ما نكتبه . وبين الثورة الروسية الأولى والتزعاع العالمى الأول وبعد وفاة مالارميه (١) بخمس عشرة سنة وفى الوقت الذى كان دانييل دى فوتتانان يكتشف « الأغذية الأرضية (١٢) » كان رجل من القرن التاسع عشر يفرض على حفيده الأفكار التى سادت عصر الملك لويس فيليب . وهكذا تفسر العادات الرفيعة ، كما يقولون ؛ فالآباء يذهبون إلى الحقول تاركين أولادهم

(١) شاعر فرنسى توفى سنة ١٨٩٨ زعيم المدرسة الرمزية فى الشعر .

(المترجم)

(المترجم)

(٢) رواية من تأليف اندريه جيد

في أيدي الأجداد . لقد انطلقت متأخراً ثمانين سنة . هل يجب على أن أشكو من ذلك ؟ لا أعرف : إن في مجتمعاتنا التحركة يعطى التأخير أحيانا بعض التقدم . ومهما يكن الأمر لقد ألقوا لي بهذه العظمة لأقرضها وقت بقرضها جيدا بحيث أصبحت أرى الضوء من خلالها . وكان حدى يتمنى سرّاً أن يجعلني أكره الكتاب ، هؤلاء الوسطاء وحصل على النتيجة العكسية : فقد خلطت بين الموهبة والاستحقاق . إن هؤلاء الناس الطيبين كانوا يشبهوني : حين كنت عاقلاً جداً وحين كنت أتحمّل بشجاعة الآلى ، وكنت استعق أغصان القار أو مكافأة ؛ ولكن تلك كانت الطفولة . وكان كارل شفايتزر يريني أطفالاً آخرين ، روقبوا مثلى ، ومروا بحزن وكوفتوا ، وعرفوا كيف يحتفظون طول حياتهم بسنى . ولما كنت بلا أخ ولا أخت وبلا أصحاب ، فقد جعلتهم أصدقائى الأول . لقد أحبوا وتعذبوا عذاباً مريراً ، مثل أبطال رواياتهم وانتهوا على الأخص نهاية طيبة ؛ كنت أتذكر آلامهم بشفقة تشوبها بعض البهجة : كم كان سرور هؤلاء الأتراب حين كانوا يشعرون بشدة تعاستهم : وكانوا يقولون في أنفسهم : « باللعظ ! إن بيتنا جديداً سوف يولد ! » .

إنهم في نظري لم يموتوا ، أو لم يموتوا تماماً لقد تحولوا إلى كتب . إن كورنيلي كان ضخماً ، أحمر الوجه ، خشنا ذا ظهر من جلد تنبعث منه رائحة الصمغ . إن هذا الشخص غير المريح والقاسى ذا الكلام الصعب كانت له زاويا تدمى نخدى حين كنت أقوم بنقله ولكن ما أن أفتحته حتى يقدم لى صورته المظلمة الرقيقة كأنها اعترافات . وكان فلووير صغيراً مبطناً بقماش ، لارائحة له ، ومنقطاً يقع نخالة . وفكتور هو جوجو المتعدد

الأجزاء كان معشاً على كل الأرفف مما . ذلك بالنسبة للأجسام ؛ أما بالنسبة للأرواح ، فقد كانت تتردد على المؤلفات : وكانت الصفحات نوافذ ، ومن الخارج كان وجهها ملتصقا بازجاج ، إن أحدا يراقبني ؛ وكنت أظاهر بأنني لا ألاحظ شيئا واستمر في قراءتي ، وقد تعلقت عيني بالكلمات تحت نظرة المرحوم شاتوبريان الثابتة . إن هذا القلق لم يكن يستمر : وباقي الوقت كنت أعبد رفقاءى فى اللعب . لقد وضعتهم فوق كل شيء ، وقد حكوا لى دون أن أتعجب أن شارل الخامس التقط فرشاة ترينانو (١) : وما الغرابة فى ذلك ! أليس هذا هو عمل الأمير ؛ ومع ذلك فلم أكن أحترمهم : ولماذا أمدحهم لأنهم عظام ؛ كانوا لا يقومون إلا بواجبهم . وكنت ألوم الآخرين لأنهم صغار . وبالاختصار لقد فهمت كل شيء على العكس واتخذت من الاستثناء قاعدة : لقد أصبح النوع الإنسانى لجنة محددة . محاطة بحيوانات ودودة . خاصة وأن جدى كان يعاملهم معاملة سيئة للغاية حتى أخذهم على محمل الجد تماما . لقد كف عن القراءة منذ وفاة فكتور هوجو ؛ وعندما لم يكن لديه عمل آخر كان يعيد القراءة . ولكن مهمته كانت الترجمة . فى حقيقة قلبه كان مؤلف « المطالعة الألمانية » يعتبر الآداب العالمية مادته . وكان يرتب باحتقار المؤلفين حسب استحقاقهم ، ولكن هذا التدرج الظاهرى كان لا يخفى تفضيله جيداً هذا التفضيل النعمى : فهو باسان كان يقدم للتلاميذ الألمان أفضل نصوص الترجمة . إن جوته الذى يتفوق على جوتفريد كيلر بقليل ، لا يبارى بالنسبة للنصوص الألمانية الواجب ترجمتها إلى الفرنسية : ولما كان جدى إنسانيا فانه كان

قليل التقدير للروايات ؛ ولكونه مدرسا فإنه كان يقدرها بشدة من أجل
 المفردات . وانتهى الأمر به إلى أنه أصبح لا يحتمل إلا المقطوعات المنتخبة .
 ورأيته بعد بضع سنوات تلذذ بنبذة من « مدام بوفارى » اقتطعها مIRONO
 لكتاب « مطالعته » بينما كان فلوير كاملا ينتظر منذ عشرين سنة إرادته .
 المستبدة . وكنت أشعر بأنه كان يعيش من الأموات ، الشيء الذى كان
 يعتقد صلاتى بهم : فبحجة أنه يحترمهم إلى حد العبادة ، فإنه كان يكلمهم
 بسلاسله ولم يكن يمنع نفسه من تقطيعهم إلى شرائح لينقلهم من لغة إلى
 أخرى بطريقة أكثر سهولة . واكتشفت فى الوقت نفسه عظمتهم وبؤسهم .
 وكان ميريه لسوء حظه يناسب الفصول المتوسطة ؛ فكان يعيش لذلك
 حياتين : فى الطابق الرابع من المكتبة ، كانت « كولومبا » (١) حمامة غضة
 ذات مائة جناح ، باردة ومعروضة ولكنها مجهولة بالنظام ، ولم تنتهكها
 أية نظرة قط . ولكن على الرف السفلى كانت هذه العذراء نفسها محبوسة .
 فى كتاب صغير قدّر بنى اللون ، كرية الرائحة ؛ ولم تغير لا القصة ولا اللغة
 ولكن كانت فيها شروح بالألمانية وقاموس ؛ فضلا عن ذلك فقد علمت
 أنه نشر فى برلين ، وهى فضيحة لاتعد لها فضيحة منذ اغتصاب الأتراس
 والورين . وكان جدى يضع هذا الكتاب مرتين فى الأسبوع فى حنية
 كتبه ، لقد غطاه بالبقع وبالخطوط الحمراء وبالحروق وكنت أكرهه ؛
 إنه ميريه مهان . وكنت أموت من الملل بمجرد فتحه : إن كل مقطع كان
 ينفصل تحت نظرى كما كان يحدث بالمعهد فى فم جدى . ما هى هذه الإشارات
 المعروفة التى تعرف بجهد ، المطبوعة فى ألمانيا ليقراها ألمان سوى تقليد

لكلمات فرنسية ؟ إنها قضية جاسوسية أخرى : كان يكفي أن نكحت
لنكتشف خلف تنكرها العالي (١) ألفاظا جرمانية كامنة . وانهى بي الأمر
إلى سؤال نفسى عما إذا لم يكن هناك « كولومبتان » ، الواحدة متوحشة
وحقيقية والأخرى منحولة وتعليمية كما يوجد ايزولتان (٢) .

إن شقاوة أصحابي الصغار اقنعتى بأنى ندم . ولم تسكن لى مواهبهم
ولا أفضالهم ، ولم أكن قد شرعت بمد فى الكتابة ، ولكنى لما
كنت حفيد قسيس فقد كنت متفوقا عليهم بولدى ؛ لاشك أنى كنت
مكرسا لا لاستشهادهم الذى كان فاضحا بمعض الشئ فى كل الأحوال ولكن
لبعض الكهانة ؛ سأكون ديدبان الثقافة كشارل شفايتزر . كما كنت أنا
حيا ، وشديد النشاط : ولم أكن أعرف بعد تقطيع الأموات ، ولكنى
كنت أفرض عليهم نزواتى : كنت آخذهم على ذراعى وأحملهم وأضعهم
على الأرضية الخشب وأفتحهم وأقفلهم ، كنت أسحبهم من العدم لأعيد
غمسهم فيه : لقد كانوا دميائى ، هؤلاء الناس الناقصون ، وكنت مشفقا
على هذا الخلود البائس الشالول الذى يسمونه خلودهم . كان جدى يشجع
هذه الدالة : إن كل الأطفال ملهمون ولا يستطيعون أن يحسدوا الشعراء على
شئ ، إنهم بكل بساطة أطفال . وكنت مولما بكورتلين (٣) ، وألاحق
الطاهية فى مطبخها أقول لها بصوت عال : « تيودور هات كبرتيا » . وقد

(١) نسبة إلى بلاد الغال ، فرنسا القديمة . (الترجم)

(٢) فى قصة « تريستان وايزولت » من قصص العصور الوسطى الفرنسية ،
توجد ايزولت التى يحبها تريستان ، وايزولت ذات البدن البضاوين خطيبة
تريستان . وهى تحبه وهو لا يحبها (الترجم) .

(٣) مؤلف تمثيلات مضحكة . توفى سنة ١٩٢٩ (الترجم) .

سهرم ولعى هذا وغته عنايتهم الزائدة به وجعلوا منه هوى معلنا ..
 وذات يوم قال لى جدى بعدم اكتراث : « لابد أن يكون كورتلين رجلا
 طيبا . لماذا لا تكتب له إذن ، مادمت تحبه بهذا القدار ؟ » وكتبت ..
 ووجه شارل شفايتزر قلنى وقرر أن يترك عدة أخطاء إملائية فى خطابى ..
 لقد أعادت بعض الصحف نشر هذا الخطاب منذ بضع سنوات وقرأته ثانية ..
 متضايقا . لقد أنهيت الخطاب بهذه الكلمات « صديقك مستقبلا » وكانت
 تبدو طيبة جداً : وكانت لى دالة على فولتير وكورنى ؛ فكيف يرفض كاتب
 على « قيد الحياة » صداقتى ؟ لقد رفض كورتلين هذه الصداقة وحسنا ؛
 فعل : لو أنه أجاب الحفيد لوقع على الجد . وفى ذلك الوقت حكمتنا على
 سكوته حكما قاسيا . قال شارل : « إنى أفهم أن يكون لديه عمل كثير ،
 ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فلا بد من الرد على طفل » .

واليوم أيضا ، ما زالت عندى تقيصة الدالة هذه . إنى أعاملهم وكأنهم
 زملائى فى المدرسة ، هؤلاء الرماحلين المشهورين ، وأعبر عن ذاتى بلا
 مواربة عند الكلام عن بودليروفلوير ، وحين ألام على ذلك ، أود دائما
 أن أجيب : « لا تتدخلوا فى شؤوننا . إنى عبقرىكم كانا ملكى ، لقد
 أمسكتهما فى يدى وأحببتهما عن هوى وبكل وقاحة . فهل أعاملهما
 بعدارة ؟ » ولكن إنسانية كارل ، إنسانية رجل الدين هذه ، لقد تخلصت
 منها منذ اليوم الذى فهمت فيه أن كل إنسان هو كل الإنسان . كم هى
 حزينة حالات الشفاء : إن اللغة تخلص من الأوهام ؛ وأبطال القلم ، أترابى
 القدماء ، قد دخلوا الصف مجردين من امتيازاتهم : إنى ألبس الحداد
 عليهم مرتين .

إن ما كتبتة توا لخطأ . إنه صح ، لا صحا ولا خطأ ككل ما يكتب
عن المجانين ، عن الناس . لقد أتيت بالوقائع بالدقة التي أتيت لئلا أكرى .
ولكن إلى أى حد أصدق هذيانى ؟ إنها المسألة الرئيسية ومع ذلك ، فإنى
لا أقرر شيئا فيها . ورأيت بعد ذلك أنه فى الاستطاعة معرفة كل شئ
عن عواطفنا عدا قوتها ، أى صدقها . إن الأعمال نفسها لن تستخدم
معيارا إلا إن ثبت أنها ليست حركات ، وهو أمر ليس سهلا دائما . أنظروا
بالأحرى : وحدى بين البالغين ، كنت بالغامصغرا ، وكانت قراءاتى
قراءات بالغين ؛ إن ذلك ليؤذى السمع ، لأننى فى نفس اللحظة ظلمت
طفلا . لا أدعى أننى كنت مذنبا : لقد كان الأمر كذلك ، وهذا هو كل
شئ ، ولا يمنع أن اكتشافاتى وصيدى كانت جزءا من الملهاة العائلية ،
كانوا يفرحون لذلك ، وكنت أعلم : نعم كنت أعلم ، فى كل يوم كانت
طفل عجيب يوقظ كتب السحر التى لم يعد جده يقرأها . كنت أعيش فوق
سنى كما يعيش المرء فوق طاقته المالية : بهمة وبتعب وبشمن غال للمظهر .
وما أن أدفع باب المكتبة حتى أجد نفسى فى بطن عجوز لا يتحرك : المكتب
الكبير ، القرطاس الذى يوضع تحت اليدى ، بقع الحبر ، الجراء
والسوداء على النشافة وردية اللون ، السطرة ، إناء الصمغ ، الرائحة التنة
للطباقي وفى الشتاء ، الوميض الأحمر للسندر وقمعة الميكا ، إنه كارل
بنفسه قائم : ولم تكن الحاجة تستدعى لأكثر من ذلك لأضع نفسى فى
حالة النعمة ، وكنت أجرى إلى الكتب . هل كنت أفعل ذلك بخلاوص
نية ؟ ما معنى ذلك ؟ كيف أستطيع أن أعين — خاصة بعد هذا العيد
من السنين — الحد المتحرك الذى لا يمكن إدراكه والذى يفصل التملك

عن التهريج ؟ كنت استلقي على بطني ، في مواجهة النافذة وكتاب مفتوح أمامي وكوب ماء محمر إلى يميني ، وإلى يساري قطعة خبز الربيبى موضوعة في طبق . حتى في العزلة كنت في عرض مسرحي : لقد أدارت آن ماري وكارليمي هذه الصفحات قبل أن أولد بوقت طويل ، إن علمهم هو الذي ينبسط أمامي ؛ وفي المساء ، كانوا يسألونني : « ما الذي قرأته ؟ وما الذي فهمته ؟ » ، كنت أعرف ذلك ، كنت في حالة وضع ، وسوف أذكر كلمة ؛ إن الحرب من الأشخاص الكبار إلى القراءة لأفضل وسيلة للاتحاد معهم ؛ وفي غيابهم كانت نظرتهم المستقبلية تدخل في من الحلف وتخرج من الحديقين وتحدد في مستوى الأرض هذه الجمل التي قرئت مائة مرة والتي كنت أقرأها لأول مرة . وكما كنت مرثيا فقد كنت أرى نفسي : كنت أرى نفسي وأنا أقرأ كما يصغى المرء لنفسه وهو يتكلم . هل تغيرت كثيرا منذ الوقت الذي كنت أظاهر فيه أنني أفك ، الخط الصيني في الصين ، قبل أن أعرف الحروف الأبجدية ؟ كلا : إن اللعبة مستمرة : وكان الباب يفتح خلفي ، ويأتون ليروا ، ماذا كنت أصنع ، كنت أغش ، كنت أنهض بسرعة وأعيد الشاعر موسيه إلى مكانه وأذهب في الحال وقد وقفت على أطراف أصابعي ، رافعا ذراعي لأخذ كتاب كورني الضخم ، وكانوا يقيسون هواي بالنسبة لمجهوداتي ، وكنت أسمع خلفي صوتا مفتوتا يهمس : « لأنه يحب كورني ! » لم أكن أحبه : فالآيات ذات الأثنى عشر مقطعا كانت تثبط همتي . ولحسن الحظ لم يكن الناشر قد طبع في نصها الكامل إلا أشهر مآسيه ؛ ولم يكن يعطى إلا عنوان المآسي الأخرى وملخصها التحليلي : وهذا ما كان يهمني : « إن رودلاند ، زوجة برتاريت ، ملاك اللومبارديين

الذى اتصر عليه جريموالد ، يستعجلها أونولف لتقبل الأمير الأجنبي زوجا لها ، لقد عرفت رودوجون وتيدودور واجيسلاس قبل السيد ، وقبل «سينا» (١) كنت أملاً فى بأسماء رنانة وأملاً قلبى بعشاعر نبيلة وأهتم بالأأتوه فى روابط القرابة . وكانوا يقولون أيضا : « إن هذا الصغير ظمأ إلى العلم ؛ فهو يلتهم قاموس لاروس ! » ، وكنت أتركهم يقولون . ولكنى قلما كنت أتعلم : لقد اكتشفت أن القاموس يحوى ملخصات للتشيليات والروايات وكنت أتلذذ بها .

كنت أحب أن أكون موضع رضى وأريد أن آخذ حمامات ثقافة : وأملاً نفسى كل يوم بما هو مقدس . ويتم ذلك عن سهو أحيانا : إذ يكفى أن أسجد وأدير الصفحات ؛ وكثيرا ما استخدمت مؤلفات أصدقائى الصغار طواحين للصلاة . وكان يتناوب فى آن واحد خوف وسرور حقيقيان . وكان يحدث لى أن أنسى دورى وأن أسير بلا احتراس وقد جرفنى صوت مجنون ما هو إلا العالم . ولتستخلصوا النتيجة ! وعلى أى حال فإن نظرتى كانت تعالج الكلمات : ولا بد من تجربتها وتقرير معناها ؛ إن كومينديا الثقافة تفتنى على مر الأيام .

وكنت مع ذلك أقرأ أقراءات حقيقية : خارج المبد فى غرفتنا أو تحت مائدة حجرة الطعام ؛ وكنت لا أتحدث عن هذه القراءات مع أحد ، ولا أحد كان يحدثنى عنها سوى أسمى . وحملت آن مارى فورانى المزورة

(١) كل هؤلاء أبطال فى مآسى كورنى المؤلف المسرحى الفرنسى الذى عاش فى القرن السابع عشر (الترجمة) .

على محمل الجد . وكشفت لجدتي عن قلقها : وكانت جدتي حليفة يوثق فيها
وقالت : « إن شارل ليس معقولا . إنه هو الذى يدفع الصغير ، لقد رأيته
يفعل . ما الذى نجّيه حين يهزل هذا الطفل ؟ ، وذكرت المرأتان كذلك
الارهاق والحمى الحمية الشوكية . إن من الخطورة والعبث مهاجمة جدى
من الأمام ، لابد إذن من مواربته . وخلال إحدى نزھاتنا ، وقفت آن
مارى كما لو كان بالصدفة أمام الكشك الذى لا يزال على ناصية شارع سان
ميشيل وشارع سوفلو : لقد رأيت صورا عجيبة ، وسحرتنى ألوانها الزاهية
فطلبته وحصلت عليها ؛ وتمت اللعبة : وقد أردت الحصول كل أسبوع على
مجلات « كرى كرى » ، و « المدهش » ، و « العطة » ، و « أبناء الكشافة
الثلاثة » ، لجان دى لاهير و « حول العالم بالطائرة » ، لأرنو جالوبان وكانت
تظهر فى ملازم كل يوم خميس . ومن خميس إلى خميس كنت أفكر فى
« نسر جبال الأنديز » ، وفى مارسيل دونو الملاك ذى القبضتين الحديديتين
وفى كريستيان الطيار أكثر بكثير مما كنت أفكر بصديقى رابليه و فيني .
وأخذت أرى تبحث عن كتب تعيدنى إلى طفولتى : وكانت هناك أولا
« الكتب الوردية » ، الصغيرة ، وهى كتب شهرية تحوى قصص الجنيات ثم
شيئا فشيئا ، « أبناء القبطان جرانت » ، و « آخر قبيلة الموهيكان » ، و
« نيقولا نيكلي » ، و « صولديات لافاريد الخمسة » . وفضلت هوس بول
ديفوا على آزان جول فرن الزائد . ولكن أيا كان المؤلف ، فكنت
أعبد كتب مجموعة هزل ، وهى عبارة عن تمثيلات صغيرة وأغلفتها الحمراء
ذات الشراريب الذهبية تصور الستار : وغبار الشمس على حافة الكتب
كان يصور أضواء المسرح الأمامية . إنى أدرك لهذه الصناديق السحرية

— لا لجل شاتوبريان التوازنة — مقابلتي الأولى مع الجمال . حين كنت أفتحها أنسى كل شيء : أكانت هذه قراءات ؟ كلا ، ولكنها كانت تفانيا من شدة الإعجاب : ومن إلقاء وجودي كان لا يلبث أن يولد وطنيون مسلحون بالحرايب والحشائش الاستوائية ومستكشف على رأسه خوذة يضاء . لقد كنت رؤيا وكنت أغمر بالضوء خدى « عودة » الجميلين الأسمرين وسالفي فيلياس فوج (١) . إن الأعجوبة الصغيرة ، وقد تخلصت من نفسها أخيرا ، كانت تترك نفسها لتصبح إعجابا خالصا . وعلى ارتفاع خمسين سنتيمترا من الأرضية الحشوية كانت تولد سعادة كاملة بلا سيد ولا طوق . وكان العالم الجديد يبدو أولا أشد إقلاقا من القديم : فالنهب والقتل قائمان فيه ؛ والدم يجري أنهاراً إن هنوداً وهندوساً وموهيكان وهوتنتوتونخطفون الفتاة ويقيمون أباهما المجوز ويتواعدون على إزهاق روحه بتعذيبه تغذيا يشيب لموله الولدان . وكان الشر خالصا . ولكنه لم يكن يظهر إلا ليخضع أمام الخير : وفي الفصل التالي يعود كل شيء إلى حاله . إن أيضاً شجعانا يذبحون مئات المتوحشين ويقطعون قيود الأب الذي يلقي بنفسه بين ذراعي ابنته . إن الأشرار هم وحدهم الذين يموتون — وكذلك بعض الأخيار الثانويين الذين يأتي موتهم بين الأحداث غير المتوقعة من القصة . فضلا عن ذلك كان الموت مطهراً : فقد كانوا يسقطون مبسوطي الذراعين وبثقب صغير مستدير تحت الثدي الأيسر أو — إذا كانت البندقية لم تحترع بعد — كان المذنبون « يموتون بحمد السيف » . وكنت أحب هذا التركيب

(١) بطل رواية « حول الأرض في ثمانين يوما » للكاتب الفرنسي جول فرن (الترجم) .

الجميل : وأتخيل هذا البرق المستقيم الأبيض ، هذا النصل وهو ينغرز كما لو كان في زبد ويخرج ثانية من ظهر الخارج على القانون الذى يسقط دون أن يفقد نقطة دم واحدة — وكانت النية تذهب أحيانا إلى حد الاضحاك : مثل هذا المغربى الذى فى قصة « ربيبة رولان » ، على ما أذكر ، هجم بجواده على جواد أحد الصليبيين ؛ فضربه الفارس الفرنسى على رأسه بالسيف ضربة قوية شطرته من أعلى إلى أسفل ؛ إن صورة لجوستاف دوريه تصف هذه الحادثة . وكما كان المنظر مضحكا ! إن نصفى الجسم المشطورين كانا آخذين فى السقوط ويرسم كل منهما نصف دائرة حول الركاب ؛ وقد شب الجواد مندهشا ١١ . وظللت عدة سنوات لا أنظر إلى هذه الصورة إلا وأضحك ملء شدى . وكنت أمسك أخيرا بما أنا فى حاجة إليه : العدو ، المكروه ، ولكنه غير مؤذ آخر الأمر ، بما أن مشروعاته لم تكن تصل إلى غرضها وحتى على الرغم من جهوده ودهائه الشيطاني ، كانت تخدم قضية الخير ؛ وكنت ألاحظ بالفعل أن العودة إلى النظام كانت مصحوبة دائما بتقدم : وكان الأبطال يكافأون ، أو يتلقون التكرم وعلامات الإعجاب والمال ؛ وبفضل جسارتهم كان غزو إقليم ونزع تحفة فنية من أبناء البلاد الأصليين ونقلها إلى متاحفنا . وكانت الفتاة تقع فى حب المستكشف الذى أنقذ حياتها ، وكل شيء كان ينتهى بزواج . لقد استخلصت من هذه المجلات ومن هذه الكتب خيالى المستقر فى أعماق :
التفاؤل .

(١) كان الفرنسيون وغيرهم من الغربيين يقصون على أولادهم قصصا تفرس فى نفوسهم كراهية الشعوب الشرقية ويلاحظ أن سارتر يسخر من طرف خفى من هذه القصص (المترجم) .

وظلت هذه القراءات سرية زمنا طويلا ؛ ولم تكن آن ماري في حاجة إلى تنبيهي : ولما كنت مدركا شناعة فعلتهم ، فإنني لم أقل أى كلمة عنها لجدي . كنت أتذلل ، وأمنح تقى بعض الحريات ، وأمضى عطائت في بيوت السعادة ولكن لم أكن أنسى أن حقيقى ظلت في الهيكل .. ما جدوى الاساءة إلى الكاهن بقعة ضاللى ؟ وانهى الأمر بكارل أن فاجأني ؛ وغضب من الرأتين اللتين انتهزتا لحظة توقفه ليسترخ لتلقيا على كل الوزر : لقد رأيت المجلات وقصص الغامرات واشتهيتها وطلبتها ، فهل كان في إمكانهما أن ترفضاه ؟ إن هذه الأ كذوبة البارعة أخرجت جدى : لقد كنت أنا ، أنا وحدى الذى يندفع كولومبا مع تلك العاهرات اللواتى بالن فى طلاء وجوههن بالمساحيق . أنا الطفل النبوى وكشفة الغيب الشابة ، والياسين ^(١) الأدب وكنت أظهر ميلا مجنوننا إلى العار . وعليه أن يختار : أو أن أكف عن التنبؤ أو أن يحترموا أذواقى دون أن يحاولوا فهمها . لو كان شارل شفايتزر أباً لحرق كل شئ ؛ ولكنه كان جدا فاختار التسامح الحزين . ولم أكن أطلب أكثر من ذلك وأكملت حياتى الزوجية بسلام . ولم تكف أبداً : وحتى اليوم أفضل قراءة كتب « السلسلة السوداء » ^(٢) على كتب وتجنشتين ^(٣) .

(١) أحد أشخاص مأساة أتانى لراسين . إن ألياسين هو الاسم الذى أعطى لجواس الأمير الذى رباه سرا « جواد » كبير الكهنة ليحميه من غضب أتانى (المترجم)
(٢) روايات بولسية (المترجم) .

(٣) فياسوف نساوى ولد في فيينا سنة ١٨٨٩ وتوفى في كبردج سنة ١٩٥١ . قام بالتدريس بجامعة كبردج وكتب بحثا في النطق الفلنى وغيره من البحوث ..

كنت الأول ، العديم الثالث في جزيرتي الهوائية ؛ وسقطت في الصف الأخير عندما طبقوا على القواعد العامة .

وقرر جدى أن يلحقني بليسيه مونتني . وصحبنى ، ذات صباح ، إلى المدير وأشاد له بفضائله : ولم يكن عيبي سوى أنى . تقدم جدا بالنسبة لسنى . وسلم المدير بكل شيء : وأدخلونى في الصف الثامن واستطعت أن اعتقد أننى سأعاشر الأولاد الذين فى سنى . ولكن لا : فبعد تمرين الاملاء الأول ، أسرعت الادارة فى استدعاء جدى ؛ وقد عاد غاضبا كل الغضب : وأخرج من حقيبة كتبه ورقة رديئة مكتوبة بخط غير مقروء وقد امتلأت بالبقع وقذف بها إلى المائدة : كانت الورقة التى قدمتها . وكانوا قد لفتوا نظره إلى الأخطاء الاملائية — « الأربن البررى يحب الذعتر » (١) ، — وحاولوا أن يفهموه أن مكاني فى الفصل العاشر التحضيرى . وأمام « الأربن البررى » أغرقت أمى فى الضحك ؛ وأوقفها جدى بنظرة رهيبية . وبدأ يتهمنى بسوء النية وبتيكى لأول مرة فى حياتى ، ثم أعلن أنهم أنكروا صفاتى ؛ ومنذ الغد أخرجنى من الليسيه وغضب من المدير .

لم أفهم شيئا من هذا الموضوع وفشلت لم يؤثر فى : كنت طفلا من نوادر الزمن لا يعرف الإملاء . هذا كل ما فى الأمر . ثم وجدت عزلتى ثانية بلا ضجر : كنت أحب عيبي . لقد فقدت ، دون أن أنتبه إلى ذلك ، فرصة أن أصبح حقيقة : وقد كلف السيد ليفان ، وهو معلم باريسى ، أن يعطينى دروسا خاصة ؛ وكان يأتى كل يوم تقريبا . وكان جدى قد

(١) الأربن البررى يحب الذعتر .

اشترى لى مكتبا صغيرا لاستعمالى الشخصى ، عبارة عن مقعد وقطر من الحشب الأبيض . وكنت أجلس على المقعد وكان السيد ليفان يروح ويغدو وهو يلى . وكان يشبه فانسان أوربول^(١) وكان جدى يدعى أنه ماسونيا ويقول لنا باشمئزاز الرجل الشريف الخائف المعرض لمحاولات شخص شاذ جنسيا « إنه يرسم بابهامه الثلث الماسونى على راحة يدى » . وكنت أكرهه لأنه كان ينسى أن يدللى : وأعتقد أنه كان يعتبرنى ، لا بدون سبب . طفلا متأخرا . لقد اختفى ولا أعرف السبب : ربما يكون قد كشف لأحد عن رأيه فى .

وقضينا بعض الوقت فى أركشون وأدخلت مدرستها العامة : لقد كانت مبادئ جدى الديمقراطية تقتضى ذلك . ولكنه كان يريد أيضا أن يمدونى عن العامة . وأوصى العلم بى بالعبارات التالية : « يا زميلى العزيز إنى أعهد إليك بأعلى ما عندى » . وكان السيد بارو يربى لحية صغيرة ويضع على عينيه نظارة من التى تثبت فى الأنف : وجاء يشرب نبيذ موسكات فى فلتنا وأعلن عن اعتباطه بالثقة التى أولاه إياها أحد أعضاء التعليم الثانوى . وكان يجلسنى إلى قطر خاص إلى جانب كرسى العلم وأثناء الفسح كان يقينى إلى جانبه . إن هذه المعاملة الخاصة كانت تبدو لى عاذلة ؛ أما ما كان رأى « أولاد الشعب » زملائى فى ذلك ، فإنى أجهله : أعتقد أنهم كانوا لا يالون به . وكان طيشهم يعينى وكنت أرى من النجاسة أن أتضايق إلى جانب السيد بارو بينما كانوا يلعبون لعبة السباق .

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٤ . (المترجم)

كنت أحترم معلى لسبيين : فهو يريد لى الخير ورائحة فمه كريهة . إن الأشخاص الكبار يجب أن يكونوا دميمين ومتغضنين ومتعبين ، وحين كانوا يأخذوننى بين ذراعيهم ، لم يكن يضايقنى أن أقهر تقززا خفيفا : مما ثبت أن الفضيلة ليست سهلة . وتوجد مباهج بسيطة ، وعامية : الجرى ، القفز ، أكل الحلاوى ، تقيل بشرة أى الناعمة العطرة ، ولكنى كنت أقدر أكثر الباهج الدراسة والتشابكة التى كنت أشعر بها فى مصاحبتى للرجال الناضجين : إن النفور الذى كانوا يوحون به إلى أصبح جزءا من سحرهم : وكنت أخط التقزز بروح الجد . وكنت مولما بالبدع . وحين كان السيد بارو ينحنى على ، كان نفسه يفرض على ضيقا لذيذا ، وكنت استنشق بحماس الرائحة الجاحدة لفوائله . واكتشفت ذات يوم كتابة جديدة جداً على حائط المدرسة ، فاقتربت منها وقرأت : « إن الأب بارو مغفل » . ودق قلبى حتى كاد ينفطر وسمرتنى الدهشة فى مكانى ، وكنت خائفا . « مغفل » ، إنها لا يمكن أن تكون إلا إحدى هذه « الكلمات البدئية » التى تكثر فى أحط ألفاظ اللغة والتى لا يصادفها قط طفل مهذب . ولما كانت قصيرة وفظة فقد كانت لها شناعة الحيوانات البدائية . . وكان كثيراً على أن أقرأها : لقد منعت نفسى من النطق بها حتى بصوت منخفض . إن هذا الصرصر المعلق إلى الجدار ، كنت لا أريد أن يقفز فى فمى ليتحول داخل حلقى إلى بوق أسود . ولو تظاهرت بعدم ملاحظتى له لربما دخل فى ثقب بالحائط . ولكن كلما أشعت بصرى وقعت على التسمية الشائنة : « الأب بارو » وكان ما يعنى أكثر هو كلمة « مغفل » ، وعلى كل ، فأنا لم أكن أفضل أكثر من تخمين معناها ؛ ولكنى كنت أعرف جيداً

من كان يسمى ، بالأب فلان ، في عائلي : إنهم البستانيون وسعاة البريد وأبو الخادمة وبالاختصار كبار السن من الفقراء . هل كان أحد يرى السيد بارو ، المعلم ، زميل جدي على هيئة عجوز فقير ؟ في مكان ما ، في رأسى ، كانت تجول هذه الفكرة المريضة المجرمة . في أى رأس ؟ ربما في رأسى . ألا يكفي أن يقرأ المرء الكتابة التجديفية ليكون شريكا في الدنس ؟ لقد بدا لي في وقت ما أن مجنوننا قاسيا كان يسخر من أدبى ومن احتراى ومن حماستى ، من السرور الذى كان يدخل نفسى كل صباح وأنا أرفع قبعتى وأقول : صباح الخير يا أستاذ ، وأنى كنت هذا المجنون وأن الكلمات والأفكار البذيئة تملأ قلبى . ما الذى يعنى مثلاً أن أصرخ بملء صوتى : « إن هذا القرد العجوز تفوح رائحته كالحزيرة » . وتمت : « الأب بارو تفوح رائحته ، وأخذ كل شيء يدور من حولى : وهربت باكياً . ومنذ اليوم التالى وجدت احتراى للسيد بارو من جديد ، لياقته السيولويد ولعقدة رباط عنقه التى على شكل فراشة . ولكن حين كان ينحن على كراستى ، كنت أدير رأسى وأحبس نفسى .

وفي الحريف التالى ، قرأت أى أمى على إدخالى مؤسسة بوبون . وكان على أن أصعد سلماً خشبياً وأن أدخل قاعة بالطابق الأول ؛ وكان الأطفال يتجمعون في نصف دائرة صامتين : والأمهات تراقبن المعلم وقد جلسن مستقيمات في آخر القاعة وظهورهن إلى الخائط . وكان أول واجبات الفتيات السكنيات اللواتى كن بملتنا هو أن يوزعن بالمدل والقسطاس كلمات المديح والدرجات التشجيعية لمجمعنا الذى يتألف من عجائب الزمان . وإذا صدر من إحداهن حركة ثم عن الملل وأظهرت أنها راضية كل الرضى عن إجابة صحيحة ، فقدت آنسات بوبون بعض التلاميذ وتفقد

صاحبتنا بالتالى مكانها . كنا ثلاثين أكاديميا تماما ولم يكن لدينا أى وقت
كى نخطب بعضنا بعضاً . وعند الخروج كانت كل أم تستولى على ولدها
بغف وتولى به دون سلام . وفي نهاية نصف العام أخرجتنى أمى من المدرسة :
إن العمل فيها كان قليلا ثم إن الأمر قد انتهى بها إلى السأم لشغورها بأن
جاراتها كن يلتهمنها بنظراتهن عندما يحل دورى لتلقى عبارات التهئة .
وقبلت الآنسة مارى لويز — وهى فتاة شقراء ، تضع نظارة على عينيها
وتعلم ثمانى ساعات فى اليوم فى مدرسة بوبون بأجر لا يكاد يقيم أودها ،
قبلت أن تعطينى دروسا خاصة فى النزل دون علم المديرات . وكانت تقطع
أحيانا تمرينات الاملاء لتخفف عن قلبها بتنهدات عميقة : وتقول لى أنها تمبة حتى
الموت وأنها تعيش فى وحدة قاتلة وأنها تعطى كل شىء فى سبيل الحصول
على زوج ، أى زوج . وانتهى بها الأمر هى الأخرى إلى الاختفاء : فقد
ادعوا أنها لم تعلمنى شيئا ، ولكن أعتقد على الخصوص أن جدى كان يجدها
شؤما . إن هذا الرجل العادل لم يكن يرفض التخفيف عن البؤساء ولكنه
كان يكره دعوتهم تحت سقف بيته . لقد حان الوقت : إن الآنسة مارى
لويز كانت تثبط غزيمتى . وكنت أعتقد أن الأجور تتناسب مع الاستحقاق
وكانوا يقولون لى إنها مستحقة : فلم يدفعون لها هذا الأجر المزرى ؟
وعندما يمارس المرء مهنة ، فإنه يكون جديراً وغوراً بها وسعيداً بالعمل :
وبما أن الحظ أسعدها بالعمل ثمانى ساعات فى اليوم ، فلم تتحدث عن حياتها
كأنها مرض مستعص ؟ وحين كنت أثقل شكواها كان جدى يأخذ فى
الضحك : إنها دميمة إلى الحد الذى لا يمكن لرجل أن يقبلها . وكنت
لا أضحك : فقد يولد المرء محكوما عليه ؟ وفى هذه الحالة يكونون قد كذبوا

على : إن نظام العالم يخفى فوضى لا تحتمل . وزال قلقي بمجرد إزاحتها .
 فقد وجد لي شارل شفايتزر معلمين أليق . لقد كانوا أليق إلى حد جعلني
 أنسابهم جميعا . وظللت وحيدا بين رجل عبوز وامرأتين حتى العاشرة
 من عمرى .

إن حقيقتي وخلقى واسمى كانت في أيدي الكبار ؛ فقد تعلمت أن
 أرى نفسى بميونهم ؛ كنت طفلا ، هذا المسخ الذى يصنعونه بتأسفاتهم ، فإذا
 غابوا تركوا خلفهم نظرتهم المزوجة بالضوء ؛ كنت أجرى وأنفز خلال
 هذه النظرة التى كانت تحفظ لى طبيعة الحفيد النموذجى والتى كانت
 تستمر فى إهدائي لعبى والكون . فى مقمى الجميل ، فى روحى ، كانت
 أفكارى تدور ، كان كل واحد يستطيع أن يتابع حيلها : فلا يوجد فيها
 ركن مظلم واحد . ومع ذلك ، فلا كلمات ولا شكل ولا ثبات ، كان يمين
 شفاف ممزوج فى هذه الشفافية البريئة ، يفسد كل شيء : كنت دجلا .
 فكيف أرائى دون أن أعلم ؟ إن الظواهر الواضحة المشمسة المكونة
 لشخصيتى كانت تعلن عن نفسها بنفسها : بذلك العيب الذى يجعلنى لا أستطيع
 أن أفهم تماما ولا أن أكف عن الشعور . كنت التفت إلى الأشخاص
 الكبار وكنت أطلب منهم أن يكفلوا فنائلى : كان ذلك إمعانا منى فى
 الدجل . ولما كان محكوما على بأن أرضى الناس ، فقد كنت أعطى نفسى
 ملاحظة كانت تدبلى فى الحال ؛ كنت أجر سذاجتى الزائفة فى كل مكان
 وأهميتى الفارغة مترقبا فرصة جديدة : كنت أعتقد أننى أمسكتها وألقى
 بنفسى فى وضع فأجد فيه الميوعة التى كنت أريد الهرب منها . كان جدى
 يغفو وقد التفت بحرامه ، وكنت ألح تحت شاربته الأشعث عرية شفتيه

الوردتين ، كان ذلك غير محتمل : ولحسن الحظ كانت نظاراته تنزلق . وكنت أسرع لالتقاطها . وكان يستيقظ ويرفعني بذراعيه ويقوم بمشيل دور الحب الكبير : ولم يعد ذلك ما كنت أريد . وما الذى كنت أريده ؟ كنت أنسى كل شيء ، كنت أبني غنى فى أعشاب لحيتة الكثة . كنت أدخل المطبخ وأعلن أنى أريد هز السلطة ، وكانت صيحات وضخكات عالية : « لا يا حبيبي ، ليس كذلك ! أمسك بيدك الصغيرة بشدة : هكذا ! ساعديه يا مارى ! إنه رائع ، . كنت طفلاً مزوراً ، وكنت أمسك بسلة سلطة مزورة ، وكنت أشعر بأن أعمالى تتحول إلى حركات . وكانت المهزلة تخفى عني العالم والناس : كنت لا أرى إلا أدواراً ومعدات ، ولما كنت أخضع عن هزل مشروعات الكبار فكيف آخذ همومهم على محمل الجد ؟ كنت أقبل مقاصدهم بتحمس عفيف كان يمنعني من مشاطرتهم نتائجها . ولما كنت غريباً عن حاجات النوع وآماله وأفراحه رأيتني أبعد نقسى يرود لأغريبه ؟ وكان النوع جمهورى إن خطاً من النار يفصلني عنه ويلقى نى إلى منفى متكبر كان لا يلبث أن يتحول إلى قلق .

والأدهى أننى كنت أتهم الكبار بأنهم يمثلون . إن الكلمات التى يوجهونها لى كانت هى الحلوى ؟ ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة غتلفة تمام الاختلاف . ثم كان يحدث أن يحطموا عقوداً مقدسة : وكنت أمط شفتى أجمل ما يمكن ، بالطريقة التى كنت واثقاً منها أشد ما يمكن وكانوا يقولون لى بصوت حقيقى : « إلب بعيداً ، باصغير ، إنا نتكلم .. » وأحياناً أخرى كنت أشعر بأنهم يستخدمونى . وكانت أمى تصحبني إلى حديقة الأوكسمبورج ، وكان خالى اميل ذو العلاقات السيئة بالعائلة يظهر

خجاة ، وينظر إلى أخته نظرة حزينة ويقول لها بحفاة : « إني لست هنا من أجلك : بل كي أرى الصغير . » وكان يقول حينئذ أنني البريء الوحيد في العائلة ، الوحيد الذي لم يهنه قط عن قصد ولم يدنه بناء على وشايات فاسدة . وكنت ابقسم متضايقا من قدرتي ومن الحب الذي أشعلته في قلب هذا الرجل الكئيب . ولكن لا يلبث الأخ والأخت أن يتناقشا في شؤونهما ويمعدا شكواهما المتبادلة ؛ وكان اميل يتحدث على شارل ، وكانت آن ماري تدافع عنه مع بعض التسليم ، وكانا ينتقلان في حديثهما إلى لويز ، وكنت أمكث بين كرسيهما منسيا . ومستعدا لأن أقبل — لو كنت ققط في السن الذي يسمح لي بفهمها — كل مبادئ العيين التي يعلمها لي يسلكه رجل عجوز من اليسار وهي : أن الحقيقة والحرافة شيء واحد وأنه يجب أن نمثل الهوى للشعر به وأن الإنسان كأئن مظهرى . لقد أقنعوني بأننا خلقنا لكي نمثل على أنفسنا، إنني أقبل التمثيل ولكن أطالب بأن أكون الشخصية الرئيسية : ولكن في لحظات سريعة كانت تتركني محطما كنت ألاحظ أنني أمثل « دورا جيلا زائفا » ، بنص ، وتعبير كثير ، ولكن بدون مسرح «لى» ؛ وبالاختصار كان دورى في الحوار حفيرا بالنسبة للأشخاص الكبار . وكان شارل يطربنى ليهدى موته ؛ وفي ثزقى كانت لويز تجد تبريرا لاطهار استيائها ، وكانت آن ماري تجد تبريرا لخضوعها . ومع ذلك ، فلولاى لقام أهل أمى بايوائها ولأسلتها رقتها لمامى بلا حماية ، وبدونى لأظهرت لويز استيائها ، ولأبدى شارل إعجابه بجبل سرفان^(١) أو باليائزك أو بأولاد الآخرين . وكنت السبب

(١) أحد جبال الألب .

المرضى لاختلافاتهم ولمصالحاتهم ، إن الأسباب العميقة كانت في مكان آخر في ما كون وجنسباخ وتيفيه ، في قلب عبوز موحل ، في ماض يعود إلى قبل مولدى بوقت طويل . كنت أعكس لهم وحدة العائلة ومتناقضاتها القديمة ؛ وكانوا يستخدمون طفولتى البريئة كي يصبحوا ما كانوا . وعشت في القلق : في الوقت الذى كانت احتفالاتهم تقنعني بأن لاشئ يوجد بدون سبب وأن لكل إنسان ، من الأكبر إلى الأصغر مكانه المعلوم في الكون ، أما سبب وجودى أنا فإنه كان يتوارى ، لقد اكتشفت فجأة أننى أساوى الزبدة وأننى خجل من وجودى غير العادى في هذا العالم المنظم .

لو كان لى أب لأتقلى ببعض إصراره الدائم ، وبصنعه مبادئى من أمزجته ومعرفتى من جهله وكبريائى من حقه وقانونى من هوسه ، ولاحتل نفسى وأعطانى هذا المستأجر احترامى لنفسى . ولأست على الاحترام حقى في الحياة . ولقرر من وهبى الحياة مستقبلى : ولو كنت مهندسا بالولادة لنعمت بالامدى الحياة . ولكن لو فرض وعرف جان ياتيسست سارتر مصيرى لحمل سره معه ، إن أمى تذكر فقط أنه قال : « إن ابنى لن يدخل البحرية . ولعدم وجود معلومات أدق ، لم يكن أحد يعرف ابتداء منى ما الذى جثت أفعله على الأرض . لو كان ترك لى مالا لتغيرت طفولتى ، لما كنت كتبت ، لأننى كنت سأصبح إنسانا آخر . إن الحقول والنزل تعكس للوارث الشاب صورة ثابتة لنفسه ، إنه يلس نفسه على حصائه وعلى زجاج شرفته ذى الشكل المعين ويعمل من سكونهما الجوهر الخالد لنفسه . فنذ بضعة أيام سمعت وأنا في المطعم ابن صاحبه ، وهو طفل في السابعة من عمره ، يصيح في أمينة الحزينة : « حين لا يكون

والدى هنا أكون أنا السيد . هالك رجلا ! فعندما كنت فى سنه لم أكن سيد أحد ولم أكن أملك شيئا . فى دقائق طيشى النادرة كانت أمى تهمس لى : انتبه ! إننا لسنا فى منزلنا . ولم نكن قط فى منزلنا : لا فى شارع د لوجوف ، ولا بعد ذلك ، حين تزوجت أمى للمرة الثانية . ولم أتألم لذلك ، لأنهم كانوا يعيرونى كل شىء ، ولكننى ظلمت مجرداً . إن أموال هذا العالم تمكس للمالك ماهيته ، وكانت تعلمنى ما لم أكنه : لم أكن ثابتا ولا مستديما ، لم أكن ذلك الذى يستمر فى عمل والده ، لم أكن ضروريا لإنتاج الصلب : واختصارا لم تكن لى نفس .

لو أننى عشت فى وفاق مع جسمى لكان ذلك عظيما . ولكننى كنت أولف معه زوجا غريبا . فى البؤس لا يسأل الطفل نفسه : إن حالته التى ابتليت جسمانيا بالحاجات والأمراض ، هذه الحاجة التى لا مبرر لها تبرر وجوده ، إنها الجوع ، إنها خطر الموت الدائم اللذان يؤسسان حقه فى الحياة : إنه يعيش كى لا يموت . أما أنا ، فلم أكن غنيا بما فيه الكفاية لاعتقد أننى موعود ولا فقيرا بما فيه الكفاية لأشعر بنهوائى كأنها احتياجات . كنت أودى واجباتى الغذائية وكان الله يرسل لى فى بعض الأحيان — نادرا — هذه النعمة التى تسمح بالأكل دون تفزز — الشهية . وكنت أتنفس وأهضم وأخرج بلا مبالاة ، وأعيش لأننى بدأت الحياة . وكنت أجهل عنف مطالب جسدى التوحشة : كان يعرف نفسه بسلسلة من الاضطرابات الخفيفة التى تسترعى كثيرا اهتمام الكبار . فى ذلك المصر كان يتعم أن يكون فى العائلة الكريمة طفل واحد على الأقل . ضعيف الصحة . وكنت ذلك الطفل ، فقد فكرت فى الموت عند مولدى .

وكانوا يراقبونني ويقيسون نبضي وحرارتي، ويضطرونني إلى اخراج لساني :
 « ألا ترى أنه شاحب بعض الشيء ؟ » « إنه الضوء : » « أوكد لك أنه
 تحل ! » « ولكننا وزناه أمس يا والدي . » كنت أشعر ، وأنا تحت
 النظرات الفاحصة ، بأنني أصبحت شيئا ، أصبحت زهرة في أبيض . وكان
 ينتهي الأمر بوضعي في السرير . وكنت أختنق من الحرارة وأحترق
 تحت الأغطية فأخط بين جسمي واضطرابه : فلا أعود أعرف أيهما غير
 المرغوب فيه .

كان السيد سيمونو مساعد جدي يتناول الغداء معنا يوم الخميس .
 وكنت أحسد هذا المحسني بخديه اللتين تشبهان خدود البنات الذي كان
 يلعب شاربه ويصنع شعره : وحين كانت آن ماري تسأله ، لتطيل الحديث
 إن كان يحب باخ ويعجبه البحر والجبل ، وإن كان يحتفظ بذكرى طيبة
 عن مسقط رأسه ، كان يفكر طويلا ويوجه نظره الداخلية إلى كتلة
 حيوله الجرانيتية . وحين كان يحصل على البيان المطلوب كان ينهيه إلى أمي
 بصوت موضوعي وهو يحكي برأسه . ياله من رجل سعيد ! لقد تصورته
 يستيقظ كل صباح في حبور ويحصى ، من إحدى النقاط العالية ، أحرفه
 وقمه وودياته ثم يتمطأ بتلذذ وهو يقول : « هذا هو أنا حقا : أنا
 السيد سيمونو كله . » يد أني كنت قادرا تماما ، حين كنت أسأل ،
 على الإدلاء بما أفضله من أشياء بل وتأكده ، ولكن ، في الوحدة ،
 كنت أنساها : ولما كنت بعيدا عن التثبيت منها ، فقد كان لا بد من أن
 أمسكها وأن أدفعها وأن أثق فيها الحياة ؛ حتى إنني لم أكن متأكدا
 بعد إن كنت أفضل لحم ظهر الثور على لحم العجل المشوي . كم كنت على

استعداد لأن أعطى ليضموا في داخلي منظرا طبيعيا مضطربا ، وعزمات عنية حادة كمقاطع الجبال . وعندما كانت السيدة يكار تقول عن جدى مستخدمة بذوق صائب مفردات اللغة المعمول بها آنذ : « إن شارل لكائن جذاب ، ، أو « إننا لا نعرف الكائنات ، كنت أشعر بإدانتى دون تقضى . إن حصى حديقة اللوكسمبورج والسيد سيمونو وأشجار الكستناء وكارليمامى هم كائنات . أما أنا فلا . فلم يكن لدى لا الجمود ولا العمق ولا الناعة . وكنت لا شيء : شفافية لا تمنحى . ولم يعد لغيرتى حدود يوم علمت أن السيد سيمونو ، هذا التمثال ، هذه الكتلة الحجرية الواحدة ، كان فوق ذلك ضروريا للكون .

كان هناك عيد . وفي معهد اللغات الحية ، كان الجمع يصفقون تحت اللهب المتحرك لمصباح أور^(١) الغازى . وكانت أمى تعزف موسيقى ثوبان والجميع يتحدثون بالفرنسية بناء على أمر جدى . فرنسية بطيئة ، حلقة وبطلاوة ذابلة وبأبهة لحن موسيقى دينى حزين . وكنت أظير من يد إلى يد دون أن ألمس الأرض ، وأختنق على صدر روائية ألمانية حين أسقط جدى من عليائه حكما أثر فى . « ينقصنا شخص هنا . إنه سيمونو » . لقد أفلتت من بين ذراعى الروائية والتجأت إلى ركن ، واختفى المدعوون وفى وسط حلقة مضطربة رأيت عمودا . إنه السيد سيمونو بذاته ، وقد غاب بلحمه وعظمه . إن هذا الغياب العجيب غير هيئته . وكان عدد التائبين كبيرا ليكمل عدد من فى المعهد . وكان بعض التلاميذ مرضى ، واعتذر

(١) اسم مخترع هذا النوع من الاضاءة وهو كيميائى نمساوى (المترجم)

آخرون ؛ ولكن الأمر هنا لا يتعلق إلا بأحداث عارضة يمكن التغاضي عنها . إن السيد سيمونو هو وحده الغائب . إن مجرد لفظ اسمه كان كاف لينغرس الفراغ كسكين في هذه القاعة الغاصة بالناس . لقد تعجبت من أن يوضع لإنسان مكان . ومكانه هو العدم الذي حفره الانتظار العام ، بطن لا مرئية يبدو فجأة أنه يمكن الولادة منها من جديد . ومع ذلك ، لو أنه خرج من الأرض ، وسط الهتافات ، لو أن النساء ألقين بأنفسهن على يده ليقبلنها ، لأقتت من سكرتي : إن الوجود الجسدي زائد على الدوام . ولما كان بكرا تحول إلى طهارة جوهر سلبى فإنه كان يحتفظ بشفافة الماس التى لا يمكن اعتصارها . ولما كان من نصيبى أنا أن أكون فى كل لحظة موجودا بين بعض الأشخاص ، فى مكان ما من الأرض وأن أعرف أننى زائد عليها ، أردت أن أشعر سائر الناس فى كل الأمكنة الأخرى بحاجتهم إلى مثل حاجتهم إلى الماء والخبز والهواء .

إن هذه الأمنية عادت كل يوم على شففى . كان شارل شفاييزر يضع الضرورة فى كل مكان ليغضى حزنا لم أتبينه قط ، طالما كان على قيد الحياة وقد بدأت الآن أن أحده . وكان كل زملائه يحملون السماء . وكان فى عداد أطالسه^(١) النحويون وقهاء اللغة وعلماء اللسان والسيد ليون كاين ومدير « المجلة التربوية » . وكان يتحدث عنهم بوقار ليحثنا على تقدير أهميتهم « إن ليون كاين يعرف مادته . إن مكانه فى المهد ، ، أو كذلك » إن الشيخوخة تحف على شورر ؛ أمل ألا يقتروا حماقة إحالته على المعاش :

(١) اله لاغريقى حكم عليه الاله زوس بأن يحمل على كتفيه قبة السماء (الترجم)

إن الكلية لا تعرف ماسوف تفقد . ، ولما كنت محاطا بشيوخ لا يمكن لأحد أن يحل محلهم ولما كانت وفاتهم القرية ستعمر أوروبا حزنا وربما أردتها في البربرية ، كم كنت أعطى لأسمع صوتا أسطوريا يحمل حكما إلى قلبي :
 « إن هذا السارتر الصغير يعرف مادته ، لو توفى ، فإن فرنسا لن تعرف ما تفقد ! ، إن الطفولة البورجوازية تعيش في أزلية اللحظة ، أى في الجمود : كنت أريد أن أكون أطلس في الحال ، وعلى الدوام ومنذ القدم ، وكنت كذلك لا أفهم أن فى استطاعة المرء أن يعمل ليصبح أطلسا ؛ وكان لابد لى من محكمة عليا ، من مرسوم يعيد إلى حقوق . ولكن أين القضاة ؟ إن قضائى الطيبين فقدوا اعتبارهم تمثيلهم الردى ، لقد رددتهم ، ولكنى لا أجد غيرهم .

ولما كنت حشرة طفيلية مشدوهة ، بلا إيمان وبلا قانون وبلا عقل ولا مصير ، كنت أهرب إلى المهزلة المائتية دائرا ، جاريا وطائرا من خدعة إلى خدعة . وكنت أهرب من جسمى الذى لا مبرر له ومن نجواه الضعيفة ؛ وكأنحلة التى تصطدم بعقبة فتتوقف ، فإن الممثل الصغير الشارد كان يسقط فى الدهول الحيوانى . وقالت بعض الصديقات الطيبات لأمى أننى حزين وأنهن فاجأتنى وأنا أحلم ، فضمتنى أمى إليها وهى تضحك وقالت لى :
 « أنت المرح الذى تغنى دائما ! مم تشكو ؟ فليدك كل ما تريد . ، وكانت على حق : فالطفل المدلل لا يكون حزيناً ، إنه يضجر كالملك . كالكلب .

أنا كلب : إنى أبتأب ، والدموع تسيل ، إنى أشعر بها وهى تسيل . أنا شجرة ، الريح تتعلق بأغصانى وتهزها بغموض . أنا ذبابة ، أتسلق

ترجاج الشباك وأندحرج وأعيد التسلق . وأحيانا أشعر بلامسة الزمن الذى يمضى ، وأحيانا أخرى - وهى الأكثر - أشعر بأنه لا يمضى . إن دقائق مرتجفة تسقط وتبتلعنى ولا تكف عن الاحتضار ، وتكنس حين تركد على الرغم من أنها لا تزال حية . وتحمل محلها دقائق أخرى أكثر جدة ولكنها فارغة مثلها ؛ إن هذه التقرزات اسمها السعادة ؛ إن أمى بعيد وتكرر على أننى أسعد الصبية . وكيف لا أصدقها وهى تقول الحق ؟ إنى لا أفكر قط فى عزلتى ، إنه لا توجد أولا كلمة لتسميتها ، ثم إنى لا أراها : إنهم لا يكفون عن الاحاطة بى . إنها لحظة حياتى ونسيج أفراسى ولحم أفكارى .

لقد رأيت الموت . كان يترصدنى وأنا فى الخامسة ؛ وفى المساء كان يطوف على الشرفة ويلصق خطمه على الزجاج ، وكنت أراه ولكنى لم أكن أجرو على الكلام . وقابلناه مرة عندكى فولتير ، كانت سيدة عجوزة طويلة القامة ومجنونة ترتدى ملابس سوداء ، وهممت حين مرت بى : « هذا الطفل سوف أضعه فى جيبى » . وفى مرة أخرى اتخذ الموت شكل حفرة : كان ذلك فى أركشون ، وكان كارليمامى وأمى يزوران السيدة دوپون وابنها جبريل المؤلف الموسيقى . كنت ألعب فى حديقة الفيلا ، خائفا لأنهم كانوا قد قالوا لى إن جبريل مريض وأنه سيموت . وقدت الحصان ، بدون حماس ، وجلت حول المنزل . وجأة لحت حفرة ظلمات : كان القبو مفتوحا ، ولا أعرف تماما أى عزلة وهول واضحين أعشيا

بصرى . وبحركة خلف در هربت وأنا أغنى بأعلى صوتى . وفى تلك الحقة كنت على موعد معه فى سربرى ، كل ليلة . وكان طقسا : وكان على أن أنام على الجهة اليسرى وأنفى متجها إلى الحائط . كنت انتظر وجسمى كله يرتعش ويظهر لى ، هيكل عظمى تقليدى بمنجل ، ويأذن لى حينئذ أن أتقلب على الجهة اليمنى ، وكان يذهب وكنت أستطيع أن أنام هادئا . وفى النهار كنت أعرفه وهو متكرر بالملابس الأشد اختلافا : وإن حدث أن غنت أُمى بالفرنسية « ملك الأولن » ، كنت أسد أذنى ، ولأنتى قرأت « السكير وامرأته » ، فقد مكثت ستة أشهر دون أن أفتح حكايات لافوتين . ولكن هذا الصعلوك لم يكن يبالى به ؛ إنى يحفى فى قصة ميريه « فينوس أيل » ، وينتظر أن أقرأها لينقض على . إن الجنازات والقابر لا تقلقنى ؛ وفى حوالى ذلك الوقت مرضت جدتى لأبى وماتت ، ووصلنا أنا وأُمى إلى تيفيه وقد استدعينا بريقة حين كانت لا تزال حية . فضلوا إيمادى عن المكان الذى كان فيه هذا الوجود الطويل التمس ينتهى من التخلص من نفسه ؛ واهتم بعض الأصدقاء بى وآوونى وlishغلونى أعطونى ألعاب مناسبة . ألعاب تعليمية مفعمة بحزن ممل . ولعبت وقرأت واجتهدت فى التظاهر بالتأمل المثالى ولكنى لم أشعر بشيء . وكذلك لم أشعر بشيء حين سرنا خلف العربة الجنائزية إلى المقابر . إن الموت كان يلعب بغيابه : إن الوفاة ليست هى الموت ، ولم أستبجح تحول هذه العجوز إلى بلاطة جنائزية ، وكان فى هذه الوفاة تحول ووصول إلى الوجود ، وبالاختصار كان كل شيء يحدث كما لو كنت تحولت بأبهة إلى السيد سيمونو . ولهذا السبب ، أحببت دائما ، ولا زلت أحب المقابر الايطالية : إن الحجر فيها حزين ، إنه إنسان .

كامل غريب ، وينقش عليه نوط يحيط بصورة شمسية تذكر بالمرحوم في حالته الأولى . وحين كنت في السابعة كنت التقي بالموت الحقيقي ، بالزميل في كل مكان ، ولكن لم ألتق به هنا قط . أى شيء كان الموت ؟ كان شخصاً وتهديداً . كان الشخص مجنوناً ، أما التهديد فها هو ذا : أفواه مظلمة يمكن أن تفتح في كل مكان ، في رابعة النهار ، تحت أسطح شمس وتلتهمني . وكان يوجد ظهر فظيع للأشياء ، وحين تقدم صوابنا ، كنا نراه ، إن الموت هو التطرف في الجنون والفرق فيه . لقد عشت في رعب كان مرضاً عصبياً حقيقياً . وإذا بحثت عن سببه تبين لى ما يأتى : لما كنت طفلاً مدلاً ، هبة العناية ، فإن عمق عدم فائدتى كان يشتد وضوحاً طالما يبدت لى الطقوس العائلية ذات ضرورة مصطنعة . وكنت أشعر بأنتى زائد عن الحاجة ولا بد لى أن أختفى . وكنت تفتحا تافها ، مقامة على دائماً دعوى الإلقاء . وبمعنى آخر ، كان محكوماً على ، وكان فى استطاعتهم تنفيذ الحكم من لحظة إلى أخرى . ولكنى كنت أرفضه بكل قواى ، لا لأن وجودى كان عزيزاً على ، ولكن لأنتى لم أكن أحفل به : إن الحياة أكثر لا معقولة والموت أقل مكابدة .

لكن الله خفف عني الألم : ولكنى أصبحت تحفة تحمل توقيعاً ؛ ولما كنت متأكداً من أنى أملاً مكانى فى المجتمع العالمى ، فقد انتظرت فى صبر أن يكشف لى مقاصده وضرورتى . كنت أشعر مقدما بالدين وكنت آمله لأنه الدواء . ولو أنهم رفضوا إعطائى إياه لقمعت باختراعه بنفسى . ولكنهم لم يرفضوا : ولما كنت قد تربيت فى الإيمان الكاثوليكي ، فقد تعلمت أن الكلى القدرة قد خلقنى لجده : وكان ذلك أكثر مما كنت

أجرؤ على أن أحلم به . ولكن ، بعد ذلك ، لم أتعرف في الله الذي علموني ،
إياه على الذي كانت تنتظره روحي : كنت في حاجة إلى خالق فأعظوني
معلما عظيما ، ولم يكن الاثنان إلا واحداً ، ولكني كنت أجهله ؛ كنت
أخدم بدون حرارة الوثن الفريسي^(١) وجعلني الدين الرسمي آنف البحث
عن إيمانى الشخصى . يا للحظ ! إن الثقة والحزن جملا من روحي أرضا
طيبة لبذر بذور السماء . ولولا هذه القلطة لكنت أصبحت راهبا . ولكن
عائلى كانت قد مست بحركة الإلحاد التى ظهرت فى البورجوازية الفولتيرية .
العليا والى استعرت قرنا لتمتد إلى كل طبقات المجتمع : ولولا هذا الضعف
العام فى الإيمان لراد صدوف لويز جيان ، الأنسة الكاثوليكية ، التى تعيش
فى الأقاليم ، عن الزواج بأحد أتباع لوثر^(٢) . وبالطبع كان جميع أفراد
العائلة مؤمنين ولكن عن حذر . وبعد سبع أو ثمانى سنوات من وزارة
كومب^(٣) ، كان إعلان الكفر يحتفظ بعنف وبذاءة الهوى ، وكان
الكافر يعتبر شاذا ومجنونا ولا يدعى إلى العشاء خوفا من أن يتقوه بكلمة
« خارجة » ، كان يعتبر متمصبا ، مثقلا بكلمات التحريم ، وهو يرفض حق
الركوع فى الكنائس وتزويج بناته فيها والبكاء بحرارة ، وهو يفرض على
نفسه إثبات حقيقة دينه بطهارة أخلاقه ، وهو يثور على نفسه وعلى سعادته
إلى حد أنه بمجرد نفسه من الوسيلة التى تجعله يموت متمزيا ، إنه مهووس .

(١) عضو طائفة يهودية تتظاهر بالتمسك بقواعد الدين (المترجم)

(٢) أنتأ مارتن لوثر المذهب البروتستانتي (المترجم)

(٣) هو اميل كومب تولى رئاسة الوزارة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ ونادى
بفصل الدين عن الدولة (المترجم) .

بأنه يشاهد غيابه في كل مكان وهو لا يستطيع أن يفتح فاه دون أن يلفظ اسمه ، وبالاختصار إنه سيد لديه براهين دينية مقنعة . إن المؤمن لم تكن لديه هذه البراهين : فمذ ألفى سنة كان لدى اليقين المسيحي الوقت كي يثبت وجوده . وكان هذا اليقين ملكا للجميع ، وكان يطلب إليه أن يلمع في نظرة قسيس في ضوء الكنيسة الخافت وأن يضئ النفوس ، ولكن لا أحد كان في حاجة إلى أخذه لحسابه ، لقد كان تراثا مشتركا . إن المجتمع الصالح كان يؤمن بالله كي لا يتكلم عنه ، وكما كان الدين يبدو متسامحا وكما كان مريحا : كان في استطاعة المسيحي أن يترك القداس وأن يزوج أولاده زواجا دينيا وأن يتسم للتقوى البالغ فيها في كنيسة سان سوليس وأن يذرف الدمع وهو يضئ إلى «النشيد الزفافي» للوهنجرين ؛ ولم يكن يطلب منه أن يحيا حياة مثالية ولا أن يموت في اليأس بل ولا أن يطلب حرق جثته . وفي يثتنا وأسرتنا ، لم يكن سوى اسم استعراضي بالنسبة للحرية الفرنسية الرقيقة ، لقد عمدوني كما عمد كثيرون غيري ، ليحافظوا على استقلالي : فبرفضهم تعميدي يخشون قسر روحي ، وتسجيلي كاثوليكيًا كنت حرا وكنت عاذيا . وكانوا يقولون : « ليفعل ما يشاء بعد ذلك . » وكانوا يرون في ذلك الوقت أن كسب الإيمان أصعب بكثير من فقدانه .

كان شارل شفايتزر ممثلا إلى الدرجة التي كان لا يحتاج عندها إلى متفرج كبير . ولكنه قلما كان يفكر في الله إلا في الأوقات الحرجة ؛ ولما كان واثقا من الإلتزام به ساعة الموت كان يعمده عن حياته . وفي الحياة الخاصة ، إخلاصا لإقليمنا الضائعين ، وللفرح الكبير لأعياد

البابوية ، إخوانه ، لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يسخر من الكاثوليكية : إن أحاديثه على المائدة كانت تشبه أحاديث لوثر . وعن لورد (١) ، لم يكن معينة ينضب : لقد رأت برناديت « امرأة طيبة كانت تغير قميصها » ؛ لقد غطسوا مشلولاً في الحوض وحين انتشلوه كان يرى بينيه الاثنين . وكان يحكى قصة حياة القديس لابر ، المقفل ، وقصة القديسة ماري ألاكوك التى كانت تلتقط براز الرضى بلسانها . لقد قدمت لى هذه الأكاذيب خدمة : وكنت أميل إلى الترفع عن خيرات هذا العالم بقدر ما كنت لا أملك منها شيئاً ولوجدت بلا تعب دعوتى فى املاقى للريح ؛ إن التصوف يناسب الأشخاص المعزولين والأطفال الزائدين عددهم عن الحد : وكى ألقى بنفسى فيه ، كان يكفى أن أقدم لنفسى المسألة من طرفها الآخر ؛ وكنت أعرض نفسى لخطر الوقوع فريسة للقداسة . لقد جعلنى جدى أكرهها إلى الأبد : رأيتها بينيه ، وهذا الجنون القاسى جعلنى أقرز لفاهة أخطاقتها وأرهبنى باحتقاره السادى للجسد ؛ إن شذوذ القديسين قلما يعود له معنى كالانجليزى الذى غطس فى البحر وهو بلباس الاسموكنج . وكانت جدتى تتظاهر بالغضب وهى تصغى إلى هذه القصص ، وكانت تسمى زوجها « كافراً » و « بروتستانتياً » وكانت تضربه ضربات خفيفة على أصابعه ، ولكن سماحة ابتسامتها كانت لا تلبث أن تردنى إلى صوابى ؛ لم تكن تؤمن بشيء ؛ وإن شكها وحده هو الذى كان يحول بينها وبين الكفر . وكانت تحرص على عدم التدخل ؛ فقد كان « لها رها » ولم تكن تطلب منه إلا أن يعزبها فى السر . وكانت المناقشة تستمر فى رأسى النهك : شخص غيرى ، أخى

(١) يقصد أعجوبة عذراء لورد (المترجم)

«الأسود كان يعترض بفتور على كل بنود إيماني؛ كنت كاثوليكيًا وبروتستانتيا كنت أجمع بين روح النقد وروح الخضوع . وفي الواقع كل ذلك كان يقتلني : لقد انسقت إلى عدم الإيمان لاسبب تنازع العقائد ولكن بسبب لا مبالاة جدى . ومع ذلك فكنت أومن : فبقميصي ، جاثيا على ركبتي خوف السرير ، وضاما يدي . كنت أؤدي صلاتي كل يوم ولكن تفكيرى في الله كان يتناقص . وكانت أمتي تصحبنى يوم الخميس إلى معهد الأب ديبلدوس : وكنت ألتقى فيه دروساً في الدين وسط أطفال لا أعرفهم . ولقد كان مجهود جدى في هذه الناحية قويا إلى الدرجة التي جعلتني أرى القساوسة ، وكانهم حيوانات غريبة ؛ وعلى الرغم من كونهم كهنة ديانتي فقد كانوا بالنسبة لى أغرب من الرعاة البروتستانت بسبب جلبابهم وبقائهم عزابا . وكان شارل شفايتزر يحترم الأب ديبلدوس — « إنه رجل فاضل ! » — كان يعرفه شخصيا ، ولكن عداؤه للكهنة كان صارخا لدرجة جعلتني اجتاز الباب الكبير وأنا شاعر بأنى أدخل أرض الأعداء . أما أنا فإنى لم أكن أكره الكهنة : فحين يكلموننى كانوا يرسمون على وجوههم سياء المطف، تلك الوجوه المدسكة بالروحانية، والتي يبدو عليها مظهر التلطف المدهوش . وتلك النظرة اللانهائية التي كنت أقدرها على الخصوص عند السيد يكار . وعند غيرها من صديقات أمتي الموسيقيات ؛ وكان جدى هو الذى يكرههم خلاى . كما أنه أول من فكر بأن يعهد بى إلى صديقه الكاهن ، ولكنه كان يتفرس بقلق وجه الكاثوليكي الصغير الذى كانوا يعيدونه إليه مساء الخميس ، وكان يبحث عن تقدم البابوية ولا يحرم نفسه من التهمك على . ولكن هذا الوضع المزيف لم يستمر أكثر من ستة أشهر . وذات يوم

أعطيت العلم موضوع إنشاء باللغة الفرنسية عن الآلام ؛ لقد أسعد هذا الموضوع عائلي وقامت أمي بتبسيطه بنفسها . ولكنه لم ينل سوى الميدالية الفضية . وقد أوغلت في هذه الصدمة في الكفر . وحال مرض اتابني والمطلة الصيفية دون عودتي إلى معهد ديبلدوس ؛ وعند بداية العام الدراسي طالبت بعدم العودة إلى هذا المعهد . وخلال عدة سنوات أخرى أقمت علاقات عامة مع السكلى القدرة ؛ أما في حياتي الخاصة فقد كفت عن معاشرته . واتابني مرة واحدة شعور بأنه موجود . ولقد لعبت بأعواد الثقاب وأحرقت سجادة صغيرة ، وكنت منهمكا في إخفاء جريعتي وخفاة رآني الله ، لقد أحسست بنظرته داخل رأسي وعلى يدي ، ودرت مراراً في الحمام ، ظاهراً بوضوح ، وكأنتى هدف حي . لقد أتهذنى الغضب : وهجت على هذا الطفل المتناهي في السهاجة ، وجذفت ، وهمت كما يفعل جدى : يا إلهي ! يا إلهي ! يا إلهي ، وكف بعد ذلك عن النظر إلى .

لقد قصصت في التو قصة رسالة لم يكتب لها النجاح : لقد كنت في حاجة إلى الله فأعطوني إياه ، وقبلته دون أن أفهم أنني أبحث عنه . ولأنه لم يتأصل في قلبي ، فقد عاش في بعض الوقت ثم مات . واليوم حينما يحذوننى عنه ، أقول باللهو غير الآسف لوسيم عجوز يقابل جميلة عجوز : منذ خمسين سنة لولا سوء التفاهم هذا ، ولولا هذا الاحتقار ، ولولا الحادث الذى فصلنا بعضنا عن بعض لكان فى الإمكان أن يحدث شيء بيتنا .

ولكن لم يحدث شيء . ومع ذلك فإن شؤونى كانت تزداد سوءا .

وكان جدى يتضايق من شعرى الطويل ويقول لأى : « إنه صبي وستجملين منه بنتا ؛ إني لا أريد أن يصبح حفيذى جيانا ! » وصمدت آن مارى ؛ إني أعتقد أنها كانت تفضل أن أكون بنتا بحق ؛ لكانت طفولتها الحزينة العائدة قد سعدت بامتلائها بالنعم . ولما كانت السماء لم تستجب إليها ، فقد ربت أمرها : سوف يكون لى جنس اللائكة ، غير محدد ولكنه مؤنث على الأطراف . ولما كانت حنونة فقد علمتى الحنان ؛ وقامت عزلى بالباقي وأبعدتنى عن الألعاب العنيفة . وذات يوم — وكنت فى السابعة — لم يستطع جدى الصبر : فقد أخذنى من يدى معلناً أنه ذاهب بى إلى نزهة .. ولكن ما أن وصلنا إلى ناصية الشارع واستدرونا حتى دفعنى إلى الحلاق وهو يقول لى : « سوف تقاجىء أمك » . وكنت أعشق المفاجآت .. وكانت كثيرة عندنا . كتمان للسربغرض اللهور أو عن فضيلة ، وهدايا غير متطرة ، وكشف سر مسرحى يتبعه عناق : كانت هذه وتيرة حياتنا . وحين استأصلوا لى الأعور لم تقل أى شيئاً لكارل لتكفيه مؤونة القلق الذى لم يكن يشعر به على أى حال . لقد أعطى خالى أوجست المال ، وعدنا خفية من أركاشون وأخبأنا فى إحدى المستشفيات الخاصة فى كورنفوا . وبعد غداة العملية ، جاء أوجست لزيارة جدى وقال له : « سأعلن لك خبراً ساراً » . وخدع كارل برسمية هذا الصوت الباش . « هل تزوج ثانية ! » فأجاب خالى وهو يتسم : « لا ، ولكن كل شئ سار على مايرام .. » « ماذا تقصد بكل شئ ؟ » الخ .. الخ . وبالاختصار فإن المفاجآت المسرحية كانت صلاتى اليومية الصغرى ونظرت بحسن التفات إلى شعرى المجدد وهو يتدحرج على طول القوطة البيضاء التى كانت تضغط على رقبتي .

ويسقط على الأرضية الخشب وقد أغبر صون سبب ؛ وعدت خفورا
ومجزوزا .

وحدث صراخ ولكن لم يحدث عناق وأغلقت أى باب غرفتها عليها
لتبكي : لقد استبدلوا بنتها الصغيرة بصبي صغير . وحدث ما هو أنكى :
فطالما كان شعري الجمعد يتطار حول أذنى فإن ذلك كان يسمح لها بأن
ترفض جلاء دماعى . وها هى ذى عيني العتي تدخل فى الفسق . وكان
لا بد لها أن تمر لنفسها بالحقيقة . ويبدو على جدى نفسه أنه حائر تمام
الحيرة ؛ لقد عهدوا إليه بأعجوبته الصغيرة ، فردها ضفدعا : إن ذلك
يعنى اجتثاث دهشاته المستقبلية من جذورها . ونظرت إليه جدتى
بسخرية ، وقالت فقط : « إن كارل ليس خفورا ؛ إنه خجلان . »

وتكرمت آن مارى فأخفت عني سبب حزنها . ولم أعرف هذا
السبب إلى حين بلغت الثانية عشرة من عمري ، وبغضب . ولكنى كنت
أشعر بضيق وأنا فى جلدى . فأصدقاء عائلتى كانوا يلقون على نظرات قلقة
أو حيرة كنت كثيراً ما ألحها فجأة . أن جمهورى كان يزداد تعصبا يوما
عن يوم ؛ وكان لا بد أن أبذل نفسي ، لقد غاليت فى التأثير فأسأت
التمثيل . وعرفت أهوال المثلة التى بدأت تشيخ : وعلمت أن غيرى
يستطيع أن يرضى . انى احتفظ بذكرين حدثا بعد ذلك بقليل ولكنها
جليتان .

كنت فى التاسعة من عمري ، وكانت السماء تعطر ، وفى فندق
نواريتابل ، كنا عشرة أطفال ، عشر قطط فى كيس واحد ؛ وقبل جدى

للهنا أن يكتب ويخرج تمثيلية وطنية بعشر شخصيات . ولقب برنارد ،
أكبر الجماعة ، دور الأب ستروتوف ، محسن فقط . وكنت أتراسيا شابا :
وكان والدى قد اختار فرنسا وعبرت الحدود سرا لألحق به . وقد أعدت
لى إجابات شجاعة : ومددت ذراعى الجنى وأحنيت رأسى وهمست خفيا
خدى الحبرى فى تجويف كفتى : « وداعا ، وداعا يا أتراسا العزيزة » .
وفى المراجعات كانوا يقولون إنى كنت ظريفا جدا؛ الشيء الذى لم يدهشنى .
وتم العرض فى الحديقة؛ وكان يجد المسرح مجموعة من شجيرات السياجات
وجدار الفندق ، وأجلس الآباء والأمهات على كراسى خيزران . وكان
الأطفال يلهون كالجنانين فيما عداى . ولما كنت مقتنعا بأن مصير التمثيلية
فى يدى ، فقد اجتهدت فى أن أرضى ، تقانيا للفضية المشتركة، وكنت أعتقد
أن الميون كلها مثبتة على . ولقد بالغت ، وحاز برنارد رضى الحضور لأنه
كان أفل تصنعا منى . هل فهمت ذلك؟ وفى آخر العرض أخذ يجمع المديح :
وتسللت خلفه وشدت لحيته التى ظلت فى يدى . وكان ذلك مزاحا بين
كواكب للاضحاك فقط ؛ وكنت أشعر بنفسى أنى غاية فى الظرف وأخذت
أقفز بقدم على الأخرى ملوحا بغنيمتى . ولم يضحك أحد . وأخذتنى أمى
من يدى وأبعدتنى بشدة : « سألتنى حزينة : « ما الذى دهاك ؟ هل اللحية
جميلة إلى هذا الحد ! لقد تعجب الجميع من هذه الرعونة . » ولحقت بنا
جدتى ومعها آخر الأخبار : لقد عزته أم برنارد إلى الغيرة . « أترى
ما ربحت من إظهار نفسك ! » ، وهربت ، وجريت إلى غرفتنا ، ووقفت
أمام الحزانة ذات المرأة وأخذت القلب وجهى طويلا .

وكان من رأى السيدة يكار أن الطفل يستطيع أن يقرأ كل شيء . :

« إن الكتاب لا يضر قط حين يكون مكتوبا جيدا .. وكنت في حضورها قد طلبت فيها مضي الاذن بقراءة « مدام بوفارى » ، وقالت أُمى بصوتها الموسيقى الزائد « لو أن ابني العزيز قرأ هذا النوع من الكتب في هذه السن فما الذى يفعله عندما يكبر ؟ » — « سوف أعيشه ! » ، وعرفت هذه الإجابة أصرح نجاح وأطوله ، وكانت السيدة يكار تشير إليها كلما جاءت لزيارتنا ، وكانت أُمى تصبح مؤنة معجبة : « بلانش ! أرجو أن تسكتى ، سوف تقسدينه ! » كنت أحب وأكره هذه المرأة العجوز الكالحة السمينة خير جمهورى ؟ وحين كنت أخبر بمقدمها ، كنت أشعر بمقبرتى ، وأتخيل أنها فقدت جونتها وأنى أرى ردفها ، وهى طريقة تقديم الاحترام لروحانياتها . وفى نوفمبر ١٩١٥ أهدتنى كتيبا من الجلد الأحمر ، مذهب الحوافى . وكنا جالسين فى مكتب جدى أثناء غيابه ، وكانت النساء يتكلمن بجملة ولكن بصوت أخفض مما كان فى سنة ١٩١٤ ، وذلك بسبب الحرب إن ضابا قدرا أصفر يلتصق بالنوافذ ، وكانت تنبث رائحة الطباقي البارد . وفتحت الدفتر الصغير ، وخاب ظنى أولا : فقد كنت انتظر رواية أو قصصا ، وقرأت عشرين مرة على وريقات متعددة الألوان مجموعة من الأسئلة . وقالت لى « املاؤا إحدى هذه الوريقات واجمل أصدقاءك الصغار يملأون الأخباريات ، فتعد لنفسك ذكريات حلوة » . وفهمت أنه يعرض على فرصة أن أكون مدهشا . وصمدت على الإجابة فى الحال ، وجلست إلى مكتب جدى ووضعت الدفتر فوق ورقة نشاف وأخذت مقبض ريشته المصنوع من الباعة وغمسيتها فى زجاجة الحبر الأحمر ، وأخذت أكتب ، فى حين كان الكبار يتبادلون نظرات إعجاب . وبقفزة ، طرت أعلى من

روحي لأصطاد ، الإجابات التي هي أكبر من سني ، . ولكن مجموعة الأسئلة لم تكن تساعد على ذلك مع الأسف . كانوا يسألوني عما أحب وأكره : وعن اللون الذي أفضله وعطري المفضل ؟ كنت أختار بلا حماس أشياء مفضلة ، حين حانت فرصة ظهور : « ما هي أغلى أميانتك ؟ » وأجبت دون تردد : « أن أكون جنديا وأن أثار الموتى . » ولما كنت منفصلا أكثر مما يجب لأستطيع أن استمر في الإجابة فقد قفزت إلى الأرض وحملت عملي إلى الكبار . وشحذت الأنظار ، وأحكمت السيدة ييكار وضع نظارتها وانحنيت أُمي على كتفها ؛ ومطت كلتاها شفتيها بجث ، وارتفع الرأسان معا ، وتوردت وجتا أُمي ، وأعادت السيدة ييكار الكتاب إلى : « أتعلم يا صديقي الصغير ، إن ذلك لا يكون جديرا بالاهتمام إلا إذا كان الإنسان صادقا ؟ » واعتقدت أنني أموت . إن خطأي ظاهر للعيان ، وكانوا يظالبون بالطفل المعجزة فكنت الطفل السامى . ولسوء حظي لم يكن لهؤلاء السيدات أحد في جبهة القتال : فقذا السمو العسكري بلا أثر على أرواحهن المعتدلة . واخفيت وذهبت ألعب وجهي أمام مرآة . وعندما أتذكر هذه التلميحات ، اليوم ، أفهم أنها كانت تكفل حمايتي من انطلاقات الشجّل الشديدة ، إذ كنت أدافع عن نفسي بمحصار عضلي فكما أنها ترفع تعاسقي إلى أقصى حدها — فإنها كانت تخلصني منها . كنت أندفع إلى الانضاع لأتقادي المهانة ، وكنت أخلع عن نفسي وسائل الفوز بإعجاب الناس لأنسى أنني كنت أملكها وأنى أسأت استخدامها ، وكانت المرأة عوننا كبيرا لي : وكنت أكلفها بأن تجربني بشناعتي ، فإن توصلت إلى ذلك كان ندمي المرير يتحول إلى شفقة . ولكن ، على الأخص ، لما كان الفشل قد كشف

لى عن دنائى ، كنت أبشع نفسى لأجعلها غير مستطاعة ، ولأنكر الناس وينكرونى . إن مهزلة الشر كانت تمثل ضد مهزلة الخير ، إن الياسان يأخذ دور كوازيمودو^(١) . وبواسطة لى ملاهى وتغنيها كنت أحلل وجهى ، أسكب عليه الجفص الكاوى لأمسح ابتساماتى القديمة .

لقد كان الدواء أسوأ من الداء : فنى المجد والعار ، حاولت أن ألتجأ إلى حقيقى المنزلة ، ولكن لم تكن لدى حقيقة ، ولم أجد عندى غير خامة غفل تحركها الدهشة . وتحت عيني كنت أرى السمكة الهلامية بجدران الحوض الزجاجى ، تصطدم برخاوة طوقها وتتمزق فى الظلمات .. وهبط الليل ، وذابت سحب من الخبر فى المرأة دافئة تجدى التهاى . ولا كنت محروما مما يثبت براءتى ، كنت أنهارك على نفسى . وفى الظلام كنت أنخيل ترددا غير محدد ، خشخشة ، نبض ، حيوانا حيا بأكملة — أكثر الحيوانات إرعابا ؛ والحيوان الوحيد الذى لا أستطيع أن أخافه . لقد هربت وذهبت لأستعيد فى الضوء دورى ، دور الملاك الذى أزيل بهائوه . عبثا . لقد علمتلى المرأة ما كنت أعرفه دائما : كنت طيعيا إلى أبعد حد . ولم أبرأ من ذلك أبدا .

لما كنت معبودا من الجميع ، مرفوضا من كل واحد منهم ، فقد كنت نافلة ولم يكن لى من معين وأنا فى السابعة سواى الذى لم يكن موجودا بعده .

(١) إحدى شخصيات رواية « أحذب نوتردام » للاديب الفرنسى فكتور هوجو . كان كوازيمودو يلقى أجراس كنيسة نوتردام . وكان على الرغم من بشاعته ذو أحاسيس سامية (المترجم) .

قصر من مرايا مهجور ، كان القرن الجديد ينظر خلالها إلى جفءه . لقد ولدت لأسد حاجى الكبيرة إلى نفسى ، ولم أكن أعرف حتى ذلك الوقت إلا غرور كلب الصالونات ، ولما كنت مدفوعا إلى الكبرياء فقد أصبحت متكبرا . ولأن أحدا من الناس لم يطالب بى جدبا ، فقد وصل بى ادعائى إلى الاعتقاد بانى ضرورى للكون . أى شىء أكثر سخامة من ذلك ؟ وأى شىء أكثر بلاهة ؟ والحقيقة أنه لم يكن لى حرية الاختيار . ولما كنت مسافرا متسللا فقد نمت على المقعد وهزنى المفتش وهو يقول لى : « تذكرتك ! » ، وكان لا بد لى أن أعترف بأننى لا أحمل تذكرة . ولا نقودا لأدفع حالا عن الرحلة . وبدأت أترافع على أساس الاعتراف بالجريمة : « كنت نسيت فى بيتى بطاقتى الشخصية . ولم أكن أتذكر كيف غافلت العامل المكلف بقب التذاكر ، ولكن اعترفت بأنى دخلت العربية بالخداع . ولم اعترض على سلطة المفتش ، بل أعلنت جهارا احترامى لوظيفته وخضوعى مقدا لقراره . وعند هذا الحد الأقصى من التذلل ، لم أكن أستطيع أن أنقذ نفسى إلا بقلب الوضع : فقد أعلنت أن أسبابا هامة وسرية استدعتنى إلى ديجون ، وهذه الأسباب تهم فرنسا وربما الانسانية كلها . وإن أخذت المسائل من هذه الزاوية الجديدة ، فإنه لن يوجد شخص فى كل القطار يكون له حق شغل مكان بقدر حقى . حقا إننا بصدد قانون أعلى يخالف القاعدة ولكن ، لو أخذ المفتش على مسؤوليته قطع رحلتى ، فإنه يسبب تعقيدات خطيرة تقع نتائجها على رأسه ؛ وتوسلت إليه أن يفكر : فهل من المعقول أن نعرض النوع كله للقوضى بحجة المحافظة على النظام فى قطار ؟ هذه هى الكبرياء : مراعاة التمساء . إن المسافرين حاملى التذاكر لهم وحدهم الحق فى أن يكونوا متواضعين . لم

أكن أعرف قط إن كنت قد رجحت دعواى . فقد لا نرم المفتش الصمت ؛
وكررت عليه الشرح ، وطالما كنت أتكلم ، كنت واثقا من أنه لن
يجبرنى على النزول وجلسنا الواحد فى مواجهة الآخر ، أهدنا ضامت
والآخر لا ينضب له معين ، فى القطار الذى يحملنا إلى ديجون .
فقد كنت القطار والمفتش والذنب : وكنت كذلك شخصا رابعا
وهذا الشخص — وهو النظم — لم تكن لديه إلا رغبة واحدة أن
يخدع نفسه ، ولو دقيقة ، أن ينسى أنه هو الذى أعد كل شيء . لقد
خدمتى التمثيلية العائلية : فقد كانوا يسموننى هبة من السماء ، كان ذلك
من أحوالنا وكنت لا أجعله ، ولما كنت متخما بالحنان ، فقد كان دمعى سهلا
وقلبى قاسيا : كنت أريد أن أصبح هدية مفيدة تبحث عن الأشخاص
الذين خصصت لهم ، لقد قدمت نفسى لفرنسا وللعالم كنت لأعبأ بالناس
ولكن بما أنه لا بد من المرور بهم ، فإن دموع فرحهم سوف تعلمنى أن
الكون يستقبلنى بفرحان الجليل . وسوف يعتقدون بأننى كثير الزهو ؛ كلا
لقد كنت يتيم الأب . ولما لم أكن ابن أحد ، فقد كنت سبى نفسه ، منتهى
الكبرياء والتعاسة ، لقد ولدت بالاندفاع الذى رفعنى إلى الخير . إن التسلسل
يبدو واضحا : لما كان حنان أمى قد أثنى ، ولما كان غياب موسى الفظ
الذى خلفنى قد مسخى ، ولما كانت عبادة جدى لى قد فتنتى ، فقد كنت
شيئا خالصا حائرا إلى أعلى مراتب المازوكية ، لو أننى استطعت فقط أن
أصدق التمثيلية العائلية . ولكن كلا ، إن هذه التمثيلية لم تكن تحركنى
إلا سطحيا ، فى حين أن القاع كان يظل باردا ، بلا مبرر ؛ لقد أربعنى
هذا النظام ، وكرهت الاغماءات السعيدة ، النسيان ، هذا الجسم الذى

بولغ في تدليله والعناية به ، لقد عثرت على نفسى وأنا أعارضها وألقيت
بنفسى فى الكبرياء والسادية ، أو بمعنى آخر فى الكرم . وهذا الكرم ،
كالخل أو العنصرية ، ليس إلا بلها معصور آليشى جروحنا الداخلية
وينتهى أمره بتسمينا : وكى أهرب من عدم عون الخلق ، فقد أعددت
نفسى لأكثر العزلات البورجوازية بعدا عن الشفاء : ألا وهى عزلة
المخالق . ولن تخلط ضربة القضيبي هذه بثورة حقيقية : فالمرء يثور على
الجلاد ولم يكن لى إلا محسنون . لقد ظلت شريكه مدة طويلة .
ومع ذلك فهم الذين أسمونى هبة العناية الإلهية : ولم أقم إلا باستخدام
الأدوات التى تحت تصرفى لأغراض أخرى .

كل ذلك حدث فى رأسى ، ولما كنت طفلا خياليا ، فقد دافعت عن
نفسى بالخيال . وعندما أرى حياتى ثانية ، من السادسة إلى التاسعة ، فانى
أعجب لاستمرار تمريناتى الروحية . لقد تغيرت كثيرا من حيث المحتوى
ولكن البرنامج لم يتغير ؛ كان دخولى خاطئا ، فانسجبت خلف حجاب
وبدأت ولادتى من جديد فى الوقت المعين فى الدقيسة نفسها التى كان
الكون يطلبنى فيها بصمت .

ولم تكن قصصى الأولى سوى إعادة : « العصفور الأزرق ، و » القطة
ذات الحذاء ، وقصص موريس بوشور . كانت تتحدث وحدها خلف
جيبى ، بين اقواس حاجبى وتجرات بعد ذلك فجملتها وأعطيت لنفسى
دورا . لقد غيرت طبيعتها ، فلم أكن أحب الجنيات ، إذ كان حولى
الكثير منها : وخلت البطولات محل السحر . وأصبحت بطلا ؛

وتركت سحرى ؛ فلم تعد مسألة ارضاء للغير ولكن مسألة فرض نفس .
لقد تخليت عن عائلى : إن كارل ماى وآن مارى أخرجوا من تخيالاتى .
ولما كنت قد شبت أشارات وأوضاع فقد قمت بأفعال حقيقية فى الحلم ..
واخترعت كونا صعبا وفانيا — كون « كرى - كرى » ، « والدهش » ،
ودبول ديفوا^(١) ، — وفى مكان الحاجة والعمل اللذين كنت أجهلهمما
وضعت الحظر . ولم أكن فى يوم من الأيام أبعد من الاعتراض على النظام
القائم : ولما كنت متأكدا من أنى أسكن خير العوالم ، فقد أعطيت نفسى
واجب تنظيفه من وحوشه ، ولما كنت شرطيا ومنفذ حكم ، فقد كنت أقدم
للتضحية كل مساء عصابة من قطاع الطرق . لم أخض قط حربا وقائية
ولا قتت بحملة تأديبية ؛ كنت أقتل بلا سرور ولا غضب لانتزع فتيات
من الموت . إن هذه المخلوقات الضعيفة كانت ضرورية لى : كانت تطلبنى ..
يبد أنها لم يكن فى استطاعتها أن تعتمد على مساعدتى لأنها لم تكن تعرفنى ..
ولكنى كنت ألقى بها إلى مخاطر شديدة لدرجة . ألا أحد كان يمكن أن
يخرجها سوى . وحين كانت الجنود الانكشارية تلوح بسيفها المقوسة ،
كان أنين يتردد فى الصحراء وكانت الصخور تقول للرمل : « إن شخصا
ينقصنا هنا : إنه سارتر . » وفى لحظة كنت أبعد الحاجز وكنت أطير
الرؤوس تحت ضربات السيف ، كنت أولد فى بحر من دم . إنها سعادة
من الصلب ! لقد كنت فى مكانى .

كنت أولد لأموت : وكانت الطفلة بعد انقازها ترتعى فى أحضان

(١) أسماء أبطال قصص الأطفال التى كان المؤلف يقرأها فى مجلات الأطفال وكتبهم
(المترجم)

أتتبعها الأمير الألماني ، وكنت أبتعد ، فكان لابد أن أصبح بلا فائدة من
 جديد أو أن أبحث عن سفاحين جدد . وكنت أجدهم . ولا كنت بطل
 النظام القائم ، فقد وضعت سبب وجودي في فوضى دأمة ؛ كنت أخنق
 الشر في ذراعي ، كنت أموت موته وأبعث بعثه ، لقد كنت فوضوايمانيا .
 ولم يتسرب شيء من هذه الأعمال العنيفة الطيبة ، فقد ظلت خدوما وذا
 غيره : فالرء لا يفقد بسهولة عادة الفضيلة ؛ ولكن ، كنت أنتظر كل
 مساء ، بفارغ صبر نهاية المزاح اليومي ، كنت أجزى إلى سريري ، وأتلو
 صلاتي بسرعة وأدخل بين أعطيتي ، فقد كنت متشوقا للقاء جراتي
 الجنونية . وكنت أشيخ في الظلمات ، وأصبحت بالغا وحيدا ، بدون أب
 وبدون أم ، بلا نار ولا مكان ، وأكاد أكون بلا اسم . كنت أمشي على
 سطح مشتعل ، حاملا على ذراعي امرأة مغنى عليها ؛ ومن تحتي كان
 الجمهور يصرخ : كان واضحاً أن العبادة ستنتهار . وفي هذه اللحظة أنطق
 الكلمات القدريّة : — البقية في العدد القادم ، — وكانت أمي تسألني
 : ماذا تقول ؟ ، وكنت أجيبها بحذر : « إني أترك نفسي معلقا . » والواقع
 أنني كنت أنام وسط الأخطار في لا أمان لذيد . ومساء الغد ، أمينا على
 الموعد ، كنت أجد سطحي واليران وموتاً أكيدا . ونجاة كنت ألح
 مزرابا لم أكن قد لاحظته البارحة . لقد أتقننا يا إلهي ! ولكن كيف
 أعلق فيه دون أن أترك حملي العالي ؟ ولحسن الحظ تسترجع المرأة الشابة
 حواسها وأحملها على ظهري وتشبك ذراعيها حول عنقي . ولكن كلا ،
 فبعد تفكير أقفدتها وعيها من جديد : فمهما يضال نصيبها في عملية إقازها
 فإن ذلك سوف يقلل من فضلي . ولحسن الحظ ، كان هناك هذا الجبل

عند قدمي : فربطت الضحية بمنقذها ربطاً محكمًا ، ولم يكن الباقي شيئاً يذكر . واحتضني السادة — العدة ورئيس الشرطة ورئيس المطافي — وقبلوني وأعطوني نيشانا وفقدت ثقتي بنفسي ، فلم أعد أعرف ما أفعله . بنفسى : إن عناق هذه الشخصيات الكبيرة كان يشبه كثيراً عناق جدى . ومسحت كل شيء وبدأت من جديد : كان الوقت ليلاً وقتاً تطلب النجدة وألقيت بنفسى فى المعركة . . « البقية فى العدد القادم » . كنت أخطر بحياتى للخطة السامية التى تحول حيواناً أوجده الحظ إلى مار بعته العناية الإلهية ، ولكن كنت أشعر بأننى لن أعيش بعد انتصارى وكنت سعيداً كل السعادة بأن أؤجل هذا الانتصار إلى العد .

ومن الغريب أن يجد المرء أحلام المغامرة هذه عند تلميذ صغير معد لوظيفة كتابية ؟ إن قلق الطفولة هو قلق ميتافيزيقى ، ولتهدئته لا حاجة أبداً لإسالة الدماء . وهل لا تخبت فى يوم من الأيام أن أكون طبيباً بطلاً وأن أنقذ مواطناً من الطاعون الدملى أو من الكوليرا ؟ إنى اعترف بأن ذلك لم يحدث قط . ومع ذلك فلم أكن لا مقترناً ولا حرياً ، وليس ذنبى أن يجعلنى هذا القرن الطالع ملحمياً . إن فرنسا المهزومة كانت ممتلئة بابطال خياليين تضمد مفاخرهم عزة نفسها . وقبل مولدى بثمانى سنين « انفجر سيرانودى براجيراك^(١) كوسيقى السراويل الحمراء النحاسية ، وبعد ذلك بقليل لم يكن على مسرحية « الذسر الصغير^(٢) » ، الفخور ، الجريح إلا أن

(١) مسرحية شعرية من خمسة فصول لأدمون روستان . نلت فى سنة ١٨٩٧

(الترجمة)

(٢) دراما شعرية من ستة فصول لأدمون روستان . قدمت سنة ١٩٠٠

تظهر لتمحو عار فاشوده ^(١) . وفي سنة ١٩١٢ كنت أجهل كل شيء عن هذه الشخصيات الكبيرة ، ولكنى كنت على علاقة دائمة مع خلفائهم : كنت أعبد سيرانو دى لاجر وأرسين لوبان ^(٢) ، دون أن أعرف أنه مدين بقوته الحارقة وشجاعته الحبيثة وذكائه الفرنسى الأصيل لهزيمة فى سنة ١٨٧٠ . إن الاعتدائية القومية وروح الأخذ بالتأثر حولت جميع الأطفال إلى متقممين . وأصبحت متقما كالكل : ولما كانت السخرية والمجد ، هذان العيان غير المحتملين عند المهزومين قد أغريانى ، فكنت أسخر من رجال السوء قبل أن أحطمهم . ولكن الحروب كانت تضايقنى ، فقد كنت أحب الألمان اللطاف الذين كانوا يترددون على منزل جدى ، ولم أكن أهتم إلا بالظلم الخاص ، وفى قلبى المجرد من الكراهية تحولت القوي الجماعية : فقد كنت استخدمها فى تغذية بطولى الفردية . ولكن هذا لا يهم ، لقد وسمت ، وإن كنت قد أترفت فى قرن من حديد الغلطة الجنونية بأن آخذ الحياة على أنها ملحمة فذلك لأنى حفيد الهزيمة . ولما كنت ماديا عن اقتناع ، فإن مثالى الملمحة سوف تعوض حتى موتى إهانة لم تتلى وعارا لم أتألم منه ، ألا وهو فقد مقاطعتين عادتا إلينا منذ زمن طويل .

إن بورجوازي القرن الماضى لم ينسوا قط أمسياتهم الأولى التى قضوها

(١) مدينة فى السودان واقعة على النيل بالقرب من بحر الغزال. احتلتها حملة فرنسية بقيادة مرشان ١٨٩٨ ولكنه اضطر إلى تركها للانجليز بقيادة كيتشر (الترجم)

(٢) بطل القصة البوليسية .

في المسرح وقد تولى كتابهم رواية ظروفها . وعندما ارتفع الستار خال الأطفال أنفسهم في البلاط . فإن الذهب والأقمشة الأرجوانية والأضواء والساحيق والفخخة والحيل كانت تضع القداسة حتى في الجريمة ؛ وعلى المسرح رأوا طبقة النبلاء التي أتلها أجدادهم تبعث حية ، وفي الاستراحات كان وضع النظارة بعضهم فوق بعض يقدم لهم صورة المجتمع ، لقد أروهم في المقاصير أكتافا عارية ونبلاء على قيد الحياة . وعادوا إلى بيوتهم مشدوهين متخاذلين ، وقد أعدوا عكر لأقذار عظيمة ، لأن يصبحوا جول فافر " وجول فرى " وجول جريني " ٣ . إني أتحدى معاصري أن يذكروا لي تاريخ التقائهم الأول بالسينما . كنا ندخل تمحسا في قرن بلا تقاليد كان سيختلف اختلافا كبيرا عن القرون الأخرى بسوء سلوكه وبالفن الجديد ، الفن العامي الذي صور لنا بربريتنا مقدما . لقد ولد في مغارة لصوص ووضعت الإدارة الحكومية في عداد ملاهي الموالد وهو يتوسل بطرق سوقية كانت تؤلم شعور الأشخاص الوقورين ، كان تسليية النساء والأطفال ، كنا نعبه أنا وأمي ، ولكننا قلما تفكر فيه ولم نكن

(١) محام وسياسي فرنسي ، ولد في ليون ١٨٠٩ وتوفي في سنة ١٨٨٨ . اقترح في سنة ١٨٧٠ خلع نابليون الثالث عن العرش . كان عضوا في حكومة الدفاع الوطني واشترك في المفاوضات التي سبقت معاهدة فرانكفورت (المترجم) .

(٢) أحد رجال لدولة الفرنسيين . ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٨٩٣ . اشترك في إعادة تنظيم التعليم الابتدائي وتوسع فرنسا الاستعماري باحتلال تونس وتوكن وإقامة القوات الفرنسية في الكونغو (برازافيل) . (المترجم) .

(٣) محام وسياسي فرنسي ولد في ١٨٠٧ وتوفي في ١٨٩١ . رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٨٧٩ إلى ١٨٨٧ . (المترجم) .

شكلم عنه قط : فهل يتكلم الناس عن الحزن إن كان غير ناقص ؟ وعندما لاحظنا وجوده كان قد أصبح حاجتنا الأساسية منذ وقت طويل .

وفي الأيام المطرة ، كانت آن ماري تسألني عما أغنى عمله ، وكنا نتردد طويلاً بين السرك والشاطيه^(١) والبيت الكهربي^(٢) ومتحف جريفان^(٣) . وفي آخر لحظة وبإهمال محسوب تقرر دخول قاعة عرض سينمائي . وكان جدى يظهر يباب مكتبه حينما تفتح باب الشقة ؛ وكان يسأل : إلى أين أنتم ذاهبون يا أولاد ؟ — وكانت أمى تجيب : إلى السينما . فيقطب حاجبيه ويتسرع أمى بالاضافة : إلى سينما الباتيون ، إنها قرية جداً ليس أمامنا إلا عبور شارع سوفلو . ، وكان يتركنا نذهب وهو يرفع كتفيه ؛ وفي الخميس التالي كان يقول للسيد سيمونو : قل لى ياسيمونو ، أنت الرجل الرزين ، هل تفهم هذا ؟ إن ابنتى تصعب حفيدى إلى السينما ، وكان السيد سيمونو يقول بلهجة المتساهل : إني لم أذهب قط إلى السينما ولكن زوجتى تذهب أحيانا .

وكان العرض قد بدأ . كنا نتبع العاملة المكلفة باجلاس النظارة فى أماكنهم ونحن نعتز ، كنت أشعر بأنى أعمل فى الحفاء ؛ وفوق رؤوسنا كانت حزمة من الضوء الأبيض تحتاز القاعة ، وكان يتراقص فيها الفبار والدخان ؛ وكان يبانو محمحم وكثرى بنفسجية تلمع على الحائط ، وكانت رائحة مطهر مطلية تمسك بخناقى . وكانت رائحة هذه الليلة

(١) يقصد مسرح الشاطيه (المترجم) .

(٢) متحف الشمع (المترجم) .

المسكونة وثمارها تحتلط في : كنت آكل مصاييح النجدة وأملأ نفسي بطعمها الحضي . كنت أحك ظهري على ركب ، وكنت أجلس على مقعد ذي صرير وكانت أمي تضع غطاء مطويا تحت التي لترفعني ، وأخيرا كنت أنظر إلى الشاشة ، وكنت اكتشف طباشيرا مشعا بالضوء ، ومناظر متواترة الطرف ، مخططة بوابل من الأمطار ؛ كان المطر يهطل دأما حتى في الشمس الواضحة وحتى في الشفق ؛ ويحدث أن نيزكا مشتلا يمتاز خجرة استقبال بارونة دون أن تبدى تعجبها . كنت أحب هذا المطر ، هذا القلق الدائب الذي كان يشكل الحائط . وكان عازف البيانو يستهل افتتاحية ، كهوف فأنجال ، وكان الجميع يفهم أن المجرم سيظهر : وجنت البارونة خوفا . ولكن وجهها الجميل الفاحم كان يترك مكانه لإعلان بنفسجي مكتوب عليه : « نهاية الجزء الأول » . كان الضوء هو التطهير الفجائي . أين كنت ؟ هل كنت في مدرسة ؟ هل كنت في إدارة حكومية لم يكن هناك أية زخرفة : صفوف من الكراسي ذات القواعد المتحركة يظهر لولبها من تحتها ، وجدران مدهونة كما اتفق باللون الأصفر الباهت ، وأرضية من الحشب مغطاة بأعقاب السجائر والبصاق . ويملا القاعة ضجيج كفيف ، إنهم يحترعون اللغة من جديد ، وكانت العاملة المكلفة بإجلال النظارة تنادي على الملبس الإنجليزي وكانت أمي تشتري لي منه ، وكنت أضعه في فمي وأمص مصاييح النجدة . وكان الناس يفركون عيونهم وكان كل واحد يكتشف جيرانه . فكان هناك جنود وخادmates الحى ؛ وعجوز تبرز عظامه يعضع التبغ وعاملات بشعورهن المكشوفة يضحكن بأعلى صوت : إن هذا العالم كله لم يكن من عالمنا ؛ ولحسن الحظ

كانت قبمات كبيرة خائفة موضوعة هنا وهناك على هذه الأرضية من الرؤوس.
تطمئن النفس .

إن التدرج الاجتماعى للمسرح غرس فى المرحوم والذى وجدى ،
معتادى الجالوس فى الشرفة الثانية ، حب الاحتفالات : وعندما يكون
عدد كبير من الناس معا ، يجب فصلهم بعضهم عن بعض بطقوس وإلا
ذبحوا بعضهم بعضا وأثبتت السينما العكس : فإن هذا الجمهور المختلط يبدو
أن كارثة جمعه بدلا من عيد ؛ ويموت قواعد الآداب انكشف أخيرا رباط
الناس الحقيقى ، ألا وهو الالتحام . وكرهت الاحتفالات وعبدت الجماهير ؛
لقد رأيت جميع أشكالها ولكنى لم أعد إلى الالتقاء بهذا العرى . . . هذا
الحضور دون تراجع ، من كل فرد نحو الجميع . . هذا الحلم اليقظ . . .
هذا الوعي العام لخطر كوننا أناساً - إلا فى سنة ١٩٤٠ فى ستالاج^(١)

١٢ د .

وتجاسرت أسمى إلى حد مصاحبى إلى دور السينما فى الشوارع الرئيسية :
إلى الكينيراما ، والفولى دراماتيك ، والفودفيل والجومون بالاس، وكان
يسمى آتشد بالهيودروم ورأيت زيجومار وفانتوماس ، ومغامرات ماستر
وأسرار نيويورك : ولكن طلاءات الذهب كانت تفسد لذتى . ولم يكن
الفودفيل - ذلك المسرح الذى تحول إلى سينما - يريد أن يتنازل عن
عظمته السالفة . وحتى آخر دقيقة كانت ستارة حمراء بطرر ذهبية تغطى

(١) معسكر خصصه الألمان فى الحرب العالمية الثانية لصف الضباط والجنود .

(المترجم) .

الشاشة ، وكانوا يدقون ثلاث دقات ليعلموا بداية العرض ، وكانت الفرقة الموسيقية تعزف افتتاحية ، وكان الستار يرتفع والمصاييح تنطفئ . وكنت أتضايق من هذا الاحتفال غير اللائق ، وهذه الأبهة المعبرة ، اللذين لم يكن لهما من نتيجة إلا إبعاد الأشخاص ؛ ففي الشرفة وفي أعلى السرح ، كان آباؤنا اللندeshون بالثريات وبصور السقف ، لا يستطيعون ولا يريدون أن يصدقوا أن السرح ملكهم ، وإنما كانوا يقبلون فيه . أما أنا ، فكنت أريد أن أرى الفيلم من أقرب ما يمكن . ففي قلة الراحة التي تسوى بين الجميع في دور السينما التي في الأحياء ، علمت أن هذا الفن الجديد لي كما هو للجميع . كنا في السن العقلي نفسه : كنت في السابعة وأعرف القراءة وكان في الثانية عشرة ولا يعرف الكلام . وكانوا يقولون إنه في أوائله وأن هناك تقدما سوف يحققه ؛ وكنت أعتقد أننا سنكبر معا . لم أنس طفولتنا المشتركة : حين يقدمون لي ملبسة ، إنجليزية وحين تقوم امرأة بالقرب مني بتلميع أظافرهما ، وعندما استنشق — في مراحيض فندق من فنادق الأقاليم — رائحة مطهر ، وفي قطار من قطارات الليل حين أنظر في السقف إلى السهارة النفسجية — فإنني أجده في عيني وفي خياشيمي وعلى لساني أضواء ورائحة هذه القاعات التي اختفت . ومنذ أربع سنوات سمعت وأنا في البحر عند كهوف « فنجال » صوت ينانو يعلو وسط الريح ، في جو عاصف .

ولما كانت القداسة لا تجده إلى سبيلها إلى فقد عبدت السحر : فالسينما كانت ظاهرة مزية كنت أحباها حباً فاسداً بسبب ما كان لا يزال ينقصها . إن هذا السيلان كان كل شيء .. ولم يكن شيئا . . كان كل شيء محولا

إلى عدم . كنت أحضر هذيان حائط كبير ؛ لقد خلصوا الجوامد من ضخامة كانت تزحمني حتى في جسمي ، وكانت مثاليق الشابة تفرح بهذا التقلص اللانهائي ؛ وفيما بعد ، فإن ثقلات الثلثات ودورانها ذكراني إنزلاق الأشكال على الشاشة . لقد أحبت السينما حتى في الهندسة المسطحة . ومن الأسود والأبيض كنت أصنع ألوانا سامية كانت تختصر في داخلها سائر الألوان الأخرى ، ولم تكن تكشف عنها إلا للتصل . كنت سعيداً برؤية اللامرئي . وفوق كل ذلك كنت أحب بكم أبطالي الذي لا علاج له . ولكن لا : لم يكونوا بكما لأنهم كانوا يعرفون كيف يحملون الناس يفهمونهم . كنا نتصل عن طريق الموسيقى ، صوت حياتهم الداخلية . إن البراءة المضطهدة كانت تفعل خيرا مما تقول أو مما تظهر من ألم . إنها كانت تشبعني به بواسطة تلك الأنعام التي تبعث منها . كنت أقرأ الأحاديث ، ولكنني كنت أسمع الأمل والمرارة . كنت أفاجيء بأذني الألم المتكبر الذي لا ينكشف . كنت محرجا ؛ لم أكن أنا ، تلك الأرملة الشابة التي كانت تبكي على الشاشة — ومع ذلك لم يكن لدينا أنا وهي إلا روح واحدة ، هي اللحن الجنازى لشوبان . لم تكن ثمة حاجة إلى أكثر من ذلك كي يئلل بكاؤها عيني . كنت أشعر بأنني نبي دون أن أستطيع التنبؤ بشيء ؛ وحتى قبل أن يخون الحائن ، كان جرمه يدخل في ؛ وحين كان يبدو كل شيء هادئا في القصر ، كانت أنعام مشثومة تملن عن وجود القاتل . وكما كانوا سعداء رعاة البقر هؤلاء ، وأوثك الفرسان والشرطي : إن مستقبلهم كان هناك ، في هذه الموسيقى المخذرة وكان هذا المستقبل يحكم الحاضر . إن غناء غير منقطع كان يحتل بمحباتهم .

ويجرحهم نحو النصر أو نحو الموت كلما تقدم نحو نهايته . وكان في انتظارهم
 الفتاة التي في خطر ، واللواء ، والحاتن الذي يترصد في الغابة ، والزميل
 المقيد بالقرب من برميل بارود وهو ينظر بحزن إلى اللهب الذي يعدو
 في القتل . إن عدو هذا اللهب ، وكفاح العذراء المستميت ضد مخنطفها ،
 وركض البطل وسط الأحرار ، وتقابل كل هذه الصور وكل هذه
 السرعات ، وفوق كل ذلك الحركة الجهنمية « للسباق إلى الهاوية »
 وهو تلك القطعة الأوركسترالية المأخوذة من أوبرا « لئنة فوست » والمقتبسة
 لليانو . — كل ذلك لم يكن إلا واحداً : ألا وهو « القدر » . كان البطل
 يترجل ويطفئ القنبلة ، ويلقي الحائن بنفسه عليه وتبدأ مبارزة بالسكاكين ،
 ولكن مصادفات هذه المبارزة كانت تشترك بنفسها في شدة التطور الموسيقي :
 كانت مصادفات مزورة لا تسكاد تخفي النظام الكوني ، ويا للفرح حين
 توافق آخر طعنة سكين آخر نغمة في اللحن ! كنت أسعد ما يكون ، لقد
 وجدت العالم الذي أريد أن أعيش فيه ، ولست المطلق . ويا للضائقة
 كذلك حين يعاد إضاعة المصايح : لقد تحرقت جبال هؤلاء الأشخاص وقد
 اختفوا حاملين عالمهم معهم ؛ لقد شعرت بانتصارهم في عظامي ، ومع ذلك
 فقد كان انتصارهم هم لا انتصاري . وفي الشارع ، كنت أجد نفسي زائداً
 عن العدد .

وقررت أن أقصد القدرة على الكلام . وأن أعيش في الموسيقى .
 وكانت لدى هذه الفرصة في كل مساء حوالي الساعة الخامسة . كان
 جدي يعطى دروسه في معهد اللغات الحية ؛ وكانت جدتي تنسحب إلى

حجرتها وتقرأ شيئا من (جيب)^(١)؛ وكانت أحي قد أعطتني أكلة العصر وأخذت في إعداد العشاء وإعطاء الخادمة آخر النصائح؛ فكانت تجلس إلى البيانو وتعزف قصائد شوبان وسوناتا شومان والمنوعات السيمفونية لفرانك وأحيانا — بناء على طلبي — كانت تعزف افتتاحية د. كهوف فجال . . كنت أنساب إلى المكتب؛ وكان الظلام قد ساد، وعلى البيانو شمعتان تحترقان . وكان الضوء الخافت يخدمني ، كنت أمسك بمسطرة جدي . وكانت سيفي الطويل ، وقاطعة ورقة وكانت خنجرى . وكنت أنحول في الحال إلى صورة مسطحة لفارس . وكان الوحي يتأخر أحيانا وكسبا للوقت كنت أقرر — أنا الذى اشتهرت مبارزا بالسيف — أن مسألة هامة تضطرنى إلى إخفاء شخصيتى ! وكان يجب على أن أتلقي الطمنات دون أن أرددها ، وأن أضع شعاعتى في التظاهر بالجبن . كنت أدور في الحجرة مهدداً بعينى ، خافضا رأسى ، جارا قدمى؛ كنت أعبر برجفة بين آن وآخر بأثنى صفعت أو أثنى رككت في مؤخرتى ، ولكنى كنت حريصا على عدم الرد . كنت أسجل اسم من يهيننى . وأخيراً كانت تعمل الموسيقى التى أتناولها بجرعات كبيرة ، وكطبلة زنجية ، كان البيانو يمرض على إيقاعه . وكان الخيال المرتجل يحل محل روحى ، كان يسكننى ويمطينى ماضيا مجهولا ، ومستقبلا لامعا ومبميا . كنت ممسوسا . . . كان الشيطان قد أمسك بى وهزنى كشجرة البرقوق . وعلى جوادى كنت أجتاز بسرعة عظيمة أراض بور وأراض محروثة ،

(١) اسم أدبى مستعار للكاتبة الفرنسية سيبيل جابريل مارى أثنوانيت خفيدة

والمكتب من الباب إلى النافذة !! وكانت أمى تقول لى دون أن تكف
 عن العزف « إنك كثير الضوضاء ، إن الجيران سوف يشتكون ، .
 ولم أكن أجيها بما أننى كنت أبكا . وألح الدوق وأرجل وأعلمه بحركات
 صامتة من شفتى أننى اعتبره هجينا . فيثير على جنوده المرتزة ، ولكن
 ضربات سيفى تقف سداً من الصلب أمامى . ومن وقت لآخر كنت
 أظن صدرا طمئة نافذة . وفى الحال كنت أدور على عقيبى وأصبح المساييف
 الطعون ، وكنت أسقط وأموت على السجادة ، ثم أنسحب فى الحفاء من
 الجثة وأنفض واقفا وأستيد دور الفارس الجوال ، وكنت أحرك كل
 الأشخاص : فارساً ، كنت أصفع الدوق وأدور على تقى ؛ ودوقا كنت
 أتلقي الصفعة . ولكنى لم أكن أتجسد الأشرار طويلا ، فقد كنت
 دائماً أتعجل العودة إلى الدور الأول الكبير ... إلى تقى . ولما كنت
 لا أقهر ، فقد كنت انتصر على الجميع . ولكن ، كما فى حكاياتى الليلية كنت
 أوجل انتصارى إلى ما لانهاية ، لأننى كنت أخاف من الركود الذى سوف
 يتبعه .

إنى أحمى كوتيسة شابة من شقيق الملك : يالها من مجزرة اولكن
 أمى أدارت الصفحة ؛ وها هو ذا اللحن السريع الفرح يترك مكانه للحن
 بطيء خنون ؛ فأنهى المذبحة بسرعة ، وأبتسم للسيدة التى فى حمايتى .
 هى تحبني ؛ إن الموسيقى هى التى تقول ذلك . وأنا أيضا قد أكون أحييتها :
 إن قلبا محبا وبطيئا يستقر فى . ما الذى يفعله الإنسان حين يحب ؟ لقد
 أخذتها من ذراعها وزهتها فى مرج : ولكن هذا لا يمكن أن يكفى .
 ودعا قطاع الطرق والمرتزة على عجل فأخرجونى من ورطتى : لقد

هجموا علينا ، مائة ضد واحد ؛ فقتلت تسعين واختطف العشرة الباقون
السكوتية .

حان وقت دخولي في سنوأتى التمس : إن المرأة التى تحببى أسيرة ،
وجميع شرطة المملكة يجدون فى أثرى ، فأنا خارج على القانون ، ومطاردة
وتمس . لم يبق لى سوى ضميرى وسيفى . كنت أذرع المكتب وقد بدا على
الإنهاك ، كنت أملاً نفسى بحزن شويان الحار . وأحياناً كنت أقلب
صفحات حياتى ، وكنت أتجاوز سنتين أو ثلاث سنوات لا تأكد من أن
كل شئ سينتهى على خير وجه ، وأن ألقابى وأراضى ستعادلنى . وكذلك
خطيئى التى لم يلمسها أحد تقريباً ، وأن الملك سوف يطلب منى اندفع .
ولكنى كنت أتفرز فى الحال إلى الحلف وأعود لأستقر — قبل ذلك
بسنتين أو ثلاث سنوات — فى التماس . كانت هذه اللحظة تسحرنى ،
كان الخيال يحتل بالحقبة . وفى تشردى وحزنى الشديد ، سعى وراء
العدالة ، كنت أشبه شها حمية طفلاً متسكماً لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ،
يبحث عن سبب لحياته ، ويظوف على تقعات الموسيقى فى مكتب جده .
ودون أن أترك الدور ، كنت أستفيد من الشبه لأمزج بين مصرينا . ولما
كنت متأكداً من النصر الأخير فقد كنت أرى فى هذه الضجة طريقي
المأمون للوصول إليه . وخلال زلنى كنت ألح مجد المستقبل الذى كان سببها
الحقيقى . إن سوناتا شومان تنتهى باقتناعى بأنى كنت الخلق الذى يأس ،
وكنتم الله الذى أنهذه منذ بداية العالم . يا للفرح أن نستطيع أن نأسف
صورياً ! كان من حق أن أظهر استيائى للكون . ولما كنت تعباً من
التجاح البالغ السهولة ، فقد كنت أستطيب لذة الحزن ، ومرارة سرور

الحقد . ولما كنت هدفا لأحبي الأنياب وكنت متخما وبلا رغبات ، كنت اندفع في إملاق خيالي . إن ثمانى سنوات من السعادة لم تؤد إلا لأن تفت في نفسي حب الاستشهاد . كنت أحل محل قضائي العاديين الميالين كلهم لمحباتي . محكمة عبوسة مستعدة لإدانتني دون أن تسمعي . لسوف أترزع منها البراءة والتهاني ومكافأة مثالية . كنت قرأت عشرين مرة بشغف قصة جريزيليديس^(١) ، ولكنني لم أكن أحب التألم ، ورغباتي الأولى كانت قاسية إن المدافع عن هذا العدد من الأميرات لم يكن يتضابق من أن يضرب على الاليتين في الخيال جارتها الصغيرة التي تسكن في الطابق نفسه . إن ما كان يعجبني في هذه القصة التي لا تستحق الكثير من الاهتمام ، هو سادية الضحية وهذه الفضيلة الدابة التي تؤدي إلى أن تلقى بالزوج الجلاد جاثيا . ذلك ما كنت أريده لفسى : أن أقسر القضاة على الركوع وأن أجبرهم على احتراي لأعاقبهم على موقفهم المسبق مني . ولكنني كنت أؤجل البراءة كل يوم إلى الغد ؛ ولما كنت دائما بطل المستقبل ، فقد كنت أتمرق شوقا لتثبيت كنت أؤجله باستمرار .

إن هذا الحزن المزدوج ، الذي كنت أحس به وألعبه ، أعتقد أنه كان يترجم خيبة أمل . إن ما أثرى الموضوع ، الواحدة في طرف الأخرى ، لم تسكن إلا مسبحة من الصدق ؛ وحين كانت أحي تضرب آخر نغمات والخيال المرتجل ، كنت أعود إلى الزمن ، بدون ذاكرة اليتامى المحرومين من

(١) بطلة أسطورة مؤثرة هي نموذج الفضائل الزوجية . ويقال إن هذه السيدة عاشت في القرن الحادى عشر . وقد استوحى قصتها بزارك وبوكاشيويويرو . (الترجم) .

الآب ، والفرسان الهائمين المحرومين من اليتامى ؛ سواء كنت بطلا أو تلميذا ، كاتباً ومعيداً نفس تمرينات الاملاء ، ونفس المآثر ، كنت أظل محبوساً في هذه الزنزانة : ألا وهي التكرار . ولكن المستقبل كان موجوداً ، لقد كشفتني السينما ؛ كنت أحلم بأن لي مصيراً . إن استياءات جريلدس أنجرتني آخر الأمر : عشنا بذلك جهدي في تأجيل لحظة تعجدي التاريخية إلى مالا نهاية ، إنى لم أكن أجعل منها مستقبلاً حقيقياً ... لم تكن إلا حاضراً مؤجلاً .

وفي حوالى تلك الفترة - ١٩١٢ أو ١٩١٣ - قرأت رواية « ميشيل ستروجوف » . لقد بكيت من الفرح : يالها من حياة مثالية ؛ ولكي يظهر هذا الضابط شجاعته لم يكن في حاجة لأن ينتظر إرادة قطاع الطرق المطلقة . إن أمراً من أعلى قد استله من الظلام . لقد كان يعيش ليطيع ويموت من نصره ؛ ذلك أن هذا المجد كان موتاً . وعند إدارة آخر صفحة من الكتاب ، كان ميشيل يحبس نفسه حياً في تابوته الصغير المذهب الأطراف . لا وجود لأدنى قلق ... لقد كان مبرراً منذ أول ظهوره ، ولا لأقل صدفة . حقيقة إنه كان يتنقل باستمرار ، ولكن مصالح عظيمة ، وشجاعته ، وتيقظ العدو وطبيعة الأرض ، ووسائل الاتصال ، وعشرين عاملاً آخر أعطيت كلها مقدماً -- كانت تتيح في كل لحظة أن يتعدد مكانه على الخريطة . ليس هناك تكرار : كل شيء كان يتغير ، وكان لا بد أن يتغير بلا انقطاع . إن مستقبله كان يضيئه ، وكان يستدل بنجم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر قرأت هذه الرواية بالشعور نفسه ؛ غير أنى لم أكن أحب ميشيل ، كنت أجده مسرفاً في التعتل ... كنت أحده على

مصره . كنت أعبد فيه المسيح الذى حالوا بينى وبين أن أكونه . إن
 قيصر روسيا كله ، كان الله الأب ؛ ولما كان ميشيل قد خلق من العدم
 بمرسوم غريب ، ولما كان مكلفا مثل كل المخلوقات برسالة وحيدة ورئيسية ،
 فقد عبر وأديننا الله بالدموع مبعدا الغريات ومجتازا العوائق ، وأحب
 الاستشهاد واستفاد من إحدى المعجزات ^(١) ، ومجد خالقه ، ثم فى نهاية عمله
 دخل الخلود . كان هذا الكتاب سما بالنسبة لى : يوجد إذن مختارون ؟
 إن أعلى المطالب ترسم لهم الطريق ؟ كنت أكره القساسة ، ولكنها
 سحرتنى عند ميشيل ستروجوف لأنها اتخذت مظاهر البطولة .

ومع ذلك فإنى لم أغير شيئا من إيماءاتى ، وفكرة الرسالة ظلت فى
 الهواء كالصبح المانع الذى لا يتمكن من أن يتجسد ، والذى لا أستطيع
 التخلص منه . يد أن الشخصيات الثانوية وملوك فرنسا كانوا تحت
 أوامرى ، وكانوا ينتظرون الإشارة ليعطونى أوامرهم . ولم أعطيهم إياها .
 فإن كانت المخاطرة بالحياة عن طاعة فماذا يصبح الكرم ؟ وكان مارسيل دونو
 الملاكم ذو القبضتين الحديديتين يدهشنى كل أسبوع بأدائه فى سماحة .
 ما هو أكثر من واجبه ؛ وأما ميشيل ستروجوف الكفيف الغطى
 بالقروح الحديدة ، فبالكاد كان يستطيع أن يقول إنه أذى واجبه كنت
 أعجب بشجاعته وأنكر خشوعه . إن هذا الشجاع لم يكن فوق رأسه إلا
 السماء ؛ فلم كان ينحنى أما القيصر ، بينما كان على القيصر أن يقبل
 قدميه ؛ ولكن ، ما لم ننحن ، فمن أين يمكن أن نأخذ التصريح بالحياة ؟
 إن هذا التناقض أوقعنى فى جيرة عميقة . حاولت أحيانا أن ألفت حول

الصبوبة : ولما كنت طفلاً مجهولاً فقد كنت أسمعهم يتكلمون عن رسالة خطيرة ، فذهبت لألقى بنفسى عند قدمى الملك ، ورجوته أن يمهّد لى بها ، ولكنه رفض . لقد كنت صغيراً جداً ، والسألة غاية فى الخطورة . ونهضت وتحديت للبارزة وهزمت بسرعة كل ضباطه . وسلم الملك بالواقع : « إذهب إذن ، ما دامت هذه ارادتك ! » ولكنى لم أكن لأنخدع بحيلتى ، ولا حظت جيداً أننى فرضت نفسى . ثم إنى كنت أتعزّز من هؤلاء القروء جميعاً : كنت ثائراً وقاتلاً للملك ، لقد حذرنى جدى من الطغاة سواء دعوا لوليس السادس عشر أو بادانجيه . خاصة وأننى كنت أقرأ كل يوم فى صحيفة اللاتان سلسلة ميشيل زيفاكو : هذا المؤلف المبقرى ابتكر — بتأثير هوجو — رواية المغامرات الجمهورية . إن أبطاله يمثلون الشعب ، إنهم يصنعون الامبراطوريات ويحطمونها ، ويتنبأون منذ القرن الرابع عشر بالثورة الفرنسية ويحمون بطيية قلوبهم ملوكاً أطفالاً أو ملوكاً مجانين من وزراءهم ، ويصفعون الملوك الأشرار . وأعظمهم جميعاً ، باردايان ، كان معلمى ! ولأقلّده ، كنت أرتكز بتكبر على ساقى النحيلتين وقد صفعت مائة مرة هنرى الثالث ولويس الثالث عشر . هل أذهب بعد ذلك لأضع نفسى تحت إمرتهم ؟ وبكلمة واحدة خافى لم أكن أستطيع أن أسحب من نفسى الأمر الذى يرر وجودى على هذه الأرض ، ولا أن أعترف لأحد بحق تسليمه لى . واستأنفت جولاتى بتراخ على ظهر جوادى وضعت فى المعرك . ولما كنت ذباحاً ذاهلاً ، وشهيداً بليداً ، فقد ظلت جريزليديس لعدم وجود قيصر أو إله أو أب على الأقل .

كنت أعيش حياتين كلاهما كاذبتان : كنت مخادعا أمام الناس . الحفيد المعروف شارل شفايتزر المشهور ، وكنت أغوص وحدي في عبوس خيالي . لقد صممت مجدي الكاذب بتخف كاذب . ولم يكن يصعب على قط أن انتقل من دور إلى آخر . وفي اللحظة التي كنت سأندفع بمخدائي السري ، دار المفتاح في القفل ، وثلث فجأة يداي وجمدت على مفاتيح البيانو ، ووضعت المسطرة في المكتبة ، وذهبت لألقي بنفسي بين ذراعي جدي ، ودفعت كرسيه إلى الأمام وأحضرت له خفه المبطن بالفراء ، وسألته عن يومه ، ذاكرًا تلاميذه بأسمائهم . ومها يكن عمق حلمي فأني لم أتعرض قط لخطر التيه فيه . ومع ذلك ، فقد كنت مهددًا : إن حقيقتي كانت تخاطر كثيرا بتبادلها حتى النهاية مع أ كاذبي .

وكانت هناك حقيقة أخرى . فعلى شرفات حديقة اللوكسمبورج ، كان أطفال ياعبون ، وكنت أقرب منهم ، وكانوا يحفون بي دون أن ينظروا إلي ، كنت أنظر إليهم بعيون الفقير : كم كانوا أقوياء وسريعيين ! كم كانوا ملاحا ! وأمام هؤلاء الأبطال من لحم وعظم ، كنت أفقد ذكائي العجيب وعلمي الواسع ومجموع عضلاتي القوية ومهارتي في استخدام السيف . كنت أستند إلى شجرة وانتظر . ولو أن رئيس الجماعة وجه إلى مرة في وحشية الكلام قائلا : « تقدم يا بردايان ، ستأخذ أنت دور الأسير » — لكنك تخلت عن امتيازاتي . إن مجرد دور أبكم كان يملأني سعادة ؛ ولكنك قبلت في وسط الحماس أن آخذ دور جريح على نقالة ، أو دور ميت . لكن الفرصة لم تعط لي : لقد قايلت قضاتي الحقيقيين ، معاصري

أندادى ، وإن عدم مبالاهم كانت تدينى . كنت فى دهشة من اكتشافى
نفسى عن طريقهم : لم أكن لا أعجوبة ولا سمكة هيويلة ، بل وزما هزيلا
لا يثير اهتمام أحد . كانت أسمى لا تحسن إخفاء غضبها : إن هذه المرأة
الطويلة الجميلة كانت راضية كل الرضى عن قصر قامتى ، إنها لم تكن ترى
فيها إلا كل ما هو طبيعى . إن عائلة شفايتزر طويلة القامة وعائلة سارتر
قصيرتها ، وكنت كوالدى ، ذلك كل ما فى الأمر . كانت تحب ، وأنا فى
سن الثامنة ، أن أظل سهل الحمل والتحريك ، وكان قطعى الصغير يبدو
فى عينيها أنه مرحلة أولى ممتدة . ولكن ، عندما ترى أن لأحد يدعونى
للعب ، كان جها يدفعها إلى الظن بأننى معرض لأن يرانى الناس قزما
— الأمر الذى لم أكنه تماما — وكنت أنا أنا لم لذلك . ولكى تنقذنى
من اليأس كانت تصطنع الضجر : « ماذا تنتظر أيها النقي الكبير ؟ إسألهم
إذا كانوا يريدون أن يلعبوا معك ! » كنت أهنر رأسى فقد كنت أفضل
على ذلك أحقر الأعمال . وكانت كبريائى تمنعنى من أن أرجوهم . وكانت
تشير إلى سيدات يجلسن على كراسى من حديد ويصنمن التريكو ، وتقول
لى : « هل تريد أن أكلم أمهاتهن ؟ » كنت أتوسل إليها ألا تفعل شيئا ،
فكانت تأخذ يدي وزرحل . كنا نذهب من شجرة إلى أخرى ومن
جماعة إلى جماعة متوسلين دائما ومبعدين دائما . وعند العسق ، كنت
أجد مجتمعى تلك الأمما كن العالية التى تهب عليها الروح ، أى أحلاى .
كنت أثار لحية أسمى بست كلمات من كلام الأطفال وبذبح مائة من
المرزقة ! ولكن الأمور لم تكن على ما يرام .

وأهذنى جدى : لقد ألقى بى دون أن يريد فى خدعة جديدة غيرت حياتى .

الجزء الثاني
الكتابة

لم يعتقد شارل شفايتزر قط أنه كاتب ولكن اللغة الفرنسية كانت لا تزال تدهشه وهو في السبعين من عمره ، لأنه تعلمها بصعوبة ، ولأنه لم يمتلكها تماما ؛ كان يلعب معها وكان يسر بالكلمات ، وكان يحب أن ينطق بها ، ولم يكن إلقاءه الهاسي يتساهل في مقطع واحد ، وعندما كان يجد لديه الوقت ، كانت ريشته تنظمها في باقات . كان يسجل بسرور أحداث عائلتنا وأحداث الجامعة بكتابات في المناسبات . تمنيات بمناسبة السنة الجديدة . وعيد الميلاد ، كلمات في ولائم الأفراح ، وخطب بالشعر في عيد القديس شارلمان ، وهزليات صغيرة وألغاز وقواف ، وكلمات لطيفة عادية . وفي المؤتمرات كان يرتجل رباعيات بالألمانية والفرنسية .

وفي بدايه الصيف كنا نرحل إلى أركشون أنا والمرأتان قبل أن ينهى جدى دروسه . كان يكتب لنا ثلاث مرات في الأسبوع : صفحتين للويز وحاشية لأن ماري وخطابا شعريا بكامله لى . وكى تزيدنى أسمى تذوقا لسمادنى تعلمت قواعد العروض وعلمتها لى . وفاجأنى أحدهم وأنا أدبج إجابة بالشعر ، فحننى على إنجازها وساعدنى فيها . وعندما بعثت المرأتان بالخطاب ضحكتا حتى دمعت أعينهما وهما تفكران فى دهشة المرسل إليه . وبعودة البريد تسلمت قصيدة تمجدى ، فأجبت عليها بقصيدة . وصارت عادة . إن الجد وحفيده قد ارتبطا برباط جديد ، فقد كانا يتحدثان بعضهما إلى بعض ، كالمثود وقوادى مون مارتر ، فى لغة محظورة على النساء . وأهديت قاموسا للقوافى ، وجعلت من نفسى شاعرا : ونظمت قصيدة غزلية رقيقة .

اللفيف ، وهى بنت صغيرة شقراء كانت لا تغادر كرسىها الطويل ، وقد ماتت بعد ذلك بضع سنوات . ولم تكن البنت الصغيرة تبالى بهذه القصيدة . لقد كانت ملاكاً ! ولكن كان يعزى عن هذه اللامبالاة إعجاب جمهور كبير بها . لقد وجدت بعض هذه القصائد . وقال كوكتو فى سنة ١٩٥٥ لدى كل الأطفال عبقرية سوى مينو درويه . وفى سنة ١٩١٢ كان جميع الأطفال عبارة ماعدى : كنت أكتب للتقليد وللهرجة وكى أبدو كبيراً كنت أكتب على الخصوص لأنى كنت حفيد شارل شفايتزر . وأعطيت لى أمثال لا فوتين ، ولم تعجبى : وكان المؤلف يأخذ منها ما يحلو له ! وقررت أن أكتبها فى أشعار ذات أثنى عشر مقطعا . وكان المشروع فوق طاقتى ، وبدا لى أنه يثير الابتسام : كان ذلك آخر تجربة شعرية لى . ولكن كنت قد تقدمت وانتقلت من الشعر إلى النثر ولم أجد أية صعوبة فى أن اخترع من جديد كتابة المغامرات الشيقة التى كنت أقرأها فى مجلة كرى كرى ، ^(١) .

لقد حان الوقت الذى سأكتشف فيه عبث أحلامى . فخلال جولانى الخيالية كنت أريد الوصول إلى الواقع . وحين كانت أرى تسألنى ، دون أن تحول نظرها عن نوتة الموسيقى : « ماذا تفعل يا بولو ؟ » كان يحدث لى أحيانا أن أقطع نذر الصمت الذى قطعته على نفسى وأن أجيها : « أمثل للسينما ، وبالفعل ، كنت أحاول أن انتزع الصور من رأسى وأن أحققها خارج نفسى ، بين قطع أثاث حقيقية وجدران حقيقية ، ساطعة ومرئية ، مثل الصور التى كانت تسيل على الشاشات الفضية ، عبثاً ؛ فلم أكن أستطيع بعد أن أجعل خداعى : فكنت أتناظر بأنى مثل يتظاهر بأنه بطل .

وبمجرد أن أبدأ الكتابة كنت أضع ريشي لأبدي فرحي العظيم ..
 كان الحداد واحداً ، ولكنني قلت إنني كنت أعتبر الكلمات لباب
 الأشياء . ولم يكن هناك شيء يثير اضطرابي أكثر من أن أرى خطي
 الرديء يستبدل شيئاً فشيئاً بهاء الزائل بالصلافة الممتدة للمادة : كان ذلك
 تحقيقاً للعالم الخيالي ، وإذا وقع أسد أو ضابط من ضباط الإمبراطورية
 الثانية أو بدوى في فخ الدور — فإنهم كانوا يدخلون إلى غرفة الطعام ،
 ويظلون فيها أسرى إلى الأبد وقد جندتهم شارات مناصبهم . لقد اعتقدت
 أنني أرسيت احلامي في العالم « مخريشات » من قلم من صلب . وطلبت
 كراسة وزجاجة حبر بنفسجي وكتبت على الغلاف : « كراسة روايات ،
 وأول رواية كتبتها حتى النهاية أسميتها : « من أجل فراشة » . إن عالماً
 وابنته وأحد المستكشفين الشبان كانوا يصعدون مجرى نهر الأمازون
 بحثاً عن فراشة ثمينة . وكنت قد استمرت المخلص والشخصيات وتفاصيل
 المغامرات وحتى العنوان من قصة بالصورة كانت قد ظهرت في الثلاثة الأشهر
 السابقة . إن هذه السرقة الأدبية المتعمدة كانت تخلصني من قلقى الأخير
 كان طبعاً أن يكون كل شيء حقيقياً بما أنني لم أكن أخترع شيئاً . لم أكن
 أطمح أن تنشر روايتي ، ولكنني كنت رتبته أمري على أن تطبع مقدماً
 وكنت لا أخط سطرأ لا يكفله نموذجي . هل كنت أعتبر نفسي ناسخاً ؟
 لا . ولكنني كنت أعتبر نفسي مؤلفاً أصيلاً : كنت أتقنع وأجدد ، فعلى
 سبيل المثال كنت قد عانيت بتغيير أسماء الشخصيات . إن هذه التغيرات
 الطفيفة كانت تسمح لي بمزج الذاكرة بالخيال . كانت جمل جديدة
 ومكتوبة كلها يعاد تكوينها في رأسي بذلك الثبات الذي يبدو على ما تلقاه
 بالإنهام . كنت ألقها وكانت تأخذ تحت نظري كثافة الأشياء . وإن كان

للمؤلف اللهم ، كما يمتد في الغالب ، هو غير نفسه في أعرق داخله ، فاني
أكون قد عرفت الالهام بين السابعة والثامنة .

أن هذه ه الكتابة الآلية ، لم تخدعني قط تماما . ولكن اللعبة كانت
تسرني أيضا لذاتها : ولما كنت ولدا وجيدا ، فكنت أستطيع أن ألعبها
وحدى . وبين لحظة وأخرى ، كنت أوقف يدي ، وكنت أظهار بالتردد
لأشعر بنفسى ، وقد تقطع جيني ، وشرد نظري — إنني كاتب . كنت أعبد
السرقه الأدبية تظاهراً وكنت أذهب بها متعمدا إلى أقصى حدودها ،
كما سئى .

إن بوسنار وحول قرن لم يترك فرصة واحدة ليعلم الأطفال : ففي
أحرج اللحظات يقطعان جبل القصة ويلقيان بانفسهما في وصف نبات سام
أو مسكن من مساكن الوطنيين . وكقارىء كنت أترك هذه الفقرات
التعليمية ؛ وعندما أصبحت مؤلفا حشوت رواياتي بها . لقد عازمت على أن
أعلم معاصري كل ما كنت أجهله : عادات أهل أرض النار ^(١) ،
والنباتات الأفريقية ومناخ الصحراء . إن هاوى جمع الفراشات وابنته
كان الحظ يتدخل فيفصلهما ثم يركبان دون أن يعرفا على ظهر سفينة
واحدة ، ويقعان ضحية حادث غرق واحد فيتعلقان بطاقة النجاة نفسها
ويرفعان رأسهما ويصرخ كلاهما : « ديزى ! » ، « بابا ! » . غير أن سمكة
قرش كانت تجوس مع الأسف بحثا عن لحم طازج ، وكانت تقترب وكان

(١) مجموعة جزر جنوب أمريكا الجنوبية يفصلها عن القارة مضيق ماجلان
(الترجم) .

بطنها يلمع بين الأمواج . هل سيفلت هذان التمساحان من الموت ؟ وكنت أذهب لأحضر المجلد هـ ق ، من قاموس لاروس الكبير ، وكنت أحمله بصعوبة حتى قطري وأفتح في الصفحة المطلوبة وأنقل حرفياً مبتدئاً بسطر جديد : هـ إن سمك القرش مألوف في المحيط الأطلسي الواقع بين المدارين . إن أسماك البحر هذه الكبيرة النهمة جداً يصل طولها إلى ثلاثة عشر متراً وتزن إلى ثمانية أطنان .. ، كنت أقل المقال على مهل . كنت ألتذذ في شعوري بأنتي محل وبأنتي في مثل امتياز بوسنار . ولأنتي لم أكن قد وجدت وسيلة أتعذبها بطل ، فأنتي أغلى يطاء في رعدة لذينة .

كل شيء كان يؤدي بهذا النشاط الجديد لأن يكون تقليداً مضحكاً جديداً . وكانت أمي تغمرني بتشجيعها ، وكانت تدخل الزائرين إلى غرفة الطعام ليفاجئوا المبدع الجديد وهو جالس إلى قطره ؛ وكنت أظهار بانشغالي التام كي أشعر بوجود المعجيين بي ؛ فكانوا ينسحبون على أطراف أصابعهم وهم يهمسون بأنتي غاية في اللطف وأن ذلك لجيئ لل غاية . وأهداني خالي إميل آلة كتابة صغيرة لم استعملها ، واشترت لي السيدة بيكار خريطة العالم لكي أتمكن من أن أحدد ، دون أن أتعرض للخطأ طريق أبطالي الذين يدورون حول العالم على أقدامهم . ونسخت آن ماري من جديد روايتي الثانية هـ بائع الموز ، على ورق لامع وانتقلت من يد إلى يد . وكانت مامي نفسها تشجني وكانت تقول : إنه عاقل على الأقل ولا يحدث ضيغاً ، ولحسن الحظ تأجل الاحتفال بتمجيدي بسبب عدم رضى جدي .

إن كارل لم يقبل أبدا ما كان يسميه « مطالعاتي الضارة » . وحين أعلنت له أمي أني بدأت الكتابة ، سر في البداية كل السرور ، آملا على ما أعتقد — أن يرى تسجيلا لحياة أسرتنا اليومية وملاحظات لاذعة وسذاجات ظريفة . وأخذ كراستى وقلب صفحاتها ولوى شفتيه . وغادر غرفة الطعام ، وقد أغضبه أن يجد بقلبي « بلاهات » ، صحتي المفضلة . ولم يهتم بعد ذلك بعملى . وحاولت أمي مراراً ، وقد آلمها موقف جدى ، أن تحايل عليه لكي يقرأ « بائع الموز » . فكانت تنتظر حتى يلبس شبيه ويجلس على كرسيه الوثير . وبينما كان يستريح صامتا ، بعين ثابتة قاسية ويدها على ركبتيه ، كانت تستولى على مخطوطى وتقلب صفحاته دون أى انتباه ، ثم تأخذ في الضحك وحدها وقد أخذت فجأة . وكانت تقدمه أخيرا إلى جدى فى تأثر لا يقاوم ، وتقول له : « إقرأ يا بابا ! إنه لضحك للغاية . » ولكنه كان يبعد الكراسة يده أو — إن ألقى عليها نظرة — فليشير إلى أخطأئى الإملائية فى غضب . واتهى الأمر بأمي إلى الخوف : فلما كانت لا تجرؤ على تهنتئى ولما كانت تخشى أن تؤلنى فقد كفت عن قراءة كتاباتى حتى لا نجد ما تقوله لى .

ولما كان نشاطى الأدبى مسموحا به بصعوبة ومتجاهلا ، فقد انحدر إلى ما يشبه السرية ، ومع ذلك فقد تابمته بمثابرة : فى أوقات الفسخ ، وفى يومى الخميس والأحد^(١) وفى العطلة الصيفية ، وعندما يسعدنى الحظ وأمرض فى سريرى . وإنى أتذكر نقاهة سعيدة ، كراسة سوداء بأطراف

(١) العطلة الأسبوعية لتلاميذ المدارس فى فرنسا (المترجم)

حراء كنت آخذها وأتركها كأنها نسيج مطرز . وقل عملي في السينما إذ أن رواياتي حلت عندي محل كل شيء . وبالاختصار كنت أكتب لسروري .

وتمددت عقد رواياتي، فأدخلت فيها الحوادث المختلفة أشد الاختلاف . وصبت كل مطالعائي ، الجيدة والرديئة ، بلا نظام في هذه التجربة . لقد تأثرت القصص من هذا الحشو ؛ ومع ذلك فقد كان كسبا : إذ كان لابد من إيجاد وصلات وكان أن قلت سرقتي الأدبية . ثم قسمت نفسي قسمين . ففي العام الماضي حين كنت « أعمل في السينما ، كنت أوّدي دوري وكنت أنعمس تماما في عالم الخيال وفكرت أكثر من مرة في أن أتعلم فيه بكليتي . ولما كنت مؤلّفا ، كنت لا أزال البطل ، وكنت أعكس عليه أحلامي للحمية . ومع ذلك فقد كنا اثنين : لم يكن يحمل اسمي وكنت لا أتكلم عنه إلا بضمير الغائب . وبدلا من أن أعيّره حركاتي ، كنت أصنع له بكلمات جما كنت أزعّم أنني أراه . إن هذا « البعد ، المفاجيء كان في استطاعته أن يخيفني : ولكنه سحرني ؛ فقد فرحت بأن أكون « هو ، دون أن يكونني تماما . كان دميقي ، وكنت أطوعه حسب أهوائي ، كان في استطاعتي أن أعجم عوده ، أن أظعن جنبه بحربة ثم أعالجه ، كما كانت أي تمالجني ، وأشفيه كما كانت تشفيني . وكان المؤلفون الذين أفضلهم ، بما تبقى لهم من حياة ، يتوقفون في منتصف الطريق إلى السمو : وحتى عند زيناكو لم يحدث قط أن تحمدي شجاع أكثر من عشرين قاطع طريق في وقت مما أردت تطوير روايات الغامرات ، خفصتها من كل ما هو محتمل ، وضاعفت عدد الأعداء والمخاطر : فكيف يتقد المكتشف الشاب

خطيته وأبأها في رواية « من أجل فراشة » صارع ثلاثة أيام وثلاث ليال سمك القرش؛ وأصبح البحر أحمر في نهاية الأمر؛ وهرب المكتشف نفسه وقد أصيب بجراح من العزبة المحاصرة بقبيلة الأباش واجتاز الصحراء ماسكا أمعاء يديه ورفض أن يخاط بطنه قبل أن يتحدث إلى اللواء . وبعد ذلك بقليل قام المكتشف نفسه تحت اسم جوتز فون برلينجن بدحر جيش . كانت قاعدتي : واحد ضد الجميع ؛ وليحث عن مصدر هذا الحلم الحزين والعظيم في الفردية البورجوازية واليوريتانية اللتين كانت تتميز بهما يثنى .

بطلا ، كنت أ كافع الطغيان ؛ وخالقا ، كنت أجعل من نفسي طاغية وعرفت كل إغراءات السلطة : كنت غير مؤذ فأصبحت شريرا . ما الذي يعنى من أن ألقأ عيني ديزى ؟ كنت أجيب نفسي ، وقد مت خوفا : لا شيء . وكنت ائقأها لها كما لو كنت انتزع جناحي ذنابة . وكنت أ كتب وقلبي يحقق : « وضعت ديزى يدها على عينيها : لقد أصبحت كفيفة ، وكنت أظل مرعوبا وقلبي في الهواء . لقد انتجت في المطلق حدثا صغيرا كان يخرجني بلذة . لم أكن ساديا حقيقة : إن فرحي الفاسد كان يتحول بسرعة إلى رعب ، وكنت ألقي كل مراسيمي وكنت املأها شطبا كي أجعلها غير مقروءة . كانت الفتاة تستعيد بصرها أو بالأحرى إنها لم تفقده قط . ولكن ذكرى نزواني كانت تعذبني طويلا : فقد كنت أقلق نفسي فلما خطيرا .

إن العالم المكتوب كان يقلقني أيضا : وحين كنت أمل الذابح الرقيقة

للأطفال ، كنت أترك نفسي تغرق ، وكنت اكتشف في القلق إمكانيات
مرعبة وعالما بشعا لم يكن إلا الوجه الآخر لقدرتي الفائقة . وكنت أقول
في نفسي : كل شيء يمكن أن يحدث ! وهذا كان يعنى أننى أستطيع أن
أتحيل كل شيء . ودائما وأنا على وشك تمزيق ورقتي كنت أقص وأنا
أرتمد فظائع تفوق الطبيعة . وحين يتفق لأى أن تقرأ من فوق كتفى
كانت تصبح صيحة الانتصار والخطر : « ياله من خيال ! » كانت تغض
شفقتها وكانت تريد أن تتكلم ولا تجد ما تقوله فتهرج فجأة ، وكانت
هزيعتها تملأنى قلقا . ولكن الخيال لم يكن السبب . لم أكن أخترع
هذه البشاعات ، بل كنت أجدها مثل غيرها فى ذاكرتى .

وفى ذلك العهد كان الغرب يموت اختناقا : وكان ذلك ما أسموه
« غدوبة الحياة » ! ولمدم وجود أعداء مرثيين ، كانت البورجوازية
تلتذذ بإخافة نفسها بأشباحها . كانت تبادل مللها بقلق موجه . وكان
الناس يتحدثون عن مناجاة الأرواح والأشباح . وفى شارع لوجوف رقم ٢
فى مواجهة عمارتنا كانوا يعملون الموائد تدور . كان ذلك يحدث فى
الطابق الرابع : « عند المجوسى » ، كما كانت تقول جدتى . وكانت
أحيانا تدعونا ، وكنا نصل فى الموعد لرى أزواجا من الأيدي على مائدة
مستديرة قائمة على عمود واحد . ولكن أحدهم كان يقترب من النافذة
وكان يسدل الستائر . وكانت لويژ تدعى أن هذا المجوسى كان يستقبل
أطفالا فى سنى تصحبهم أمهاتهم . وكانت تقول « إنى أراه : إنه يضع يديه
على رؤوسهم . » وكان جدى يهز رأسه منكرآ ، ولكن على الرغم من
إنكاره لهذه العادات فإنه لم يكن يجرؤ على السخرية منها ؛ كانت أمى

تخافها ، ولأول مرة كان يبدو القلق على جدتي أكثر مما يبدو عليها الشك . وأخيرا اتفقوا على أنه : « يجب على الخصوص عدم الاهتمام بذلك لأنه يؤدي إلى الجنون ! » وكانت القصص الغريبة شائعة ، وكانت الصحف ذات الاتجاه الديني تنشر قصتين أو ثلاث قصص منها في الأسبوع لهذا الجمهور الذي تجرد من مسيحيته والذي كان يندم على فقدته أبهة الإيمان . وكان القصص ينقل بكل موضوعية حلما مقلقا ، كان يترك نصيا للوضعية ، وكان لابد للحدث على الرغم من غرابته ، أن يقتضى تفسيراً عقليا . وهذا التفسير كان المؤلف يبحث عنه ويحده ويقدمه بأمانة . ولكن لا يلبث أن يتفنن في إقناعنا بعدم كفايته وبحقته . وكانت القصة تنتهى بعلامة استفهام ولا شيء غير ذلك ولكن هذه العلامة كانت كافية : كان العالم الآخر موجودا ، وكان رهيبا إلى حد عدم ذكره باسمه .

وحين كنت أفتح جريدة « الماتان » كان الرعب يجمدني . وأثرت في قصة من هذه القصص جميعا . ومازلت أتذكر عنوانها : « ربح في الأشجار » . في أمسية صيف كانت امرأة مريضة وحدها في الطابق الأول من منزل ريفي تقلب في سريرها ؛ ومن النافذة المفتوحة ، تدخل شجرة كستناء أغصانها في الغرفة : وفي الطابق الأرضي كان يجتمع عدد كبير من الأشخاص وكانوا يتحدثون وينظرون إلى الليل وهو يهبط على الحديقة . وجفاة أشار أحدهم إلى شجرة الكستناء : « أنظروا ! أنظروا ! توجد ربح إذن ؟ » . ويتعجب القوم ويخرجون إلى الشرفة فلا يشعرون بنسمة واحدة ؛ ومع ذلك فأوراق الشجر تتحرك . وفي هذه اللحظة تسمع صرخة ! ويصعد زوج المريضة درجات السلم بسرعة ويرى زوجته الشابة .

واقفة على سريرها مشيرة إلى الشجرة باصبعها وتسقط ميتة. وعاد إلى شجرة
الكستناء جمودها الطبيعي. ما الذى رأته؟ مجنون فر من الملجأ: وهو
الذى أظهر وجهه المكسر وهو مختبئ في الشجرة. إنه هو، يجب أن
يكون هو بالمثل الذى لا يمكن لأى تفسير آخر أن يرضيه. ومع ذلك...
كيف لم يره أحد وهو يصعد؟ ولا وهو ينزل؟ كيف لم تنج الكلاب؟
كيف أمكن إلقاء القبض عليه بعد ست ساعات على بعد مائة كيلو متر من
المنزل؟ أسئلة بدون إجابة. وبدأ القصاص ققرة جديدة واختتم القصة في
عدم اكتمال بقوله: «إن كان لابد من تصديق سكان القرية فإن الموت
هو الذى كان يهز أغصان شجرة الكستناء.» وألقيت بالجريدة وضربت
الأرض بقدمي وقلت بصوت عال: «كلا كلا!» كان قلبي يحرق بشدة
واعتقدت ذات يوم أنه سيغمي علي وأنا في قطار ليروج أتصفح تقويم
هاشيت^(١)؛ فقد وقع نظري على صورة يقشعر لها البدن: رصيف تحت
ضوء القمر وملقط طويل خشن يخرج من الماء وينشب في رجل سكران
ويسحبه إلى قاع البركة. والصورة توضح نصا قرأته بشغف وينتهي
— أويكاد — بهذه الكلمات: «هل كانت تهيات سكير؟ هل انفتحت
جهنم؟» وخفت من الماء والسرطابين والأشجار. وخفت من الكتب
على الخصوص: ولنت الجلادين الذين يحشون قصصهم بهذه الأشكال
الزهرية. ومع ذلك فقد قلبتهم.

(١) دار فرنسية للنشر والتوزيع (الترجم).

كان لا بد طبعاً من مناسبة . عند جنوح النهار مثلاً : كان الظلام يغطي غرفة الطعام ، كنت أدفع مكتبي الصغير إلى النافذة ، وكان القلق يبدو من جديد : وإن وداعة أبطالي الذين لا يفارقهم السمو ، هؤلاء الذين أنكروا وأعيد لهم اعتبارهم — قد انكشف تقلبهم . وكان الإلهام يأتي حينئذ في هيئة كائن يترنم غير مرئي يسلب لبي ؛ وكى أراه كان لا بد من وصفه . كنت أختم المغامرة الجارية بسرعة ، وأذهب بشخصياتي إلى منطقة أخرى من الكرة الأرضية ، تحت البحر أو تحت الأرض عموماً ، وكنت أسرع بتعريضهم لأخطار جديدة . وسواء كانوا غطاسين أو علماء جيولوجيين مرتجلين ، فقد كانوا يعثرون على أثر الكائن ويقتفونه ويلتقون به فجأة . وإن ما كان يظهر عندئذ تحت قلبي — أخطبوط بعينين من نار ، وقواقع زن عشرين طناً وعنكبوت ضخم يتكلم — كان أنا نفسي ، المسخ الطفلي . كان ملئ من الحياة وخوف من الموت ، كان تقاهق وفسادى . كنت لا أتعرف على نفسي : فبجرد ولادته كان المخلوق الدنس ينقلب على وعلى علماء المياه الجوفية الشجعان . كنت أخاف على حياتهم ، كان قلبي يتجمس... كنت أنسى يدى وأنا أخطأ الكلمات . . كنت أنخيل أنى أقرأها . وغالباً ما كانت تنف الأشياء عند هذا الحد : لم أكن أسلم الناس للوحش ، ولكنى لم أكن أخلصهم من ورطتهم أيضاً ؛ وكان يكفي بالاخصار أن أصلهم بعضهم ببعض : كنت أنهض وأذهب إلى المطبخ أو إلى المكتبة ؛ وفي الغد كنت أترك صفحة أو صفحتين يضاوين وألقى بشخصياتي في مشروع جديد . روايات ، غريبة ، دائماً بلا نهاية ، ومعادة ، أو مكملّة دائماً كما اتفق تحت عناوين أخرى . نفايات من قصص سوداء ومغامرات يضاء وأحداث

غريبة ومقالات مأخوذة من القاموس. لقد فقدتها وأقول في نفسي أحيانا:
يا للخسارة لو أنى فكرت في تحيئتها لأسلمتى اليوم كل طفولتى .

وقد بدأت أكتشف نفسى . لم أكن شيئا يذكر ، كنت على الأكثر نشاطا بلا محتوى ، ولكن لم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك . كنت أهرب من الهزل : لم أكن أعمل بعد ولكن كنت توقفت عن اللعب ، وكان الكذاب يمد حقيقته في إعداد أكاذيبه . لقد ولدت من الكتابة وقبل ذلك لم يكن هناك سوى حركة مرايا ؛ ومنذ روايتى الأولى ، عرفت أن طفلا دخل في قصر المرايا . كان وجودى فى الكتابة ، وكنت أهرب بها من الأشخاص الكبار ؛ ولكنى لم أكن أوجد إلا لأكتب . وإذا قلت : أنا ، فذلك يعنى : أنا الذى أكتب . ومهما يكن الأمر ، فقد عرفت السرور ؛ إن « الطفل العام » ضرب لنفسه مواعيد خاصة .

كان هذا أجمل من أن يستمر : ولو كنت حافظت على سريتى لظلمت صادقا . لقد انتزعت منها . وكنت قد وصلت إلى السن التى اتفق الناس عندها على القول بأن الأطفال البورجوازيين يظهرون أولى علامات ميولهم . لقد أعلمونا منذ زمن أن أولاد خالى من أسرتى شفايتزر ودى جيرينيى سوف يصبحون مهندسين كأيهم . لم تكن هناك دقيقة واحدة يمكن إضاعتها . وأرادت السيدة بىكار أن تكون أول من يكتشف العلامة التى كنت أحملها على جبهتى . قالت مقتنعة : إن هذا الصغير سوف يكتب ! . . وانزعجت لوز وابتسمت ابتسامتها الصغيرة الجافة ؛ والتفتت بلانش بىكار نحوها وأعدت بقسوة : « لسوف يكتب ! لقد خلق ليكتب : » وكانت أرى تعلم أن شارل لم يكن يشجعنى أبدا :

لقد خشيت أن تتمعد الأمور وخفصتني بعين حسيرة وقالت : « هل تعتقدين يا بلانش ؟ هل تعتقدين ؟ » ولكن في المساء بينما كنت أثب على سريري لا بساقميصي ، ضغطت بقوة على كتفي وقالت لي وهي تبسم : « إن رجلي الصغير سوف يكتب ! » وأخبر جدى في حذر خشية إغضابه . واكتفى بهز رأسه منكرا ، وسمعتة يسر للسيد سيمونو ، الخميس التالى ، أن لا أحد ، فى خريف الحياة ، يستطيع أن يشاهد يقظة عبقرية دون أن يتأثر . واستمر يتجاهل خربشائى ، ولكن حين كان التلاميذ الألمان يأتون لتناول العشاء فى المنزل ، كان يضع يده على رأسى ويعد وهو يفصل المقاطع الصوتية كي لا يفوت فرصة دون أن يعلمهم تعبيرات فرنسية بالطريقة المباشرة : « إنه مبال للأدب . »

لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقول ، ولكن ما العمل ؟ لقد حدث الضرر ؟ وقد يستفحل بمقاومتى : ولربما أعاند . لقد أعلن كارل ميلى ليحفظ بفرصة إثباتي عنه . كان لا يحقتر ما توافق عليه المجتمع ، ولكنه كان يتقدم فى السن . وكان حماسه يتعبه ، ففى داخل فكره ، وفى صحراء باردة لا ترتاد إلا قليلا ، أنا واثق أنهم كانوا يعرفون جيدا ما يريدونه منى ومن العائلة ومنه . وذات يوم بينما كنت أقرأ مستلقيا بين قدميه ، فى وسط هذا الصمت المتحجر الذى لا ينتهى والذى كان يفرضه علينا — خطرت له فكرة أنسته وجودى ؟ ونظر إلى أمى مؤاخذا : « وإذا صمم على أن يعيش من قلبه ؟ » إن جدى كان يقدر فرلين وكان لديه نخبة من قصائده . ولكنه يذكر أنه رآه ، فى سنة ١٨٩٤ ، داخلا « وهو يترنح كالخنزير ، — حانوت بيع نبيذ فى شارع سان جاك . لقد

غرست فيه هذه المصادفة احتقاره للكتاب المحترفين ، صانعي المعجزات الهزأة الذين يطلبون جنبها ذهبيا ليروا لنا القمر ، وينتهي بهم الأمر بأن يروا لنا عجزهم لقاء مائة صولدى ^(١) . وبدأ على أمى الخوف ولكنها لم تجب . لقد كانت تعلم أن لشارل أهدافا أخرى لى . ففي أغلب مدارس اللبسه كانت كراسى اللغة الألمانية مشغولة بأستاذة أتراسيين اختاروا فرنسا ^(٢) فكوفثوا على وطنيتهم . ولما كانوا بين أمتين وبين لغتين ، فقد كانت دراساتهم غير منتظمة وكانت ثقافتهم ناقصة ؛ وكانوا يتألمون من ذلك ؛ كما كانوا يشكون من أن عداء زملائهم كان يحول بينهم وبين مجتمع المعلمين . سائئار لهم ، سائئار لجدى : كنت حفيدا لأتراسى وفرنسا من فرنسا فى وقت معا . سوف يجعلنى كارل أحصل على معرفة عالية . سأسير فى الطريق الملكى : إن الأتراس الشهيدة ستدخل فى شخصى مدرسة المعلمين العليا وتتجج نجاحا باهرا فى مسابقة الأجرىجاسيون ^(٣) وتصبح هذا الأمير : أستاذ آداب . وذات مساء ، أعلن أنه يريد أن يكلمنى كلام رجال ، فانسحبت المرأتان ووضعنى على مركبتي وحدتنى بوقار ، إني سوف أكتب وهذا أمر مفروغ منه ، وكنت أعرفه معرفة كافية بحيث لا أخشى أن يقاوم رغباتى ، ولكن كان يجب

(١) عملة فرنسية قديمة كانت تساوى ١/٢ من الفرنك (المترجم)

(٢) بعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ساخت منها مقاطعتا الأتراس

واللورين وضمتا إلى ألمانيا

(٣) مسابقة لاختيار مدرسين لمدارس اللبسه ولبعض الكليات .

أن نواجه الأشياء بجلاء .. إن الأدب لا يعول صاحبه . هلا أعلم أن كتابا مشهورين ماتوا جوعا ؟ وأن آخرين اضطروا أن يبيعوا أنفسهم لياكلوا ؟ فإن كنت أريد أن أحفظ باستقلالي كان من الأنسب أن أخار مهنة ثانية . إن التعليم يترك أوقات فراغ ؛ إن شواغل الجامعيين قرية من شواغل الأدباء وسوف أمر كثيرا من كهنوت إلى آخر ؛ سوف أعيش في حجة كبار المؤلفين ؛ وبجهد واحد سوف أكشف لتلاميذي عن مؤلفاتهم واتهم منها وحي . سوف أسلي وحدتي الريفية بنظم القصائد وبترجمة هوراس بأشعار غير مقفاة ، وسوف أبث للصحف المحلية أعمدة أدبية قصيرة ، وللمجلة التربوية مقالا رائعا عن تعليم اللغة اليونانية ، وآخر عن سيكولوجية المراهقين . وبعد موتى سوف يحدون في أدراجي مؤلفات لم تنشر ، وتأملًا في البحر ، وملهاة من فصل واحد ، وبحثا عميقا ومؤثرا في بضع صفحات عن آثار أورياك تصلح أن تكون كتبيا يعنى بنشره تلاميذي القداماء .

ومنذ بعض الوقت ، حين كان جدى يبدى دهشته أمام فضائلى ، كنت أظل جامدا ؛ إن الصوت الذى كان يرتجف حبا وهو ينادىنى « هبة السماء » ، كنت أظهاره بالإصغاء إليه ، ولكن انتهى بي الأمر بعدم سماعه . لم أصغيت إليه فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كانت فيه أذنى تكذب عن عمد تام ؟ وبأى سوء فهم جعلته يقول عكس ما كانت تزعم أن تعلمنى ؟ ذلك أنها تغيرت : لقد جفت وتصلبت ، فخلتها أذن الغائب الذى جعلنى أرى النور . كان لشارل وجهان : خفي كان يلعب دور الجدة ، كنت أعتبره مهرجا من نوعى فلا أحترمه . ولكن إذا تحدث إلى السيد

سيمونو وإلى أبنائه ، وإذا جعل امرأته تخدمانه على المائدة وهو يشير
باصبعه — دون أن ينبس بكلمة — إلى وعاء الزيت أو سلة الخبز ،
كنت أعجب بسلطته . إن حركة سياسته على الحصوص كانت تجعلنى أهابه .
كان يحرص على عدم مدها وعلى تحريكها فى الهواء بغموض ، وهى نصف
مشاة ، كى يكون المشار إليه غير محدود وكى تخمن خادمته أو امره .
وكانت جدتى تخطئ وقد عيل صبرها ، فتقدم له وعاء الفاكهة المطبوخة
بالسكر ، بينما كان يطلب ماء . كنت ألوم جدتى ، وأنحنى أمام رغباته
الملكية التى تريد أن تسبق أكثر من أن تلبى . ولو أن شارل صاح من
بيد وهو يفتح ذراعيه : « ها هو ذا هوجو الجديد ، هذا شكسير
الصغير ! » ، لكنت اليوم رساما صناعيا أو معلم آداب . ولكنه حرص
على تجنب ذلك . ولأول مرة توجهت فيها للبطريك ؛ كان يبدو حزينا
ووقورا إلى الحد الذى جعله ينسى أن يعبدنى ! كان موسى وهو على
الشريعة الجديدة ، شريعى ! إنه لم يذكر مىل إلا لينهى إلى أضراره ،
فاستتجت أنه اعتبره أمرا مفروغا منه لو تنبأ لى بأنتى سائل ورقتى
بدموعى أو أنتى سائمرغ على السجادة ، لأجفل اعتدالى البورجوازي .
لعد اقننى بموهبى بأن جعلنى أفهم أن هذه القوضى الفخمة لم تكن
محصة لى . فلبثت فى أورياك أو فى الترية ليست هناك حاجة إلى حمى
مع الأسف ولا إلى ضواء . إن نحب القرن العشرين الحالد سوف يتكفل
به آخرون . ورضيت بألا أكون زوبة أبدا ولا صاعقة ، وأن ألع فى
الأدب بصفات بيتية ... بظرفى واجتهادى . وبدأت لى مهنة الكتابة نشاطا
لل كبار .. إنها غاية فى الجدية وقافة ، وفى الحقيقة غير ذات أهمية إلى الحد

الذى جعلنى لا أشك لحظة أنها خصصت لى . قلت فى نفسى فى آن واحد :
 « ليس سوى ذلك ، و « أنا موهوب ، . وككل الذين يعيشون على
 أوهام كاذبة خلطت زوال الوهم بالحقيقة .

لقد سلخنى كارل كما يسلخ جلد الأرنب : كنت أعتقد أتنى لن
 أكتب إلا لأثبت أحلامى ، بينما — لو صدقته — لا أحلم إلا لأدرب
 قلبى ! إن قلنى وأهوائى الخيالية لم تكن إلا جيل ملكتى ، ولم يكن لديها
 عمل سوى أن تعيدنى كل يوم إلى قطرى وأن تقدم لى الموضوعات القصصية
 التى تناسب سنى فى انتظار الاملاءات الكبيرة التى سألتقاها عن التجربة
 والنضوج . لقد فقدت أوهامى الخرافية . وكان جدى يقول : « لا يكفى
 أن تكون لنا عينان ، يجب أن تعلم كيف نستخدمها . هل تعلم ماذا
 كان يفعل فلوير حين كان موباسان صغيراً ؟ كان يجلسه أمام شجرة
 ويعطيه ساعتين ليصفها . ، فعلمت إذن أن أرى . ولما كنت المنشد
 الموعود بصروح أوريلاك ، فقد نظرت بحزن إلى هذه الآثار الأخرى :
 كارتونة الكتب واليانو والساعة التى سوف تخلدها هى أيضاً — ولم
 لا ؟ — أعمالى المستقبل . وجعلت ألاحظ . كانت لعبة محزنة ومحبة
 للأمل ، كان لا بد من الوقوف أمام الكرسي ذى المساند المنجد بالخمل
 الجيد وخصه . ما الذى يمكن أن يقال عنه ؟ إنه مغطى بقماش أخضر ،
 وخشن وإن له ذراعين وأربع أرجل ومسنداً حلى أعلاه بجوزتى صنوبر
 من خشب . كان ذلك كل شيء حتى تلك اللحظة ، ولكنى سأعود إليه
 وسأكون أحسن فى المرة القادمة ، وسوف ينتهى الأمر بى إلى معرفة
 معرفة دقيقة مفصلة . وبعد ذلك سوف أصفه ، وسوف يقول القراء :

• يا لها من ملاحظة دقيقة ، إننا نراه ، إنه هو ! هذه قسرات لا نتخزع ! ،
ولما كنت أصور أشياء حقيقية ، بكلمات حقيقية كتبت بقلم حقيقي ، فإنه
من المؤسف ألا أصبح أنا أيضاً حقيقياً . وبالاختصار كنت أعرف نهايتها ،
بم يجب الرد على الفئشين الذين يطلبون منى تذكري .

كنت أقدر بلا شك سعادتي ! وما كان يضايقي هو أنني لم أكن
أتمتع بهذه السعادة . كنت صاحب وظيفة ، لقد تفضلوا وجادوا على مستقبل .
وكنت أعلن أنه ساحر ، ولكنني كنت أكرهه سرا . هل طلبت وظيفة
الكاتب هذه ؟ إن معاشررة الرجال الكبار أقنعتني بأنه لا يمكن للمرء أن
يصبح كاتباً دون أن يصبح مشهوراً ؛ ولكن ، حين كنت أقارن المجد الذي
أصابني بالمؤلفات الصغيرة التي سوف أتركها خلفي ، كنت أشعر بانخداعي :
هل أستطيع أن أتصور حقيقة أن أحفاد أحوالي سوف يقرأوني كذلك ،
وأنهم سوف يتحمسون لعمل بهذا الصغر ، لموضوعات كانت تبعث في الملل .
مقدما ؟ كنت أقول في نفسي أحيانا أنني سوف أتخذ من النسيان بفضل
• أسلوبى ، ، هذه الفضيلة اللغزية التي كان جدى ينكرها على ستندال
ويعترف بها لريتان . ولكن هذه الكلمات التي بلا معنى لم تتوصل
إلى طمأنيتى .

كان لا بد من أن أتخلى عن نفسي قبل كل شيء . كنت قبل ذلك ،
بشهرين مبارزا بالسيف ومصارعا : ولكن ذلك قد انتهى . وأمرت بأن
أختار بين كورنى وباردايان الذى كنت أحبه جا حقيقياً ؛ واخترت
كورنى خضوعا . لقد رأيت الأبطال يحرون ويتصارعون فى اللوكسمبورج ؛

ولما كنت قد هزمت بجهاضمي ، فقد فهمت أنني من فصيلة أدنى . كان لابد من إعلان ذلك ووضع السيف في غمده والحق بالماشية العادية ، ومعاودة الاتصال بكبار الكتاب ، هؤلاء الأقزام الذين لم يكونوا يخذونني . لقد كانوا أطفالا كسحاء ، وكنت أشبههم في ذلك على الأقل ، ثم أصبحوا بالغين ضعاف البنية وشيوخا مصابين بالنزلة الشعبية ، وسوف أشبههم في ذلك . لقد أرسل أحد البلاء من يضرب فولتير ، وربما يضربني بالسوط ضابط مدع قديم من هؤلاء الذين نراهم في الحداثق العامة .

واعتقدت مساماً بأنني موهوب : ففي مكتب شارل شفايتزر ، بين الكتب المزهقة ذات الأغلفة الممزقة والأجزاء الناقصة ، كانت الموهبة هي أحقر ما يوجد على الأرض . وهكذا ، في عهد ما قبل الثورة ، كان عدد كبير من الجيل الأصغر المدين منذ ولادتهم للكهنوت ، يفضلون بذل نفوسهم من أجل قيادة فرقة من الجند . لقد أجمعت في نظري إحدى الصور زمننا طويلاً — أبهة الشهرة المشثومة : مائدة طويلة مغطاة بعفرش أبيض عليها قنينات شراب البرتقال وزجاجات النبيذ المزبد . كنت آخذ كأساً ، يحيط بي رجال بملابهم الرسمية — كانوا خمسة عشر على الأقل — يشربون نخب صحتي ، وتبينت خلفنا رحابة قاعة مغبرة من القاعات التي تؤجر للحفلات . من الواضح أنني لم أكن أنتظر شيئاً بعد ذلك من الحياة سوى أن تجدد لي في أواخر الحياة العيد السنوي لمعهد اللغات الحية .

وهكذا تشكل مصري في المنزل رقم ١ شارع لوجوف في شقة بالطابق الخامس ، تحت جوته وشيلر ، وفوق مولير وراسين ولا فوئين

وفي مواجهة هنرى هينى^(١) وفكتور هوجو . وخلال أحداث أعيدت مائة مرة : كنت أنا وكارل نظرد المرأتين وتعاقد عناقا شديدا ، وكنا تابع هما محاورات الصم هذه ، وكانت كل كلمة منها تؤثر فى . وبلسات صغيرة أحسن وضعها ، كان شارل يقنعنى بأننى لست عبقرىا وبالفعل فأنا لست عبقرىا ، كنت أعلم ذلك ولا أبالى به . ولما كانت البطولة غائبة وغير ممكنة فقد كانت هدف هواى الوحيد . إنها شعلة النفوس الفقيرة ، وإن تعاسى الداخلية ، وشعورى بأننى نافذة كانا يمنانى من العدول عنها تماما . لم أكن أجرؤ على الفرح بعملى القادم ولكنى فى الواقع كنت مرعوبا . لا بد أنهم أخطأوا فى الطفل أو فى الموهبة . ولما كنت ضائما فقد قبلت ، طاعة لكارل ، المهنة المواظبة لكاتب قاصر . وبالاختصار فقد ألقى بى فى الأدب بالناية التى بذلها لصرفى عنه : إلى الحد الذى يدعونى حتى اليوم إلى أن أسأل نفسى ، حين يكون مزاجى عكرا ، إن لم أكن أنفقت كل هذه الأيام والليالى ، وملأت كل هذا الورق بحبرى ، وألقيت فى السوق كل هذه الكتب التى لا يتمناها أحد فى سبيل أمل وحيد ، مجنون ، أن أرضى جدى . إنه لمضحك أن أجد نفسى ، وأنا فوق الحسين ، سائرا ، كى أحقق رغبات رجل مات من زمن بعيد ، فى مشروع لن يتوانى عن إنكاره .

وفى الحقيقة إنتى أشبه سوان الذى شفى من حبه ويقول متنبها :

(١) شاعر ألمانى ولد فى دسلدورف ١٧٩٧ وتوفى فى باريس سنة ١٨٥٦ .
أشتهر بأشعاره الساخرة الحزينة (المترجم)

« لو أقول أنى أضمت حياتى من أجل امرأة لم تكن تناسبنى ا » إنى
أكون أحيانا فظا فى الخفاء : إنه تدير صحى بدائى . ولكن اللفظ دائما
على حق ، ولكن إلى حد ما . صحيح أننى غير موهوب للكتابة ؛ لقد
قالوها لى ، وعاملونى على أنى قوى فى الترجمة إلى لغة أخرى : أنا واحد
من هؤلاء ، وتبعث من كبرى رائحة العرق والتعب ، إنى أعترف أنها تزكم
أنوف أرسقراطيينا . وغالبا ما كتبتها على الرغم منى ، أى على الرغم من
الجميع ^(١) ، فى جهد عقلى مفرط انتهى به الأمر أن أصبح توترا فى أوعيق
الدموية . لقد خاطوا لى وصاياى تحت جلدى : فإذا ظلمت يوما دون كتابة
آلمتنى الندبة ؛ وإذا كتبت بمنتهى السهولة آلمتنى أيضا . إن هذا المطلب
المعقد يدهشنى اليوم بصلابته وخرقه : إنه يشبه هذه السراطين المزركشة
التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي يلقى بها البحر على شواطئ نويج ايلاند .
إنه يظل حيا مثلها ، بعد أزمنة ولت . لقد حسدت زمنا طويلا بوابى شارع
لاسييد حين يخرجهم المساء والصيف على الطوار وقد ركبوا على كراسيهم .
إن عيونهم البريئة ترى دون أن تكلف بالنظر .

غير أنه : فيما عدا بعض المسنين الذين يغمسون أقلامهم فى ماء
الكولونيا وبعض التحذلقين الذين يكتبون كالجزارين ، فإن الأقوياء فى
الترجمة إلى لغتهم لا وجود لهم . ويعود ذلك إلى طبيعة الكلمة . إننا نتحدث
بلغتنا ونكتب بلغة أجنبية . استنتج من ذلك أننا جميعا سيان فى مهنتنا :

(١) - سايروا أنفسكم بحكم السايرون الآخرون ، مزقوا جاركم فإن الجيران الآخرين
سوف يضحكون . ولكن إن ضربت روحك فإن كل الأرواح سوف تصرخ .

جميعنا محكوم علينا بالأشغال الشاقة، وجميعنا موشومون . وقد فهم القارىء أيضا أنني أكره طفولتي وما هو باق منها : صوت جدى ، هذا الصوت السجل الذى يوتظنى مرتجفا ويهذف بي إلى منضدتي ، وما كنت لأصغى إلى هذا الصوت لو لم يكن صوتي ، لو لم استرد لحسابي ، فى غطرسى ، وأنا بين الثامنة والتاسعة ، الأمر الصارم الذى كنت قد تلقيته أيام ذلتي .

« إنى أعلم جيداً أننى لست إلا آلة »

لعمل الكتب .»

(شاتوبريان)

كدت أنقض وعدى . إن الموهبة التى اعترف كارل لى بها كرها ،
وقد رأى أنه ليس من الحكمة إنكارها تماماً — كنت لا أرى فيها فى
الواقع إلا صدفة غير قادرة على تحليل هذه الصدفة الأخرى التى هى أنا .
كان لأى صوت جميل ، فكانت تغنى إذن . ولكنها كثيراً ما كانت تسافر
بلا تذكرة . أما أنا ، فكنت ميالا للأدب : سوف أكتب إذن ،
سوف أستغل هذا النجم طول حياتى . حسن . ولكن الفن
فقد — على الأقل بالنسبة لى — سلطاته المقدسة . سوف أظل
مشرداً — ولكن مجهزاً أحسن قليلا ، هذا كل ما فى الأمر . وكى أشعر
بضرورتى ، لا بد من أن أطلب . لقد ربنتى عائلتى بعض الوقت فى هذا
الوهم ؛ وكررت على أننى هبة السماء ، وأننى منتظر جدا وضرورى لجدى
ولأسمى ، ولم أعد أصدق ذلك ؛ ولكننى احتفظت بهذا الشعور : إن المرء
يولد زائدا عن الحاجة ، إلا إذا جاء لهذا العالم خصوصا — من أجل
شئ . ينتظره . إن كبرائى ووجدتى وصلا فى ذلك الوقت إلى الحد الذى
جعلنى أعنى الموت أو أن تطلبنى الأرض كلها .

لم أعد أكتب : إن تصريحات السيدة ييكار أضفت على مناجيات

قلبي أهمية لم أجرؤ معها بعد ذلك على متابعتها . وعندما أردت العودة إلى رواياتي ، لأتخذ على الأقل الفتي والفتاة اللذين تركتهما دون مؤن ولا قبعة المناطق الحارة في وسط الصحراء — عرفت أهوال العجز .
 فما أن أجلس حتى يعتلى رأسي بالضباب . كنت أقضم أطافري وأنا أكرس وجهي . لقد فقدت البراءة . كنت أفق وأجول في الشقة بروح مضرم للنار ؛ ولكني ، ويا للأسف ، لم أشعل النار فيها قط . فلما كنت وديعاً بوضي وذوق وعادتي ، فإني لم أعد إلى التمرد بعد ذلك إلا لأنني كنت قد وصلت بخضوعي إلى أقصى حد . لقد اشتروا لي « كراسية واجبات » مغلقة بقماش أسود وباطراف حمراء . لم تكن فيها أية علامة خارجية تميزها عن « كراسية رواياتي » . وما أن نظرت إليها حتى اختلطت واجباتي المدرسية والترماتي الشخصية بعضها ببعض ، كنت أطابق المؤلف على التلميذ ، والتلميذ على معلم المستقبل . كانت الكتابة وتعليم قواعد اللغة شيئاً واحداً ؛ لقد أمم قلبي وسقط من يدي وظللت عدة شهور دون أن أغود إلى الإمساك به . كان جدي يبتسم في سر حين كنت أجز عبوسي إلى مكتبته : لاشك أنه كان يقول في نفسه أن سياسته كانت تحمل ثمراتها الأولى .

ولكنها أخفقت لأن رأسي كانت ملحمية . لقد تحطم سيفي وألقي بي مع العامة ، وغالباً ما كنت أحلم بهذا الحكم المطلق ، كنت أحلم أنني في اللوكسمبورج ، بالقرب من البركة في مواجهة مجلس الشيوخ ؛ كان علي أن أحمي من خطر غير معروف — بنتا صغيرة شغراء تشبه فيني التي كانت قد ماتت قبل ذلك بعام . كانت الصغيرة تتطلع إلى بعينها الرزيتين

في هدوء وثقة ؛ وغالبا ما كانت تمسك بطوق . كنت أنا الخائف : كنت أخشى أن أتركها لقوى غير مرئية . ومع ذلك كم كنت أحبها أى حبه حزين ! وما زلت أحبها ؛ لقد بحثت عنها وفقدتها ، ووجدتها وضممتها . بذراعى وفقدتها ثانية . هذه هي اللحمة . وفي الثامنة من عمرى ، فى الوقت الذى كنت سأسلم فيه اتابتنى رجفة عنيفة . وكى أأخذ هذه اليتيم الصغيرة ، ألقيت بنفسى فى عملية بسيطة وجنونية حولت مجرى حياتى : لقد أعطيت للكاتب سلطات البطل المقدسة .

لقد كان هناك اكتشاف أو بالأحرى تذكر فى الأصل — ذلك أن قلبى حدثنى به قبل ذلك بسنتين : حدثنى أن المؤلفين الكبار يتون إلى الفرسان الجائلين بأن هؤلاء وأولئك يشيرون الشواهد القمعة بعرفان الجليل . وبالنسبة لبارديان ، لم تكن هناك حاجة إلى برهان : إن دموع اليتيمات الشاكرات قد حفرت مجرى فى ظهر يده . ولكن إذا صدقنا قاموس لاروس الكبير وتراجع التوفين التى كنت أقرأها فى الجرائد ، فإن الكاتب لم يكن أقل حظوة . فإذا حدث وطال به العمر ، ينتهى به الأمر حتما إلى أن يتسلم خطابا من مجهول يشكره . ومنذ هذه اللحظة لا ينقطع سيل خطابات الشكر ، وتتراكم على مكتبه وترحم شقته ؛ ويحتاج بعض الأجانب البحار لحيوه ؛ وبعد موته يكتب مواطنوه ليشيدوا له نصبا تذكاريًا ؛ فى المدينة التى ولد فيها . وأحيانا فى عاصمة بلده تحمل اسمه بعض الشوارع . إن هذا التكريم لم يكن يهمنى فى ذاته : إنه يذكرنى كثيرا بالتمثيلية العائلية . غير أن صورة أهاجتنى : إن ديكز الروائى الشهير سيصل بالبحر بعد بضع ساعات إلى نيويورك ، وتشاهد من بعيد السفينة التى تقله .

ويتجمع الجمهور على الرصيف ليرحب به ويفتح كل أفواهه ويلوح بألف قبعة . إن الزحام شديد لدرجة أن الأطفال يحتقون ، ومع ذلك فهذا الجمهور وحيد ويتم وأرمل وقفر لغياب واحد ، وهو الرجل الذي ينتظر وصوله . وهمت : « ينقص شخص واحد هنا ، وهذا الشخص هو ديكز ! » وصعدت الدموع إلى عيني . ومع ذلك فقد نحيث هذه التأثيرات ورجعت رأساً إلى أسبابها ، وقلت في نفسي : كي يهتف لرجال الأدب هذا الحثاف الجنوني لابد أنهم يواجهون أشد المخاطر ، ويقدمون للانسانية أجل الخدمات . لقد حضرت مرة واحدة في حياتي مثل هذا الجماس الشديد . وكانت القبعات تتطاير ، وكان الرجال والنساء يصيحون : مرحى ، مرحى . كان ذلك في عيد ١٤ يوليو ^(١) ، وكان القناصة الجزائريون يمرون في الاستمرار العسكرية . إن هذه الذكرى انتهت بإقناعي : فعلى الرغم من عيوبهم الجسمية وتكليفهم وأثويتهم الظاهرة ، كان زملائي أنواعاً من الجنود ، كانوا يخاطرون بحياتهم جنوداً غير نظاميين في معارك غامضة . إنهم يصفقون لشجاعتهم العسكرية أكثر مما يصفقون لموهبتهم . قلت في نفسي : هذا حق إذن ! إننا في حاجة إليهم . ففي باريس ونيويورك وموسكو ينتظرونهم في قلق شديد أو في إعجاب شديد قبل أن ينشروا كتبهم الأول قبل أن يبدأوا في الكتابة ، بل قبل أن يولدوا .

ولكن ... أنا ؟ أنا الذي رسالته الكتابة ؟ إنهم كانوا ينتظرونني . لقد حولت كورني إلى باردايان : احتفظ بساقيه الموحجتين وصدرة الضيق

(١) عيد الثورة الفرنسية الكبرى ثورة ١٧٨٩ (المترجم) .

ووجهه الشاحب ، ولكنى نزعته عنه بخله وجهه للريح ، لقد خلطت غمداً
 فن الكتابة بالكرم . وكان من السهل بعد ذلك أن أحول نفسى إلى
 كورنى وأن أعطى نفسى هذا التوكيل : حماية النوع . إن خدعنى الجديدة
 كانت تعد لى دوراً غريباً ؛ لقد ربحت فى الحال كل شيء . ولما كنت
 ردىء الطبع ، فقد بحت بمجهوداتى لأولد ثانية : إن توسلات البراءة التى
 فى خطر قد أثارتنى ألف مرة . ولكن كان ذلك للمزاح . ولما كنت فارساً
 مزوراً ، فقد قمت ببطولات مزورة ، أدى عدم صلابتها إلى تفزى منها .
 ولكن هامهم يردون لى أحلامى وتحقق هذه الأحلام . ذلك أن دعوتى
 كانت واقعية ، ولا أستطيع أن أشك فى ذلك بما أن الكاهن الكبير قد
 كفله . ولما كنت طفلاً خيالياً ، فقد أصبحت مغامراً حقيقياً قد تكون مفاخره
 كتاب حقيقة . كنت مطلوباً ! كانوا ينتظرون عملى ، ولم يظهر جزؤه الأول
 على الرغم من جهدى قبل سنة ١٩٣٥ . وفى حوالى سنة ١٩٣٠ بدأ صبر
 الناس ينقد ، ويقولون فيما بينهم : « إن هذا الرجل يتباطأ ! إنه يطعم
 منذ خمس وعشرين سنة دون أن يفعل شيئاً ! هل سموت دون أن تقرأه ؟ »
 وكنت أجيهم بالصوت الذى كان لى فى سنة ١٩١٣ : « أتركوا لى وقتاً
 للعمل ! » ولكن بلطف . كنت أرى جيداً - والله وحده يعرف السبب -
 أنهم فى حاجة إلى مساعداتى ، وأن هذه الحاجة قد جعلتنى أنا الوسيلة
 الوحيدة لإجابة هذه الحاجة . كنت أجتهد لمباغثة هذا الانتظار العالمى فى
 أعماق نفسى ، ينبوعى الحى وسبب وجودى ، كنت أعتقد أحياناً أننى
 على وشك النجاح ، ولكن بعد لحظة ، كنت أترك كل شيء فى سبيله .
 ومهما يكن الأمر : فإن هذه الإيماءات كانت تكفينى . وأنظر إلى الخارج

مطمئناً فلربما كنت ناقصاً في بعض الأماكن . ولكن لا : فما زال الوقت مبكراً . ولما كنت هدفاً جيلاً لرغبة ما زالت تجهل نفسها ، فقد قبلت بفرح أن أظل بعض الوقت مبتكراً . وكانت جدتي تصحبني أحياناً إلى قاعة المطالعة ، فكنت أتسلى برؤية سيدات طويلات القامة ، حالمات وغير راضيات ، ينتقلن من حائط إلى آخر بحثاً عن المؤلف الذى يشفى غليلهن : ولكن كن لا يعثرن عليه لأنه كان أنا ، هذا الطفل الذى كان بين أرجلهن ولا ينظرن إليه .

كنت أضحك خبثاً وأبكي شفقة : لقد قضيت حياتي القصيرة مبتكراً لنفسي أذواقاً وآراء متحيزة كانت لا تلبث أن تذوب . ولكن ها هم يسبرون غوري ويصطدمون بالصخر . كنت كاتباً كما كان شارل شفايترز جداً : بالولادة وإلى الأبد ! ولكن كان يحدث أن يبرز قلق تحت الحماس : إن الموهبة التى كنت أعتقد أن شارل كفلها ، كنت أرفض أن أعتبرها حادثة ورتبت أمري لأجعل منها انتداباً ، ولكن لعدم وجود تشجيع ومطالبة حقيقية ، فإني لم أكن أستطيع أن أنسى أنني كنت أعطى هذه الموهبة لنفسي . ولما كنت خارجاً من عالم ما قبل الطوفان ، ففي اللحظة التى كنت أنقلت فيها من الطبيعة لأصبح أخيراً أنا ، هذا الآخر ، الذى كنت أدعى أنني هو فى عيون الآخرين ، كنت أواجه مصري ، وقد تعرفت عليه : لم يكن سوى خريقي واقفة أمامي بفضل جهودي ، كأنها سلطة غريبة . وبالاختصار ، فإني لم أتوصل إلى خداع نفسي تماماً . ولا أن أتيقظ تماماً . كنت أُنذبذب . وبمث ترددى مشكلة قديمة إلى الحياة : كيف أضمر يقين ميشيل ستروجوف إلى كرم بردايان ؟ وحين كنت فارساً لم أتلق

أوامر قط من الملك ؟ هل يجب أن أقبل أن أكون مؤلفا بالأمر ؟ ولم يكن الضيق يطول كثيراً أبداً ؛ كنت فريسة لاعتقادين متعارضين ، ولكنى كنت أرتضى تناقضهما تماماً . بل كان ذلك يلائنى فأكون هبة السماء وابن أعمالى فى نفس الوقت . وفى أيام اعتدال مزاجى ، كان كل شيء ينبعث من داخلى . وكنت أنفقت من العدم بقوى الذاتية لى أقدم للناس المطالبات التى يتمنونها . ولما كنت طفلاً خاضعاً ، فإنى سوف أطيع حتى الموت ، ولكن ... نفسى . وفى ساعات الحزن ، حين كنت أشعر بالتفاهة المنفرة لاستعدادى ، لم أكن أستطيع أن أهدي نفسى إلا باستعجال قدرى . لقد استدعيت النوع الإنسانى وأسندت إليه مسؤولية حياتى فأنا لم أكن إلا نتاج مطلب جماعى . وفى أغلب الأحيان ، كنت أراعى راحة قلبى ، مجتهداً ألا استبعد استبعاداً كاملاً — الحرية التى تحبس ، ولا الضرورة التى تبرر .

كان فى استطاعة باردبايان وستروجوف أن يعيشا متفقين . كان الخطر فى مكان آخر ، وقد وجدتني شاهداً فى مواجهة مكروهة ، اضطرتنى فيما بعد أن آخذ بعض الاحتياطات . إن المسؤل الكبير هو زيفاكو الذى لم أكن أثق فيه ؛ هل أراد أن يضايقنى أو أن يحذرني ؟ الواقع أنه ذات يوم فى مليريد وفى خان ، حين كنت لا أنظر إلا لبرديان ، وكان هذا السكين يستريح وهو يشرب كأساً من النبيذ يستحقه تماماً ، لفت هذا المؤلف انتباهى إلى زبون لم يكن سوى سرفاتيس . وتعارف الرجلان وأبدى كل منهما تقديره للآخر وذهبا ليحاولا مما القيام بهجوم فاضل . والأسوأ من ذلك أن سرفاتيس أسر ، وهو كله سعادة ، إلى صديقه

الجديد ، أنه يريد أن يكتب كتابا . وحتى ذلك الوقت ، كانت الشخصية الرئيسية للكتاب لا تزال غير واضحة . ولكن ظهر بمحمد الله بردايان ليكون نموذجا له . واستولى على الغضب وكادت ألقى بالكتاب . يا لها من قلة ذوق ! لقد كنت كاتباً فارساً ، وكانوا يقسمونني نصفين ، وكان كل نصف يعدو إنساناً كاملاً ويقابل النصف الآخر وينازعه . لم يكن بردايان أبله ، ولكنه لم يكن قط يكتب دون كيشوت . إن سرفانتيس يتعارك جيداً ، ولكن لم يكن من المتوقع أن يهزم وحده عشرين من الجنود المرتزقة الهاريين . إن صداقتهما نفسها كانت تؤكد حدودهما . وكان الأول يقول في ذاته « إن هذا المدعى المضحك لضعيف الصحة بعض الشيء ولكن الشجاعة لا تنقصه . » ويقول الثاني في نفسه : « بالنسبة لجندى من الجنود المرتزقة ، فإن تفكير هذا الرجل ليس سيئاً للغاية . » ثم إنى لم أكن أحب قط أن يعتبر بطلى نموذجا لفارس « الوجه الحزين » . ففي أيام « السينما » أهديت الطبعة المهدبة لدون كيشوت ، ولم أقرأ منها أكثر من خمسين صفحة . كانوا يسخرون علانية من بطولاني ! وها هو ذا زيفاً كونه نفسه ... فيمن أثنى إذن ؟ لقد كنت في الحقيقة عاهرة ، بنتا من البنات اللواتي يعاين الجنود . إن قلبي ، قلبي الجبان كان يفضل المغامر على الفكر ؛ كنت خجلاً لأنني لم أكن سوى سرفانتيس . وكى أمتع نفسي من أن أخون ، جعلت السيادة للارهاب في رأسي وفي مجموعة مفرداتي ، فقد كنت أطاردة كلمة البطولة وبديلاتها ، وأبعدت الفرسان الجائلين ، وكنت نفسي دون انقطاع عن رجال الأدب وعن الأخطار التي يتعرضون لها ، وبين قلمهم الحاد الذي كان يطمئن الأشرار . وتابعت

قراءة بردايان وفاوست والبؤساء وأسطورة القرون ، وبكيت على جان فالجان^(١) وايفيرادنوس ، ولكن حين كنت أقفل الكتاب ، كنت أمسح أسماءهم من ذاكرتى وكنت أتم على فيلقى الحقيق . سيلفيو بليكو : المسجون مدى الحياة . أندريه شنييه^(٢) : الذى ضرب عنقه بالمقصلة . اتيين دوليه^(٣) : الذى أحرق حيا . بايرون الذى مات من أجل اليونان . واجتهدت بأنفعال فى تغيير وجه موهبتى بأن صبت فيها أحلامى القديعة ولم ينتج شئ : فلويت الأفكار ، وحرفت معنى الكلمات ، وتحصنت من العالم خوفا من الالتقاءات السيئة والمقارنات . وحلت التبعة الكاملة والدائمة مكان فراغ نفسى : فقد أصبحت دكتاتورية عسكرية

واستمر القلق فى شكل آخر : ليس هناك أفضل من شجذ ملكتى . ولكن ما جدواها ؟ لقد كان الناس فى حاجة إلى .. ولم ؟ لقد سألت نفسى للأسف عن دورى وعن مصرى . وسألت : « وأخيرا ... ما الأمر ؟ » وفى هذه اللحظة ، خلت كل شئ قد ضاع . لا شئ ! ليس بطلا كل من يريد أن يكون بطلا ، ولا تكفى لا الشجاعة ولا الموهبة ... لا بد من وجود أفاع ذات سبعة رؤوس وتنانين . لم أكن أرى منها شيئا فى أى مكان . إن فولتير وروسو تصارعا بهمة قعساء فى زمانها : ذلك أنه كان لا يزال هناك طغاة . وأنزل هوجو صواعقه من جزيرة جرنيزيه على

(١) بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو (المترجم)

(٢) شاعر فرنسى ولد فى الأستاذة سنة ١٧٦٢ . اشترك فى الحركة الثورية . أول الأمر ثم احتج على تطرف عهد الارهاب فاعدم على القصلة سنة ١٧٩٤ .

(٣) فقيه فى اللغة وطابع فرنسى ولد فى سنة ١٥٠٩ . أحرق فى باريس سنة ١٥٤٦ لأرائه الجريئة (المترجم) .

بادانجيه^(١) ، الذى كان جدى علمى أن أكرهه . ولكنى لم أكن أحس
عزة فى إعلان كراهيتى ، ذلك أن هذا الامبراطور كان قد مات منذ
أربعين سنة . وظل شارل صامتا فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر . إن هذا
الشايع للضابط دريفوس لم يحدثنى قط عن دريفوس . يا للأسف ! فأى
حماس كنت سألعب دور زولا^(٢) ، فإذا قرعت وأنا خارج من المحكمة
فأنى كنت عندئذ التفت ورأى وأنا على درج عريق ، وأحطم أكثر
هؤلاء المقرعين هياجا . كلا ، كلا : كنت سأجد كلمة مرعبة تردهم على
أعقابهم . وأرفض أنا بلا شك أن أفر إلى إنجلترا . وبإلها من سعادة أن
أصبح جريزليديس ثانية ، بعد أن أنكروني وخذلوني ، وأن أذرع
طرقات باريس ، دون أن أشك لحظة أن الباشيون^(٣) ينتظرنى .

كانت جدتى تتسلم كل يوم صحيفة « اثاتان » ، وإن لم أخطيء ، صحيفة
« الاكسليور » . لقد عرفت وجود اللصوصية والاحتيال اللذين كنت
أكرههما مثل كل الشرفاء . ولكن هذه النور ذات الوجه البشرى لم
تكن لترضينى : إن السيد لين^(٤) الجسور كان يكفى لكبحها . وكانت
العمال يغضبون أحيانا فلا تلبث رؤوس الأموال أن تطير ، ولكنى لم أعلم

(١) الأميراطور نابليون الثالث الذى هاجم حكمه الكاتب الفرنسى فكتور
هوجو (المترجم) .

(٢) دانع أميل زولا الكاتب الفرنسى عن دريفوس وطالب بإعادة محاكمته
(المترجم)

(٣) منوى عظماء فرنسا وقد دفن فيه أميل زولا (المترجم) .

(٤) مدير الشرطة الفرنسية من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩١٢ (المترجم)

شيئاً عن ذلك وإني لأجهل أيضاً رأى جدى فى ذلك . كان يؤدى بدقة واجباته كمنخب . كان يخرج بعد أن يدلى بصوته وقد استرد شبابه وبدا مزهواً ببعض الشيء . وحين كانت امرأتانا تعيظانه بسؤاله « قل لنا لمن تعطى صوتك ! » كان يجيب بحفااء : « إنها مسألة تخص الرجال ! ، ولكن حين انتخب رئيس الجمهورية الجديد ، أفهمنا ، فى لحظة عدم تكلف ، أنه يرثى لترشيح بامز^(١) ، وصاح بسورة غضب : « إنه بائع سجاير ! » . إن هذا المثقف الذى ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة كان يريد أن يكون الموظف الأول فى فرنسا أحد أترابه ، مثقفاً من الطبقة البورجوازية الصغيرة ... بوانسكاريه^(٢) . وتؤكد لى أمى اليوم أنه كان يعطى صوته للحزب الراديكالى ، وأنها كانت تعلم ذلك جيداً . إني لا أدهش لذلك : فقد اختار حزب الموظفين . ثم إن الراديكاليين كانوا باقين على قيد الحياة ، وكان شارل مجد الرضى بأن يصوت لحزب نظام باعطائه صوته لحزب حركة . وبالاختصار ، فإن السياسة الفرنسية ، إن صدق ، كانت تسير على ما يرام .

وكان ذلك يحزننى : فقد تسلحت لأدافع عن البشرية ضد أخطار مروعة . وكان الجميع يؤكدون لى أنها كانت تسير ببطء نحو الكمال . لقد ربانى جدى على احترام الديمقراطية البورجوازية التى من أجلها كنت أخرجت قلمى من غمده عن طيب خاطر ؟ ولكن فى عهد رئاسة فالير^(٣)

(١) يقصد الرئيس فالير (المترجم)

(٢) رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠ (المترجم)

(٣) أرمان فالير رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩١٣ (المترجم)

كان الفلاح له حق التصويت : فما الذى يمكن أن يطلب فوق ذلك ؟ وما الذى يعمله جمهورى ما دام قد سعد بالعيش فى جمهورية ؟ إنه يطرق أصابعه ، أو يعلم اليونانية ويصف آثار أورياك فى أوقات فراغه . لقد عدت إلى النقطة التى بدأت منها ، وتخيلت أننى أختق مرة أخرى فى هذا العالم الذى لا منازعات فيه ، والذى يؤدى بالكاتب إلى البطالة .

إنه شارل كذلك الذى أخرجنى من حيرتى ، دون علمه بالطبع . قبل ذلك بستين ، كى ينهينى لاهى الآداب القديمة ، قدم لى أفكارا لم يعد ينطق منها بكلمة ، خوفا من أن يشجع جنونى . ولكن هذه الأفكار كانت قد انحرفت فى ذهنى . لقد عاودت ، دون جلبة ، مفعولها . ولإيقاظ ما هو جوهرى ، حولت شيئا فشيئا الكاتب الفارس إلى كاتب شهيد . كنت قد ذكرت كيف أن هذا الراعى الناقص ، الأمين على رغبات أبيه ، قد احتفظ بالإلهى ليصبه فى الثقافة . ومن هذا المزيج الغريب ولد الروح القدس ، صفة الجواهر اللانهائى ، حامى الآداب والفنون واللغات الميتة أو الحية وطريقة التعليم المباشرة ، حمامة يضاء كانت تفيض على عائلة شفايتزر بظهورها ، وكانت ترفرف يوم الأحد فوق الأرغن والفرق الموسيقية ، وتخط فى أيام العمل على رأس جدى . وإن أحاديث كارل القديمة بعد جمعها فى رأسى قد ألفت خطبة : إن العالم فريسة الشر ، وليس هناك إلا خلاص واحد : أن تنصرف تماما عن أنفسنا ، عن الأرض ، وأن تأمل من أعماق ما غرق — الأفكار المستحيلة . ولما كان لا يمكن التوصل إلى ذلك إلا بتدريب صعب وخطر فقد عهد بهذا العمل إلى هيئة من الإخصائين . لقد تولى الكهنوت عبء البشرية وأتخذها بفكرة .

الشفاعة : إن لوحوش العالم الديوى ، صفارا وكبارا الوقت الكافى ليقتلوا أو ليعيشوا فى خدر حياة بلا حقيقة ، بما أن الكتاب والفنانين يتأملون الجمال والخير وهم قابعون فى أما كنهم . ولاقتلاع النوع كله من الحيوانية لا بد من شرطين فقط : أن تحتفظ فى دور محروسة بمخلفات رجال الثقافة المتوفين وهى اللوحات والكتب والتماثيل ؛ أن يظل عالم واحد على الأقل على قيد الحياة ليكمل المهمة ويضع ذخائر المستقبل .

إنه لعبث فذر : كنت أزدرده دون أن أفهمه تماما ، كنت مازلت أؤمن به وأنا فى العشرين من عمرى . ومن أجل هذا العبث ، اعتبرت العمل الفنى طويلا حدثا ميتافيزيقيا يهتم مولوده الكون . لقد أخرجت من تحت التراب هذا الدين المقدس واتخذته ديناً لى لأطلى بالذهب دعوتى الممتعة : لقد ابتلعت صفائن وفظاظات لم تكن لى أبدا ولم تكن لجدى كذلك ، لقد سمعنى غيظ فلوير وجونكور وجوتيه القديم ؛ إن كراهيته المجردة للانسان التى أدخلت فى تحت قناع الحب عدتتى بادعاءات جديدة . وقد أصبحت ملحدا وخلطت بين الأدب والصلاة وجلت منها ضحية بشرية . وقررت أن اخوانى سوف يطلبون منى فقط أن أكرس قلبى لا قديائهم : إنهم يتأملون من عدم كفاية وجودهم التى ، لولا شفاعة القديسين ، يكون مآلها الفناء الدائم ؛ وإن فتحت عينى كل صباح وإن رأيت ، وأنا أجرى إلى النافذة ، رجلا ونساء يمشون فى الشارع ولا يزالون أحياء ، فذلك لأن عاملا فى غرفة كافح من الفسق إلى الشفق ليكتب صفحة خالدة تعطينا مهلة يوم . وسوف يعاود الكرة عندما يأتى

الليل ، هذا المساء وغدا ، حتى يموت من البلى ؛ وأحل محله : وأنا أيضاً سوف أوقف الجنس البشرى على حافة الهاوية بقربانى الصوفى ، بعملى ؛ لقد ترك العسكرى مكانه فى السر للكهنة : ولما كنت بارسيفال (١) فاجما فقد قدمت نفسى كفارة . ومنذ اليوم الذى اكتشفت فيه شاتكلىر (٢) ، تكونت عقدة فى قلبى : عقدة أفاع كان لا بد من ثلاثين سنة لحلها : إن هذا الديك يجد طريقه لحماية حظيرة الطيور كلها ، على الرغم من تمزيقه وادمائه وضربه ، إن صياحه كاف لجعل الصقر يولى الأدبار والجمهور الدنى . يتملقه بعد أن سخر منه ؛ وعندما يحتفى الصقر يعود الشاعر إلى الحركة ، إن الجمال يوحى إليه ويضاعف قواه ويهجم على عدوه ويخذه . وبكى : إن جريزليديس وكورنى وبردايان كنت أجدهم جميعا فى شخص واحد : إن شاتكلىر هو أنا . كل شيء بدا لى بسيطا : إن الكتابة هى إضافة لؤلؤة لعقد عرائس الشعر ، هى ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة ، هى الدفاع عن الشعب ضد نفسه وضد أعدائه ، هى انزال بركة السماء على الناس بهداس احتفالى . ولكن لم يطرأ على بالى أنه يمكننا الكتابة كى نقرأ .

(١) دراما موسيقية من ثلاثة فصول . نظمها ولحنها ر. واجنر فى سنة ١٨٨٢ . وهى آخر عمل من أعمال هذا اللحن ومن أكثرها تأثيرا . إن فكرة الفداء تتحول نحو تعبير صوفى (المترجم)

(٢) تمثيلية شعرية تأليف آدمون روستون (١٩١٠) أشخاص هذه التمثيلية حيوانات ترمز إلى اعوجاج الإنسان وأهوائه (المترجم)

إننا نكتب لجيراننا أو لله . وقررت أن أكتب لله لأخلص جيرانى . كنت أريد عارفين بالجميل لا قراء . إن الاحتقار كان يفسد كرمى . فمن الوقت الذى كنت أحمى فيه اليتيمات ، بدأت أتخلص منهن بارسالهن ليختبئن . ولما أصبحت كاتباً لم تتغير طريقي : فقبل أن أخلص البشرية ، سوف أبدأ بتمصيب عينيها ؛ وعندئذ فقط ، أنبرى للمرتزقة الصغار السود السريعين ، أنبرى للكلمات ؛ وحين تجرؤ يتيمنى الجديدة على أن تفك العصبة ، سوف أكون بعيداً ؛ ولن تلحظ فى أول الأمر ، وقد أشقتها شجاعة وحيدة ، المجلد الصغير الذى يشع على رف من رفوف المكتبة الأهلية ، والجديد كل الجدة الذى سوف يحمل اسمي .

إنى أترافع على أساس الظروف الخفيفة ، وهى ثلاثة . كنت أطرح للمناقشة أولاً ، خلال حلم صاف ، حق فى الحياة . فى هذه البشرية التى لا تحمل جواز مرور والتى تنتظر ارادة الفنان التحكية ، تعرف على الطفل المتخم بالسعادة الذى يتملبل على مجنمه ، لقد قبلت خرافة القديس البغيضة ، هذا القديس الذى يخلص السوق ، ذلك لأن السوق هى أنا آخر الأمر : وأعلنت أننى المنقذ الرسمى للجماهير فضلاً عن تحقيق خلاصى سرا . وبالنسبة ، كما يقول اليسوعيون .

نم إنى كنت فى التاسعة من عمري . ولما كنت ابناً وحيداً وبدون رفيق ، لم أكن أتخيل أن يكون لىزلى نهاية . يجب أن أعترف بأنى

كنت مؤلفا مجهولا تماما . فقد عاودت الكتابة . إن رواياتي الجديدة
لعدم توافر ما هو أفضل منها — كانت تشبه القديعة بمخاديفها ، ولكن
لا أحد كان يعرف ذلك ، حتى أنا الذي كنت أكره أن أعاود قراءة
ما أكتب : كان قلبي سرياً بحيث كثيراً ما كان معصمى يؤلمني ؛ كنت
ألقي على الأرضية الحشوية الكراسيات مملثة ، وكان ينتهي بي الأمر بنسيانها
وكانت تحتني ؛ ولهذا السبب لم أكن أنهي شيئا : فما جدوى أن أقص
نهاية قصة ما دامت بدايتها قد فقدت . ومن ناحية أخرى ، لو أن كارل
تفضل وألقى نظرة على هذه الصفحات ، لما كان « قارئا » في نظري ،
ولكن قاضياً أعلى ، ولحشيت أن يحكم علي . إن الكتابة ، عملي الأسود ،
لم تكن تحيل إلى شيء ، وكانت تعتبر نفسها غاية في ذاتها : كنت
أكتب للكتابة . وإنني لا أندم على ذلك : ولو كنت أقرأ لخارلت أن
أرضى ولعدت عجبيا . ولأنني كنت أكتب سرا ، فقد كنت صادقا .

وأخيراً فإن مثالية العالم الأديب كانت تقوم على واقعية الطفل . لقد
قلت ذلك آنفا لأنني اكتشفت العالم خلال اللغة ، فقد اعتبرت اللغة العالم
زمنيا طويلا . إن الوجود كان امتلاك تسمية محققة ، في مكان ما على
الجداول اللانهائية للكلمة ؛ وكانت الكتابة حفر كائنات جديدة على
هذه الجداول أو — وكان ذلك أعند أوهاى — صيد الأشياء الحية بفتح
الجل : لو أني كنت أرتب الكلمات بعهارة ، لكبلت الموضوع بالرموز
المعبرة عنه وهى تلك الكلمات . وبدأت فى اللوكسمبورج أنعجب من
صورة شجرة صنار لا معة : كنت لا أراقبها بل على العكس تماما ، كنت
أضع ثقتي فى الفراغ ، وانتظر ؛ وبعد لحظة ، كان ورقها الحقيقي يخرج

في مظهر صفة بسيطة أو أحيانا في مظهر جملة كاملة : لقد أثريت الكون
 بمخضرة رجراجة . ما وضعت قط على الورق الأشياء التي عثرت عليها :
 كنت أقول في نفسي إنها تتراكم في ذاكرتي . والواقع أنني كنت أنساها
 ولكن كانت تشعرني مقدما بدوري في المستقبل . سوف أفرض أسماء .
 ومنذ عدة قرون في أورياك ، كانت هناك أكوام من البياض لقيمة لها
 تطالب بحدود ثابتة ، بمعنى أنني سوف أصنع منها آثارا حقيقية . ولما كنت
 إرهابيا فاني لم أكن أهدف إلا لذاتها : سوف أكونها باللغة ؛ ولما كنت
 عالما في البيان فاني لم أكن أحب سوى الكلمات : سوف أشيد كاتدرائيات
 من الكلام تحت العين الزرقاء لكلمة سماء . سوف أبني لآلاف السنين .
 حين كنت آخذ كتابا ، كنت عبثا أفتحه وأقفله عشرين مرة فأرى جيدا
 أنه لم يكن يتغير . وحين كان نظري يمر على النص ، هذا الجوهر الذي
 لا يفسد ، فانه لم يكن سوى حادث سطحي صغير ، إنه لم يكن يضايق شيئا
 ولا يلي . أما أنا فقد كنت سلبيا وسريع الزوال ، بعوضة مبهورة تحترقها
 أضواء منارة ؛ وغادرت المكتب وأطفأت الضوء : غير مرئي في الظلام
 كان الكتاب لا يزال يشع ؛ لذاته . سوف أعطى لمؤلفاتي عنف هذه
 الأضواء الفجائية القارضة وسوف تعيش بعد الانسان في المكتبات المهدامة .

لقد رضيت بظلامي ونميت أن أطيله وأجعل منه فضلا لي . وحسدت
 المعتقلين المشهورين الذين كتبوا في زنانات على ورق كان يستعمل أيام
 الاضواء بالشموع . لقد كانوا قد احتفظوا بواجب افتداء معاصريهم
 وفقدوا واجب معاشرتهم . وبالطبع فان تقدم العادات قلل فرصى في أن

أستمد ملكتي من الحبس ، ولكني لم أفقد أملى تماما : إن العناية ، وقد أذهلها تواضع طموحي ، سوف تهتم بتحقيقه . وإلى أن يتحقق سوف أحجر على نفسي سلفيا .

ولما كان جدى يحاول خداع أُمى ، فإنها لم تكن تترك فرصة دون أن تصور أفراحي المستقبل : وكى تغريبي كانت تضع فى حياتى كل ما كان ينقص حياتها : هدوء البال ، ووقت الفراغ ، والوثام ؛ فحين أغدو مدرسا شابا لا يزال عزبا سوف تؤجر لى سيدة عجوز جميلة غرفة مريحة تنبعث منها رائحة الخزامى والياسات النظيفة ، سوف أذهب إلى اللسيه فى قفزة وأعود فى قفزة ؛ وفى المساء سوف أقف على عتبة بابى لى أترى مع صاحبة الغرفة التى سوف تشغف بى ؛ وعلى أى حال فإن الجميع سوف يحبونى لأننى سأكون مجاملا وحسن الترية . كنت لا أسمع سوى كلمة واحدة : غرفتك ، وكنت أنسى اللسيه وأرملة الضابط الكبير ورائحة الأقاليم ، وكنت لا أرى غير دائرة من الضوء على منضدتى : فى وسط غرفة غارقة فى الظلام ، الستائر مسدلة ، كنت منحيا على كراسة من النيل الأسود . كانت أُمى تستمر فى قصتها فتقفز عشر سنوات إلى الأمام : إن مفتشا عاما سوف يحمينى ، ومجتمع أورياك الراقى يرغب فى استقبالى ، وزوجتى الشابة تكن لى أحسن حب ، وأنجب منها أطفالا جمالا مكتملى الصحة ، ولدين وبناتا ، وترث وأشتري أرضا فى أطراف المدينة وبنى منزلا وكل أحد تذهب العائلة جميعها لتفقد أشغال البناء . كنت لا أصغى لشيء : خلال هذه السنوات العشر لم أترك منضدتى : قصير وذو شارب مثل أبى وجالس على كومة من القواميس ، كان شاربى يبيض ، إن

معصمى يجرى دائماً وتسقط الكرايس على الأرضية الحشب الواحدة
بعد الأخرى . إن الإنسانية نائمة ، والوقت ليل ، امرأتى وأولادى
نائمون مالم يكونوا قد ماتوا وصاحبة غرفتى نائمة ؛ إن النوم قد عانى من
كل الذكاكرات . يالها من عزلة : ملياران من الناس بالطول وأنا فوقهم
الرقيب الوحيد .

كان الروح القدس ينظر إلى . كان فى التو قد اتخذ قرار العودة إلى
السما والتخلي عن البشر ؛ لم يكن لدى إلا الوقت الذى أقدم فيه نفسى ،
وأريته جروح روحى ، والدموع التى تبلل ورقتى ، كان يقرأ من فوق
كتفى وسكن غضبه . هل هذا بسبب عمق الآلام أو بسبب عظمة العمل ؟
كنت أقول فى نفسى : بسبب العمل ؛ وكنت أفكر خفية : بسبب الآلام .
يبد أن الروح القدس لا يقدر إلا الكتابات الفنية حقيقة ولكننى كنت
قد قرأت موسىه ، وعرفت أن الأغاني الأكثر بأساً هى أجمل الأغاني ،
وكنت قد قررت التقاط الجمال يأس واقع فى الفخ . إن كلمة عبقرية بدت
لى دائماً كلمة مشكوكا فيها : وذهبت إلى حد التقزز منها تماماً . أين يكون
القلق ، أين يكون الاختبار ، أين يكون الاغراء الفاضل ، أين يكون
الفضل أخيراً ، إن كانت لدى الملكة ؟ كنت أتحمّل بصعوبة أن يكون لى
نفس الجسم ونفس الرأس كل الأيام ، كنت لن أترك نفسى تسجن فى
جهاز . لقد قبلت تعينى على شرط ألا يستند على شىء ، أن يلع ، بجانا ،
فى الفراغ المطلق . كانت لى مفاوضات مع روح القدس : كان يقول لى
« سوف تكتب » . وكنت أقول له وأنا ألوئى يدي : « ما الذى عندى ،
أيها السيد ، كي تختارونى ؟ » — « لا شيئاً خاصاً . » — « لم أنا إذن ؟ »

— « بدون سبب . » — « هل لدى على الأقل بعض السهولة في الكتابة ؟ » — « ليست لديك أية سهولة . أنتقد أن الأعمال الكبرى تولد من الأقلام السهلة ؟ » « يا سيد ، بما أننى على هذا القدر من العجز ، فكيف أستطيع أن أولف كتابا ؟ » — « باجتهادك . » — « فأى إنسان يمكن أن يكتب إذن ؟ » — « أى إنسان ، ولكن أنت الذى اخترت . » إن هذا التحايل كان مريحاً جداً : كان يسمح لى بإعلان تفاهتى وفي الوقت نفسه بأن أبجل فى نفسى مؤلف روائع المستقبل . لقد أتخيت ووسمت ولكن بدون موهبة : كل شىء سوف يأتى بصبرى الطويل وعصائى ؛ كنت أنكر كل تفرد فى نفسى : إن ملامح الطبع تبرز ؛ لم أكن مخلصاً لشيء سوى للارتباط الملصكى الذى يقودنى إلى المجد بالعذابات . بقى أن أجد هذه العذابات ؛ كانت المشكلة الوحيدة ولكن كان يبدو أنها غير قابلة للحل بما أنهم زعوا منى أمل العيش تعيشا : سواء كنت مجهولاً أو مشهوراً ، فإننى سوف أكون مقيداً فى ميزانية التعليم ، ولن أجوع أبداً : ووعدت نفسى بأحزان حب كبيرة ولكن بلا حماس : كنت أكره المحبين المرتعدين ؛ كان سيرانو يحقنى ، هذا البردايان المزور الذى كان يقول هراء أمام النساء : إن بردايان الحقيقى كان يحجر كل القلوب خلفه دون أن ينتبه لذلك ؛ ومن الصواب أن تقول إن موت فيوليتا ، حبسته ، قد طغنت قلبه إلى الأبد . ترمل وجرح لا يندمل : بسبب ، بسبب امرأة ولكن لا بخطأ منه ؛ إن ذلك سوف يسمح لى بأن أرد مساعى كل الأخريات . وإن تعمقت فى الموضوع . ولكن ، لو سلت على أى حال ، بأن زوجتى الشابة التى من أوريكال تموت فى حادثة ، فإن

هذه المصيبة لن تكفى لانتخابي : إنها طارئة وعادية جداً في وقت معا ..
لقد انتصرت غضبي على كل شيء ؛ إن بعض المؤلفين الذين سخر منهم
وضربوا ، ظلوا حتى النفس الأخير في العار والظلام ولم يكلل المجد إلا
جشهم : ذلك مأساً كونه . سوف أكتب عن أورباك وعن تماثيلها
بموجب الضمير . ولما كنت عاجزاً عن أن أكره ، فإني لن أهدف إلا
للتوفيق والخدمة . ومع ذلك ، فإن كتابي الأول سوف يطلق الفضيحة
بمجرد ظهوره ، سوف أصبح عدوا عاما : سوف تسبني الجرائد التي تصدر
في مقاطعة الأوفرني وسوف يرفض التجار خدمتي وسوف يحطم التعمسون
زجاج نوافذي ؛ ولا أنجو من تنفيذ الجماهير حكم الإعدام في ، لا بد لي من
الهرب . سوف أصاب بالصرع أول الأمر وأقضى أشهراً في البلاهة ،
مكرراً بلا انقطاع : « ليس هذا سوى سوء تفاهم ! لأن الناس جميعا
طيون ! » وبالفعل فإن ذلك لن يكون إلا سوء تفاهم ، ولكن الروح
القدس لن يسمح بزواله . وسوف أبرأ ؛ وذات يوم سوف أجلس إلى
منضدتي وسوف أكتب كتاباً جديداً : عن البحر أو عن الجبل . ولن
يجد هذا الكتاب ناشراً . ولما كنت مطارداً ومتخفياً وربما منفياءً سوف
أكتب كتباً أخرى ، كتباً كثيرة أخرى ، سوف أترجم هوراس بالشعر
سوف أعرض أفكاراً متواضعة ومعقولة جداً عن علم التربة . ولكن
عبثاً : سوف تتكلم كراساتني في حقبة كبيرة دون نشر .

إن للقصة خاتمتين ؛ سوف اختار الواحدة أو الأخرى حسب مزاجي .
ففي أيامي البائسة أتصور نفسي أموت على سرير حديدي مكروها من الجميع
يأتسا في الساعة نفسها التي يضع المجد فيها فمه على تقيره . وأحيانا أخرى

كنت أمنح نفسي بعض السعادة . ففي سن الخمسين ، لأجرب قلدا جديدا كتبت اسمي على مخطوط ضاع بعد وقت قليل . ووجده أحدهم في الطابق الذي تخزن فيه الجيوب ، في النهر ، في خزانة داخل حائط بالمزل الذي تركته أخيراً ، قرأه ، وحمله مضطرباً إلى أرتيم فايار الناشر الشهير لمؤلفات ميشيل زيفاكو . كان ذلك نصراً : عشرة آلاف نسخة تخاطفها الناس في يومين . كم من تدم في القلوب . وأبى مائة مخبر صحفي للبحث عني ولم يثروا على . ولما كنت معتزلاً عن الناس فقد جهلت زمناً طويلاً هذا التحول في الرأي . وذات يوم أخيراً ، دخلت مقهى لأحتسى من المطر فلحمت جريدة متروكة ورأيت فيها « جان بول سارتر ، الكاتب انقنع ، الذي تغني بأوريالك ، شاعر البحر . » ينط كبير على ستة أعمدة وحروف التاج . فطرت فرحاً . كلا : إني أتلذ بسوداويتي . وعلى أى حال فقد عدت إلى غرفتي وبمساعدة صاحبها قفلت وربطت الحقية الكبيرة التي تحوى الكراسيات وشحتها إلى فايار دون أن أعطي عنواني . وفي هذه اللحظة من قصتي ، توقفت لأخوض في تدابير لذينة : لو أني أرسلت الطرد من ذات المدينة التي أقيم فيها لأسرع الصحفيون إلى اكتشاف عزلي حملت إذن الحقية إلى باريس ، وأرسلتها بواسطة وكيل نقل إلى دار النشر ؛ وقبل أن آخذ القطار ، عدت إلى أما كن طفولتي ، إلى شارع لوجوف وشارع سوفلو وحديقة اللوكسمبورج . لقد اجتذبتني حانة البازار وتذكرت أن جدي — وقد توفي منذ ذلك الوقت — كان يصعني إليها أحياناً ، في سنة ١٩١٣ : وجلسنا جنباً إلى جنب على المقعد ، وكان الجميع ينظرون إلينا وكأنهم متواطئون معنا ، وكان يطلب كوباً كبيراً من البيرة

ويطلب لى كوبا صغيراً ، كنت أشعر بأننى محبوب. إذن ، وأنا فى الحسين من عمرى وآسف على الماضى ، دفعت باب الحانة وطلبت كوبا صغيراً . وإلى المائدة القرية جلست شابات حسناوات يتحدثن بحوية وينطقن اسمى . وقالت إحداهن : « آه ! قد يكون عجوزاً وقد يكون دميماً ولكن ما أهمية ذلك : إبنى أعطى ثلاثين سنة من حياتى كي أصبح زوجته ! » لقد وجهت إليها ابتسامة غفيرة وحزينة وأجابتنى بابتسامة متعجبة وقت واختفيت .

قضيت وقتاً كثيراً فى تأليف هذه الحلقة ومئات الحلقات الأخرى التى أعفى القارئ منها . سوف يتعرفون خلالها على طفولتى نفسها وقد أسقطت على عالم مستقبل ، وعلى وضعى وابتكارات سننى السادسة وعلى تمرّد فرسانى المغامرين الذين لم يعترف بقدرهم . لقد تمرّدت أيضاً وأنا فى التاسعة من عمرى وكنت أفرح بذلك فرحاً بالغا : وباتمرّد كنت أحافظ ، وأنا شهيد قاس ، على سوء فهم كان الروح القدس نفسه يبدو أنه سئمه . لماذا لم أقل اسمى لهذه المعجبة الساحرة ؟ لقد قلت فى نفسى : لقد جاءت متأخرة كثيراً — ولكن بما أنها تقبلنى بأى حال ؟ — إذن لأننى فقير للغاية — فقير للغاية ! وحقوق التأليف ؟ إن هذا الاعتراض لم يوقفنى : لقد كتبت إلى فايار أن يوزع على الفقراء المال المائد لى . ولكن كان لابد من الحانة : حسناً ! فقد انطلقت فى غرفتى الصغيرة ، وقد تركنى الجميع ولكنى كنت مشرقاً : فقد أدبت رسالتى .

إن شيئاً أثر فى ، فى هذه القصة التى تكررت ألف مرة : فتمنذ اليوم

الذى رأيت فيه اسمى في الجريدة ، فإن لولبا قد انكسر ، لقد انتهت ؛
 إلى أمتع بحزن بشهرتى ولكنى لم أعد أكتب . إن التهايتين ليستا إلا
 نهاية واحدة : سواء مت لأولد للمجد أو آتى المجد أولا وقتلتى ، فإن شبهة
 الكتابة تخفى رضا للحياة . فى حوالى ذلك العصر هزت قصة مشاعرى
 لا أعرف أين قرأتها : حدثت فى القرن الماضى ؛ فى محطة صغيرة فى سبيربا
 كاتب يتمشى ذهابا وإيابا فى انتظار القطار . ليس هناك أى كوخ فى
 الأفق ولا أثر لحياة . إن الكاتب يتألم وهو يحمل رأسه الضخمة الحزينة .
 إنه مصاب بقصر النظر وعزيب وفظ ودائم الغضب ؛ إنه يتضايق ، ويفكر
 فى بروساتته وفى ديونه . وتظهر كونه شابة فى عربتها على الطريق الذى
 يسير فى محاذاة القضبان الحديدية : إنها تقفز من العربات وتجرى نحو المسافر
 الذى لم تره أبداً ولكن تدعى أنها تعرفه عن صورة فوتوغرافية أروها لها ،
 إنها تتحنن وتأخذ يده اليمنى وتقبلها . إن القصة تقف عند هذا الحد
 ولا أعرف ما الذى تريد أن تفهما إياه . ففى التاسعة من عمرى كنت
 أتعجب لهذا المؤلف التذمر الذى وجد قارئاته له فى الاستبس ، ولأن سيدة
 على هذا القدر من الجمال جاءت لتذكره بالمجد الذى نسيه : إنها ولادة .
 ولكنها موت فى الواقع : كنت أشعر بذلك وكنت أريده كذلك ؛ إن
 أحد أفراد عامة الشعب لم يكن يستطيع أن يحصل من ارستقراطية على مثل
 هذا الدليل على الإعجاب . كان يدعى الكونتيسة أنها تقول له : « إن
 كنت تمكنت من الحبيب إليك ومن لسك ذلك أنه لم تعد هناك أية حاجة
 للمحافظة على ارتفاع الطبقة ؛ إلى لا أهتم بما سوف تراه من عملى ، فلم
 أعد أعتبرك إنسانا ولكن رمزاً لملك . » لقد قتل بقبلة على يده : على

بعد ألف فرست^(١) من سانت بطرسبورج وعلى مدى خمس وخمسين سنة من مولده ، إن مسافراً قد ثار إن مجده يغيه ولا يترك منه بحروف من لهب إلا قاعة مؤلفاته . ورأيت الكونتيسة تصعد إلى عربتها وتحتفى ويعود الاستبس إلى عزله؛ وفي الغسق لا يقف القطار في المحطة ليموض تأخيرته ، لقد شعرت في تجويف كليتي بقشعريرة الخوف ، وتذكرت دريح في الأشجار ، وقلت في نفسي : « إن الكونتيسة هي الموت ، لسوف تأتي ذات يوم في طريق مقفر ، وتقبل أصابعي .. »

كان الموت دوارى لأننى لم أكن أحب الحياة : ذلك ما يفسر الهلع الذى كان يوحىه إلى . وبتأمله مع المجد جعلته وجهتى . أردت الموت ؛ وأحياناً كان الهول يحمّد فراغ صبرى : ولكن ليس لزمن طويل ؛ كان فرحى المقدس يبعث من جديد ، وأنتظر لحظة زول الصاعقة لأشتمل حتى العظم . إن نياتنا العميقة هي مشروعات وهروب مترابطة دون فكاك : إن مشروع الكتابة المحنون الذى يميز وجودى أرى جيداً أن فيه بعض الواقع على الرغم من التبجح والأكاذيب : والبرهان على ذلك أتى ما زلت أكتب بعد خمسين سنة . ولكن إن رجعت إلى الأصول رأيت هروباً إلى الأمام ، واستجاراً ساذجاً ، نعم كنت أبحث عن الموت أكثر من بحثى عن اللحمة والاستشهاد . لقد خشيت زمناً طويلاً أن أنهى كما بدأت فى أى مكان وبأية طريقة ، وأن يكون هذا الموت المبهم انعكاساً لولادتى

(١) الفرست يساوى ١٠٦٧ متراً . وكان مستعملاً فى روسيا القيصرية .

(المترجم)

المهمة . إن موهبتي غيرت كل شيء : إن ضربات السيف تزول ، ولكن
الكتابات تبقى ، واكتشفت أن المعطى ، في الآداب ، يمكن أن يتحول
إلى عطائه نفسه ، أى إلى شيء خالص . لقد جعلتني الصدفة إنسانا وسوف
يجعلني الكرم كتابا ، سوف استطيع أن أصب رسالتي وضميري في حروف
من برونز وأن أحل محل ضوضاء حياتي كتابات لا تمنحى ومحل لمحي أسلوبي
ومحل لولية الزمن الرخوة ، الأبدية وأن أبدو أمام الروح القدس ترسيما
للغة ، وأن أصبح فكرة ملحة على الجنس البشرى ، وأخيراً أن أكون
مختلفا ، مختلفا عن نفسي وعن الآخرين وعن كل شيء . سوف أبدأ
بإعطاء نفسي جنبا لا يبلى ثم أسلم نفسي للمستهلكين . لن أكتب للسرور
الذى تجلبه الكتابة ولكن كي أمتح جسم المجد هذا في الكلمات . وعندما
أتأمل ولادتي من أعلى قبري فلأنها تبدو لي شراً لا بد منه ، وتجيئاً
مؤقتاً بعد تغير هياكلتي : كي أولد من جديد كان يجب أن أكتب ، وكى
أكتب كان لابد من مخ ومن عيني وذراعي ؛ فإذا ما انتهى العمل
فإن هذه الأعضاء تحتفى من لقاء نفسها : ففي حوالى سنة ١٩٥٥ انفجرت
يرقة وخرج منها خمس وعشرون فراشة من القطع الكبير ترفرف بكل
صفحاتها لتحط على رف من رفوف المكتبة الأهلية ، إن هذه الفراشات
ليست سوى . أنا : خمسة وعشرون مجلداً وعمانية عشر ألف صفحة
مكتوبة وثلاثمائة صورة ، من بينها صورة المؤلف . إن عظامي من جلد
ومن الورق المقوى ولحمي شاحب تبعث منه رائحة الصمغ وعش الغراب
وخلال ستين كيلو جراما من الورق أتعظم بكل راحة . إنى أولد من
جديد ، وأصبح أخيراً إنسانا كاملا ، يفكر ويتكلم ويغنى ويصيح ويثبت

وجوده بفضل القصور الذاتى . ويا خذونى ويفتحونى ويسيطونى على المنفعة . ويتحسسونى براحة اليد وأحياناً يحملونى أفرقع . وأتركهم يفعلون بى ما يريدون ثم ألمع فجأة ، وأبهر وأفرض نفسى من بعد ، إن سلطأتى تعبر الفضاء والزمان وتصعق الأشرار وتحمى الأبرار . لا يستطيع أحد أن ينسانى أو ألا يتحدث عني : إننى تعويذة كبيرة ، سهلة التداول ومرعبة . إن ضميرى متفتت : وهذا أفضل . إن ضماير أخرى تولت أمري . إنهم يقرأوننى وأنا واضح ؛ ويكلموننى وأنا على كل الألسنة ، لغة عالمية وفريدة ، وأجعل من نفسى بالنسبة للملايين الأنظار تحفة جديدة بالدراسة وبالنسبة للذى يعرف كيف يحببى ، فأنا موضع قلقه السكامن فى أعماقه ، ولكن إن أراد أن يلمسنى ، فإنى أعمى واحتفى : إني لا أوجد فى أى مكان ، إني أكون أخيراً ! أكون فى كل مكان ، متطفلاً على الإنسانية فإن حسناى تمذهبها وتجبرها دائماً على بث غيائى .

وتنجح هذه الخدعة : وأكفن الموت فى كفن المجد ، لم أعد أفكر إلا فى هذا المجد لا فى هذا الموت أبداً ، دون أن ألاحظ أنهما ليسا إلا واحداً . وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر ، فإنى أعرف أننى أخذت زمنى تقريباً . ومع ذلك فإنى أتحيل بوضوح ، دون ابتهاج كبير ، الشيوخوخة التى تقترب وهرمى القادم ، هرم وموت الذين أحبهم ؛ أما موتى فأبداً . ويحدث لى أن ألمح لأقربائى — وبعضهم يصغرنى بخمس عشرة أو بعشرين أو بثلاثين سنة — بأننى سوف أحزن كثيراً على بقائى حياً بعدهم : فيستخرون منى وأضعك معهم ولكن لن يحدث ذلك : ففى التاسعة من عمرى حرمتنى عملية جراحية فى عيني من القدرة على الاحساس بأشياء

لازمة لمهنتنا . وبعد ذلك بعشر سنوات ، وفي مدرسة المعلمين أيقظت حاجة هذه الحالة بعضا من خير أصدقائي . مرعويين أو مغناطين : كنت انخر كقارع الأجراس . بعد مرض خطير أكد لنا أحدهم أنه عرف أهوال الاحتضار حتى آخر نفس ؛ كان نيزان أكثرهم قلقا : فكان أحيانا يرى نفسه جثة في عز سهاده ؛ وكان ينهض ، وقد امتلأت عيناه بالودود ويأخذ وهو يتحسس في الظلام قبعة الإيطالية ذات القلنسوة المستديرة ويحتفى ؛ وكان يثر عليه في اليوم الثالث سكران مع بعض الأشخاص غير المروفين . وأحيانا ، في غرفة ، كان هؤلاء المحكوم عليهم يقصون بعضهم لبعض لياليهم البيضاء وتجاربهم السالفة عن العدم : كانوا يفهمون بعضهم بعضا بالتلميح السريع . وكنت أصغى إليهم وكنت أحبهم بحيث كنت أعنى بكل جوارحي أن أشبههم ، ولكن عبثا ، فإني لم أكن أفهم ولم أكن أحفظ إلا أقوالا عادية من التي تردد في المآتم : إتنا نعيش ونموت ، ولا نعرف من الذي يعيش ومن الذي يموت ؛ قبل الموت بساعة واحدة نكون أحياء بعد . لم أكن أشك أنه يوجد في حديثهم معنى لا أفهمه ؛ كنت أسكت . تأكلني الغيرة . وكأني في النقي . كانوا يلتفتون إلى آخر الأمر متضايقين سلفا : « إلا يؤثر ذلك فيك ؟ » وكنت أفرد ذراعي دليلا على عجزى واستكانتي . وكانوا يضحكون غيظا وقد بهرهم الوضوح الخفيف الذي لم يتمكنوا من نقله لي « ألم تقل في نفسك أبدا وأنت تنام أن هناك أناسا يموتون أثناء نومهم ؟ ألم تفكر أبدا وأنت تغرس أسنانك ؟ أن تلك هي المرة ، وذلك هو يومى الأخير ؟ ألم تشعر أبدا بأنه يجب الإسراع ، الإسراع ، الإسراع . وأن الوقت غير كاف ؟ أعتقد أنك خالد ؟ » كنت أجيب نصف متحدا

ونصف مندفع : « نعم : أعتقد أنى خالد . » لم يكن هناك أكثر زيفاً من ذلك : فقد كنت توقيت من الموت المفجئى ، هذا كل ما فى الأمر ؟ لقد طلب جنى الروح القدس مؤلفاً ضخماً ، وكان لابد أن يترك لى الوقت لإكماله . ولما كنت ميتاً شرفياً ، فإن موتى الذى كان يحمىنى من حوادث خروج القطارات من الخطوط واحتقان الرئة والتهاب البريتون : لقد ضربنا لأنفسنا موعداً أنا وهو ؛ فإذا وصلت إلى الموعد مبكراً ، فإننى لن أجده ، وفى استطاعة أصدقائى أن يأخذوا على عدم تفكيرى فيه : إنهم يجهلون أنى لم أقطع دقيقة واحدة من العيش فيه .

واليوم فإنى أعطيهم الحق : لقد قبلوا كل شىء فى وضعنا ، حتى الهلق ؛ بينما اخترت الاطمئنان ؛ وفى الواقع ، كان اعتقادى بأنى خالد أمراً حقيقياً جداً : لقد قتلت نفسى سلفاً ذلك لأن الموتى هم وحدهم الذين يتمتعون بالخلود . كان « نيزان » و « ماهو » يعرفان أنهما سوف يكونان موضع اعتداء وحشى ، وأنهما سوف ينزعان من العالم وهما ممتلكان حياة ودما . أما أنا ، فكنت أكذب على نفسى : ولا تنزع من الموت بربريته ، فقد جعلته هدفى ، ومن حياتى الوسيلة المعروفة للموت : إننى أذهب وئيداً إلى نهائى ، وليس لى من آمال ورغبات إلا ما يلزم لأملاً كتبى ، متأكداً من أن آخر نبضة من قلبى سوف تسجل على آخر صفحة من آخر مجلد من مؤلفاتى وأن الموت لن يأخذ إلا ميتاً . كان « نيزان » ينظر ، وهو فى العشرين من عمره ، النساء والسيارات وكل متاع هذا العالم فى عجلة شديدة يائسة : كان لابد أن يرى كل شىء وأن يأخذ كل شىء فى الحال . وكنت أنا أيضاً أنظر نظرة بها من الحماسة أكثر مما بها من

الاشتناء : فلم أكن على الأرض لأتمتع ولكن لأضع قائمة حساب. كان ذلك مرحاً جداً : فبخجل طفل مسرف في التعقل وعن جين ، راجعت أمام مخاطر وجود مفتوح وحر ، وبلا ضمان صادر من العناية الإلهية ، أقنعت نفسي بأن كل شيء مكتوب من قبل ، بل منته .

يبد أن هذه العملية الزورة كانت توفر على مايفرنى بحب نفسي . ولما كان كل واحد من أصدقائي مهتداً بالفناء ، فإنه كان يحتفى بصفة حياته الماتة ، تلك الصفة التي لا يمكن إحلال شيء آخر محلها وبحسب نفسه مؤثراً ومميّناً وفريداً ؛ كان كل واحد راضياً عن نفسه ؛ أما أنا ، الليت ، فلم أكن راضياً : كنت أجد نفسي عادياً جداً ، أكثر إضجاراً من كورنى الكبير وإن غرابة موضوعي لم تكن لها أهمية في نظري إلا في أنها تعد اللحظة التي تخيلني إلى شيء . هل كنت في ذلك أكثر تواضعاً ؟ كلا ، لقد كنت أكثر مراوغة : لقد كلفت أعقابي بأن يحبوني مكاني ؛ وبالنسبة لرجال ونساء لم يكونوا قد ولدوا بعد ، سوف يكون لي سحر ، في يوم من الأيام ، شيء لا أعرف ماهو ، سوف أصنع سعادتهم . كنت أدهى أيضاً وأكثر مراعاة : إن هذه الحياة التي كنت أجدها مملة والتي لم أعرف أن أصنع منها سوى أداة موتى ، كنت أعود إليها سرّاً لأقدها ؛ كنت أنظر إليها خلال عيون مستقبلية وكانت تبدو لي قصة مؤثرة وعجيبة ، كنت قد عشتها من أجل الجميع ، وبفضلي لن يتحتم على أحد أن يعيشها من جديد وأنه يكفي أن تحكى . لقد وضعت فيها فورة حقيقية : لقد أخذت كمستقبل ماض ميت كبير وحاولت أن أعيش بالعكس . فبين التاسعة والعاشر أصبحت عملاً منشوراً بعد وفاة مؤلفه .

لم يكن ذلك خطئى كله : فقد ربانى جدى فى الوهم المتعلق بالماضى - وليس هو أيضاً مذنباً وأنا لا أحقد عليه : إن هذا السراب يولد تلقائياً من الثقافة . وحين يحتفى الشهود ، فإن موت رجل عظيم يكف إلى الأبد عن أن يكون جلاً فجائياً ، إن الزمن يحمل منه عملاً صادراً من طبيعة الرء . إن الراحل العجوز هو مائت أساساً ، إنه كذلك فى التعميد وفى السعة الأخيرة ^(١) ، لا أكثر ولا أقل ، إننا ندخل فيه من طرف ، ومن آخر ومن الوسط ونزل منه ونصعد مجراه كما نشاء : ذلك أن الترتيب الزمنى قد انهار ؛ ومن المحال اعادته : إن هذا الشخص لا يتعرض لأى خطر وأنه لا ينتظر إلا أن تؤدى دغدغة منخره إلى العطس . إن لوجوده مظاهر تسلسل الأحداث ولكن ، ما أن يراد إعادة قليل من الحياة إليه ، فإنه يسقط من جديد فى العمية ^(٢) . إنك عبثاً تحاول أن تضع نفسك فى مكان الراحل ، وأن تتظاهر بأنك تشاطره أهواءه وجهله وأحكامه المسبقة ، وبأنك تبث إلى الحياة مقاومات قد ألفت ، وشيئاً من قلة الصبر أو الخوف ، فانك لا تستطيع أن تمنع نفسك من تقدير سلوكه على ضوء نتائج لم يكن فى الامكان استدراكها ، ومعلومات لم تكن لديه ، ولا أن تضيفى رسمية خاصة على أحداث وسمتها نتائجها ولكن كان قد عاشها باهمال . هذا هو السراب : المستقبل أكثر واقعية من الحاضر . إن ذلك لن يدهش : ففى حياة تمت ، تؤخذ النهاية على أنها حقيقة البداية . إن الراحل

(١) عند المسيحيين يقوم الكاهن بمسح جبين المحتضر بالزيت المقدس (المترجم)

(٢) لم أجد تعبيراً آخر لترجمة Simultanéité أى وقوع الحوادث كلها فى آن واحد (المترجم)

يظل في منتصف الطريق بين الكائن والقيمة بين الواقع الخام وتجديد
البنیان ؛ إن قصته تصبح نوعاً من الجوهر الدائري الذي يتلخص في كل
لحظة من لحظاته . في صالونات أراس^(١) ، نرى محامياً شاباً ، جامداً
ومتدلاً يحمل رأسه تحت ابطة لأنه المرحوم روبسيير ، إن هذه الرأس
تقطر دماً ولكنها لا تنسج السادة ؛ إن أحداً من المدعويين لا يلحظها ونحن
لا نرى غيرها ؛ إن أمامها خمس سنوات لتدحرج في السبت ، ومع ذلك
هاهي ذى تشدد قصائد قصيرة وهي مقطوعة ، على الرغم من فكها المتدلى .
إن خداع النظر هذا ، وقد عرف ، لا يضايق : فلدينا وسائل تصحيحه ؛ غير
أن أدباء ذلك العهد كانوا يخفونه ، لأنهم كانوا يغدون مثاليهم به . وكانوا
يلمحون : إن أرادت فكرة كبيرة أن تولد فإنها تذهب إلى بطن امرأة
لتستولى على الرجل العظيم الذي سوف يحمل هذه الفكرة ؛ وهي تختار له
بيته وتحدد بدقة درجة ذكاء أقربائه وعدم إدراكهم ، وتعين تربيته وتخضعه
للتجارب اللازمة وتكون له في لسات متلاحقة طبعاً غير ثابت تتحكم في
عدم توازنه حتى ينفجر الشيء موضع هذه العناية الزائدة وهو يلدها . إن
ذلك لم يعلن عنه في أى مكان ، ولكن كل شيء يوحى بأن تسلسل
الأسباب يغطي نظاماً معكوساً وسرياً .

كنت أستخدم هذا السراب بحماس لأفرغ من ضمان مصري . وأخذت
الوقت ووضعت أسفله فوق رأسي واتضح كل شيء . لقد بدأ ذلك بكتاب
صغير كحلى داكن ذى حليات مذهبة اسودت بعض الشيء وكانت تقوحن من

(١) مسقط رأس روبسيير (المترجم) .

أوراقه السمكة رائحة الجثث وكان عنوانه : « طفولة العطاء » ؛ وعليه بطاقة تبين أن خالي جورج حصل عليه في سنة ١٨٨٥ كجائزة ثانية في الحساب . وكنت قد اكتشفته خلال رحلاتي العجبية وقلبت صفحاته ثم ألقيت به عن ضيق . إن هؤلاء المختارين الصغار لا يشبهون الأطفال النوايح في شيء . إنهم لا يقتربون مني إلا بتفاهة صفاتهم ، وكنت أسأل نفسي لماذا يتكلمون عنهم . وأخيراً اختفى الكتاب : فقد قررت أن أعاقبه بإخفائه . وبعد ذلك بسنة قلبت كل الأرفف بحثاً عنه : لقد تغيرت . إن الطفل النابغة قد أصبح رجلاً كبيراً فريسة للطفولة . وبالمثل من مفاجأة : لقد تغير الكتاب هو أيضاً . كانت الكلمات هي ذاتها ولكنها كانت تحدثني عن نفسي . لقد شعرت بأن هذا الكتاب سوف يضيئني ، فكرهته وخفت منه . وكل يوم ، قبل أن أفتحه ، كنت أذهب للجلوس إلى النافذة : ففي حالة الخطر ، سوف أدخل إلى عيني الضوء الحقيقي للنهار . إن هؤلاء الذين يرثون لتأثير فاستوماس أو أندريه جيد يضحكونني اليوم كثيراً : هل يستقدون أن الأطفال لا يختارون سمومهم بأنفسهم ؟ كنت أبلغ سبى بالصرامة القلقة لمدني المخدرات ، وكان يبدو مع ذلك غير مضر . كانوا يشجعون القراء الصغار قائلين إن حكمة الأبناء وتقواهم تؤديان إلى كل شيء ، حتى إلى أن يصبحوا رامبرانت أو موزار . كانوا يروون في قصص قصيرة الاهتمامات العادية جداً لصبيان عاديين ولكنهم حساسون ورعون يتسمون بجان سبستيان أو بجان جاك أو بجان باتيست ، وكانوا يسعدون أقرباءهم كما كنت أسعد أقربائي . ولكن ها هنا السم : فقد كان المؤلف ، دون أن يلفظ قط اسم روسو وباخ ومولير ، يتفنن في التلميح في كل مكان إلى

عظمتهم القادمة ، وفي التذكير في غير احتفال عن طريق تفاصيل صغيرة
عولقاتهم أو بأشهر أعمالهم ، وفي تدبير هذه القصص تدبيراً محكماً بحيث
لا يمكن فهم أثنه حادث دون ربطه بأحداث لاحقة ؛ وفي وسط الصخب
اليومي ، كان ينزل سكونا كبيراً أسطوريا ، غير هيئة كل شيء . وهذا
السكون كان المستقبل . إن المدعو سائيزو ^(١) كان يتحرق شوقاً إلى رؤية
البابا ؛ لقد بلغ به الشوق مبلغاً جعل أهله يصحبونه إلى الميدان العام في
يوم مرور الأب الأقدس فيه ؛ وأصفر وجه الصغير وحملق بعينه ، وقال
له أحدهم أخيراً : « أعتقد أنك مسرور يارافايللو ؟ هل نظرت إلى أيننا
الأقدس جيداً على الأقل ؟ » ، ولكنه أجاب شاردا : « أي أب أقدس ؟
إنني لم أر سوى ألوان » ، وفي يوم آخر ، كان الصغير ميغيل ^(٢) ، الذي
كان يريد أن يصبح جندياً ، جالسا تحت شجرة يتلذذ بقراءة رواية
فروسية حين سمع فجأة دوى حدائد جعله يرتجف . كان مجنونا عجوزاً من
الجيران ، وهو نبيل من الريف فقد ماله وكان يتجول على فرس ضعيف
ويسدد حربه التي علاها الصدا إلى طاحونة . وعلى العشاء قص ميغيل
الحادث بأسلوب فكاهي لطيف أضحك الجميع وملاً أشداقهم ؛ ولكن بعد
ذلك ، حين خلا لنفسه في حجرته ، ألقي بروايته على الأرض وداسها
بقدميه وأجهش بالبكاء طويلاً .

-
- (١) هو المصور والمهندس المعماري وعالم الآثار الإيطالي المشهور المولود في سنة
١٤٨٣ والتوفى سنة ١٥٢٠ (الترجم) .
- (٢) يقصد ميغيل دي سيرفانتيس الكاتب الأسباني مؤلف دون كيشوت
والتوفى ١٦١٦ (الترجم) .

إن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون في الخطأ : كانوا يعتقدون أنهم يملكون ويتكلمون صدقة ، في حين أن أقل ما يقولونه كان له هدف حقيقى ألا وهو إعلان مصيرهم . كنت أبادل مع المؤلف ، من فوق رؤوسهم ، ابتسامات مشفقة . كنت أقرأ حياة هؤلاء العاديين الزورين كما كونها الله مبتدئاً من النهاية . كنت أنهلل أولاً : إنهم أخوتى ومجدهم هو مجدى . ثم يسقط كل شيء : وأجد نفسى فى الجهة الأخرى من الصفحة ، فى الكتاب : إن طفولة جان بول تشبه طفولة جان جاك (١) وجان سياستيان (٢) . ولم يكن يحدث له شيء دون أن يكون له دلالة الواسعة . ولكن فى هذه المرة كان المؤلف يغمز بعينه لأحفاد أحوالى . فمن موتى إلى ولادتى كان أطفال المستقبل هؤلاء يروننى ، ولم أكن أنخلهم ، ولم أكن أتوقف عن أن أبعث إليهم برسائل لا أستطيع حل طلاسمها . كنت أرتجف مرتعداً من موتى ، المعنى الحقيقى لكل حركائى ، وكنت أحاول ، وقد خرجت عن ذاتى ، أن أعبر الصفحة من جديد فى الاتجاه العكسى وأن أجد نفسى فى جانب القراء . ورفعت رأسى وطلبت النجدة من الضوء : ولكن هذا أيضاً كان رسالة ؛ هذا القلق الفجائى ، هذا الشك ، حركة العينين والمنق. هذه ، كيف سوف تفسر فى سنة ٢٠١٣ ، حين يملكون المفتاحين اللذين كان عليهما أن يفضا غلافى : العمل والموت ؟ لم أستطع الخروج من الكتاب : لقد انتهت من قراءته منذ زمن طويل ولكنى ظلمت شخصا فيه . كنت أراقب نفسى : قبل ذلك بساعة كنت قد انتهت من الثرثرة .

(١) يقصد جان جاك روسو (المترجم) .

(٢) يقصد جان سياستيان باخ (المترجم)

مع أمي : ما الذي أعلته ؟ لقد تذكرت بعض أقوالى ، وكررتها بصوت عال ولكن ذلك لم ينفعنى بشيء . كانت الجمل تنزلق مغلفة ؛ وكان صوتى يطن فى أذنى كهوت أجنبى . وكأن ملاكا مختلسا يسلبنى أفكارى حتى داخل رأسى ، وهذا الملاك لم يكن سوى طفل أشقر بمض الشىء من القرن الثلاثين ، جالس إلى نافذة يراقبنى خلال كتاب . وفى رعب لذيذ شعرت بنظرتة تعلقنى بألاف سنة التى أسمى إليها . إنه يرى أننى أتخيل على نفسى فأصنع كلمات ذات معنيين كنت أطلقها علانية . كانت آن مارى تجدنى عند قطرى د أشخبط ، وكانت تقول : د ياله من ظلام ! إن ابنى العزيز يعمى عينيه . . وكانت فرصتى للرد بكل براءة : د أستطيع أن أكتب حتى فى الظلام . . كانت تضعك وتسمينى العييط الصغير ، وتضىء العرفة . لقد نمت الحيلة وكلانا يجهل أننى قد أخبرت توا عام ثلاثة آلاف بماهتى المستقبلية . وبالفعل ففى نهاية حياتى ، وقد أصبحت أكثر عمى مما كان يتهوفن أصم ، سوف أصنع آخر مؤلفاتى تحمسا فى الظلام . سوف يعثر على المخطوط فى أوراقى وسوف يقول الناس وقد خلب أملهم : د ولكن هذا لا يمكن قراءته ! ، ويذهب بهم التفكير إلى حد إلقائه فى صندوق القمامة . وتطالب به مكتبة البلدية فى أورباك آخر الأمر من قبيل الوفاء الخالص ، ويظل فيها منسيا مائة سنة . ثم ذات يوم ، جبالى ، سيحاول بعض العلماء الشبان حل طلاسمه ، ولهموف يقضون كل حياتهم لإعادة إنشاء ما سوف يكون بطبيعة الحال تحفى . كانت أمى قد غادرت العرفة ، وكنت وحيدى ، وكنت أكرر لنفسى ، ييطء ، دون أن أفكر فيها على الخصوص هذه العبارة د فى الظلام ! ، وسمعت صفة قوية : إن حفيد حفيد

ابن خالى ، وهو فوق ، كان يقفل كتابه : كان يحلم بطفولة خال خاله
وكانت الدموع تسيل على خديه وكان يقول متنهدا : إن ذلك الحقيقى ،
لقد كتب فى الظلمات ! .

كنت أتبخر أمام أطفال سوف يولدون كانوا يشبهوننى تماما . كنت
أستدر من نفسى دموعا وأنا أتذكر الدموع التى سوف أجعلهم يذرفونها .
كنت أرى موتى بعيونهم . لقد حدث ، وكان ذلك حقيقى ، وأصبحت
ترجمة وفاتى .

وبعد أن قرأ صديق لى ما تقدم ، نظر إلى نظرة يبدو عليها القلق ،
وقال لى : . لقد كنت مصابا أكثر مما كنت أتصور . ، مصاب ؟ لا أعرف .
أن هذيانى كان متقنا بوضوح . وكانت أهم مسألة فى نظرى هى الصدق .
ففى التاسعة من عمرى كنت أجلس بالقرب منه ؛ وبعد ذلك ذهبت
بعيدا جداً عنه .

فى البداية كنت سليما كالعين : كنت مزورا صغيرا يعرف أن يقف فى
الوقت المناسب . ولكنى كنت اجتهد . وحتى فى الحداغ ظلت قويا فى
الترجمة إلى لغة الغير ، واليوم أعتبر اتصالاتى تمرينات روحية ، وعدم
صدقى كاريكاتورا لصدق تام كان لا يتوقف عن ملاسقى ثم ينفلت منى .
إننى لم أختبر رسالتى : لقد فرضها على غيرى . والواقع أنه لم يحدث شيء .
كلمات فى الهواء ألقت بها امرأة عجوز ، ثم مكيا فيلية شارل . ولكن
كان يكفى أن أكون مقتنعا . إن الأشخاص الكبار القاعمين فى نفسى
كانوا يشيرون بأصبعهم إلى نجمى الذى لم أكن أراه وإنما كنت أرى

الإصبع وكنت أومن بهم وكانوا يدعون أنهم يؤمنون بي . لقد أخبروني بوجود أموات كبار - أحدهم سيكون في المستقبل - نابليون وعستوكليس وفيليب أوغسطس وجان بول سارتر . إنى لم أكن أشك في ذلك : وإلا كان ذلك شك فيهم . وكنت ببساطة أود أن التقى بالأخير وجها لوجه . كنت أبخلق وكنت أتلقى لأثير الوحي الذى يغمرنى ، كنت امرأة باردة . اختلاجاتها تعرض لى تحمل محل الإشباع الجنى . هل يقال عن هذه المرأة إنها متضمة أو إنها مجتهدة أكثر من اللازم ؟ وعلى أى حال فإنى لم أحصل على شيء ، فقد كنت دائما قبل أو بعد الرؤية المستحيلة التى سوف تكشفنى لنفسى ، وكنت أجد تقى فى آخر تمرناتى ، متشككا ، ولم أربح شيئا سوى بعض الاهتياج . ولما كان تفويضى قائما على مبدأ السلطة ، وعلى طيبة الأشخاص الكبار ، تلك الطيبة التى لا تنكر ، فإن شيئا لم يستطع أن يؤكد هذا التفويض أو يكذبه . ولما كان فى مأمن ومحتوما عليه ، فقد كان يمتك فى . ولكن ضعف ملكيتى له جعلنى لا أتمكن أبدا ، ولو للحظة ، من أن أشك فيه ، ولا أن أقدر أن أذوبه وأتمثله .

إن الإيمان لا يكون أبدا كاملا حتى لو كان عميقا . يجب ألا نكف عن دعمه أو على الأقل أن نمنع تقسنا من هدمه . كنت معدا لأن أكون عظيما ، وكان قبرى فى الأب لاشيز^(١) وربما فى الباتيون^(٢) وكان لى شارع فى باريس وحدائق العامة ومبائدى فى الأقاليم وفى الخارج : ولكن داخل

(١) مدافن باريس (المترجم) .

(٢) مدفن كبار رجال فرنسا (المترجم) .

التفاؤل غير المرئى وغير المسمى كنت احتفظ بالشك في عدم صلابتي . في مستشفى القديسة آن صاح مريض وهو في فراشه : « أنا أمير اليلق القبض على الفرندوق . » وكانوا يقتربون منه ويقولون له في أذنه : « أعط ! » وكان يحط ؟ وكانوا يسألونه : « ما هي صنعتك ؟ » ، فكان يجيب بركة : « صانع أحذية » ثم يستأنف الصباح . أعتقد أننا نشبه جميعا هذا الرجل . وعلى أية حال ، كنت أشبه وأنا في بداية التاسعة من عمري : كنت أميراً وصانع أحذية .

وبعد ذلك بستين اعتبروا أنني شفيت : لقد اختفى الأمير ، ولم يكن صانع الأحذية يؤمن بشيء ، ولم أعد أكتب ؛ لقد ألقيت كراسات الروايات في الزباله أو ضاعت أو أحرقت وترك مكانها لكراسات اعراب الجمل والاملاء والحساب . ولو أن أحدا دخل في رأسي المفتوحة لكل ربح لصادف فيها بعض التماثيل النصفية ، وجدول ضرب غير عادي ، والقاعدة الثلاثية ، واثنين وثلاثين مقاطعة بعواصمها ولكن بدون مراكرها ، وتصريف الأسماء اللاتينية ، وآثار تاريخية وأدبية ، وبعض حكم الأدب محفورة على نصب وأحيانا حلم يقظة سادي كوشاح من ضباب ممتد فوق هذه الحديقة الحزينة . لا « فتاة يتيمة » ولا أثر لفارس شجاع ! إن الكلمات : بطل وشهيد وقديس لم تكن مكتوبة في أى مكان ، ولم يكن هناك أى صوت يرددها . إن برديان سابقا كان يتسلم كل ثلاثة شهور نشرات صحية مرضية . طفل متوسط الذكاء وعلى جانب عظيم من الخلق ، موهبته قليلة في العلوم الدقيقة ، خيالى بدون مبالغة ، حساس ؛ طبيعة كاملة على الرغم من بعض التنكف الآخذ في التقلص . غير أنى كنت

أصبحت مجنوناً تماماً . حدثان أحدهما عام والآخر خاص قد طيرا القليل
الباقى من عقلى .

كان الحدث الأول مفاجأة حقيقية : ففي شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، كان
لا يزال يوجد بعض الأشرار ؛ ولكن فى ٢ أغسطس^(١) استولت الفضيلة
على السلطة فجأة وأصبحت الحاكمة : وأصبح جميع الفرنسيين أختيارا .
وكان أعداء جدى يرتمون بين ذراعيه ، وتطوع بعض الناشرين ، وكان
السوقة يتبأون ، وكان أصدقاؤنا يجمعون المبارات البسيطة العظيمة التى
يقولها البواب وساعى البريد والسيالك وكانوا يتقانونها إلينا ، وكان الجميع
يهللون تعجبا ، عدا جدى المتشككة حقا . كنت سعيدا : كانت فرنسا تمثل
على ، وكنت أمثل على فرنسا . ولكن ما لبثت الحرب أن سببت لى
الملل : إذ كانت تضايق حياى قليلا جداً بحيث أنى نسيها حتما ؛ ولكنى
تفرزت منها حين لاحظت أنها نحطم مطالعاتى . فقد اختفت مطبوعاتى
المفضلة من أكشاك الجرائد ؛ وترك أرنو جالوبان وجوفال وجان دى
لاهير أبطالهم للألوفين ، هؤلاء المراهقين إخوانى الذين كانوا يدورون
حول العالم بطائرة ذات جناحين وبطائرة مائة والذين كانوا يتصارعون
اثنين أو ثلاثة ضد مائة ؛ وتركت روايات ما قبل الحرب الاستعمارية
مكانها للروايات الحرية المثلثة بالبحارة الصغار والشبان الأتراضين
والأيتام وتماويذ الفرقة . كنت أكره هؤلاء القادمين الجدد . كنت
أعتبر مغامرى الغابات الصغار أطفالا نوانغ ، لأنهم كانوا يذبحون السكان

(١) يشير المؤلف إلى اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على فرنسا فى
سنة ١٩١٤ (المترجم) .

الأصليين الذين هم كبار بعد كل شيء . ولا كنت أنا تقسى طفلاً نابغا فقد كنت أتعرف على تقسى فيهم . ولكن كل شيء كان يحدث خارج هؤلاء الأطفال المجندين . فالبطولة الفردية تترشح ، فأمام المتوحشين كان يدعمها التفوق في السلاح ؛ ولكن ما العمل أمام مدافع الألمان ؟ كان لابد من مدافع أخرى ورجال مدفعية وجيش . ووسط الجنود الشجعان الذين كانوا يرتبون على رأسه والذين كانوا يحمونه ، كان الطفل الناضج يعود إلى الطفولة ، وكنت أعود إليها معه . وكان المؤلف يكافئني من آن لآخر - شفقة بي - أن أحمل رسالة ، وكان الألمان يلقون القبض على ، وأجوابهم بعض الإجابات التكبرية ثم أهرب وأعود إلى خطوطنا وقد آمنت مهمتي . وكانوا يهتفونني بكل تأكيد ولكن بدون حماس حقيقي ، ولم أكن أجد في عيني الجذال الأبوية النظرة المفتونة التي كانت للأرامل والأيتام . لقد كنت فقدت اليقظة : كانوا يكسبون المعارك وسوف يكسبون الحرب بدوني ؛ إن الأشخاص الكبار استردوا احتكار البطولة ، كان يحدث أن التقط بندقية قنبل وأن أطلق بعض الرصاصات ، ولكن لم يحدث قط أن سمح لي أرنو جالوبان وجان دي لاهير أن أهجم بالسونكي . ولا كنت صيياً بطلاً فقد كنت أنتظر بفارغ صبر سن دخول الجندية . ولكن بالأحرى لا : كان الطفل الذي يتبع الجيش الذي كان ينتظر ، كان يتم الأزمات . لقد انسحبت منهم وأقفلت الكتاب . كنت أعرف أن الكتابة عمل طويل غير مثمر ، ولسوف أكون صبوراً كل الصبر . ولكن القراءة كانت عيذاً : كنت أريد كل الأعجاب في الحال . وأى مستقبل يعرضونه علي ؟ أن أصبح جندياً ؟ يالها من صفقة رائجة ! إن الجندي حين يكون وحيداً

لا يعتبر أكثر من طفل . إنه يهجم مع الآخرين وإن الفرقة هي التي
تكتسب المرمكة . لم أكن أهتم بأن اشترك في انتصارات جماعية . وحين
كان أرنو جالوبان يريد أن يميز جندياً لم يكن يجد خيراً من أن يرسله
لنجدة ضابط جريح . إن هذا التفاني الحفي كان يضايقي : إن العبد يتقذ
السيد . ثم إنهما لم تكن إلا شجاعة مناسبة ، ففي زمن الحرب تقسم
الشجاعة خير تقسيم . وبشيء من الحظ يؤدي أي جندي آخر العمل نفسه .
وكان ذلك يثيرني : لأن ما كنت أفضله في بطولة ما قبل الحرب كان هو
الوحدة وتلقائيتها . كنت أترك ورأى الفضائل اليومية الشاجبة ، كنت
ابتكر الرجل لي وحدي عن كرم ؛ الدوران حول الأرض بطائرة مائية ،
و مغامرات صبي من باريس ، و الكشافون الثلاثة ، إن كل هذه
النصوص المقدسة كانت توجهني على طريق الموت والبعث . ولكن ها هم
المؤلفون يخونونني خيانة : لقد وضعوا البطولة في متناول الجميع ؛ إن الشجاعة
والتضحية بالنفس أصبحتا فضائل يومية ؛ والأنكى من ذلك أنهم كانوا
يزلونها إلى مصاف الواجبات البدائية جداً . وكان تغير الديكور على
صورة هذا التغير : فقد حل ضباب الأرجون^(١) الجماعي محل الشمس
الكبيرة الوحيدة والضوء الفردي في خط الاستواء .

وبعد انقطاع دام بضعة أشهر ، قررت أن أعود إلى القلم لأكتب
رواية حسب وحي قلبي ولأعطي لهؤلاء السادة درساً طيباً . كان ذلك في
أكتوبر سنة ١٩١٤ ولم نكن قد تركنا أركشون . اشترت أمي كراسات .

(١) متعلقة تتألف من اللال والغابات تقع إلى شرق باريس . كانت مسرحاً
لبعض المعارك الحربية في الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

من نوع واحد كلها : وعلى غلافها البنفسجي صورة جان دارك وعلى رأسها خوذة ، علامة الزمن . وفي حى هذه القديسة (١) أخذت أكتب قصة الجندى بيران الذى يخطف أمبراطور المانيا ويأتى به داخل خطوطنا مكبلا ، ثم يدعو به إلى البارزة أمام الفيلق مجتمعا ، ويلقيه أرضا ويحجبه ، وسيفه على عنقه ، أن يوقع صلحا شائنا وأن يعيد إلينا مقاطعتى الأتراس واللورين . وبعد أسبوع أضجرتنى قصتى ، لقد أخذت فكرة البارزة من روايات الطعن والزال : إن ستورت بكر وهو من أبناء السيوتات ومنفى يدخل حانة لقطاع الطريق . فيسبه عملاق . هو رئيس العصاة ، فيقتله ضربا يقبضتى يديه ، ويأخذ مكانه ويخرج ملكا على المرتزة فى اللحظة المناسبة لانزال جيشه فى سفينة للقرصة . كانت قوانين ثابتة تحكم الحفلة : كان يجب أن يظهر بطل الشر بمظهر الإنسان الذى لا يقهر وأن يتصارع بطل الخير وسط السخرية ، وأمام انتصاره غير المتوقع يتجمد الذين كانوا يسخرون منه من شدة الملح غير أنى فى تجربتى الفجة خالفت كل القواعد وفعلت عكس ما كنت أتمنى : فعلى الرغم من قوة الإمبراطور فإنه لم يكن مقتول الذراع . وكانوا يعرفون مقدما أن بيران المصارع العظيم سوف يلتهمه لقمة سائغة . ثم كان الجمهور معاديا له ، إن جنودنا يصرخون فى وجهه بكراهيتهم على نحو تركنى مبهوتا ، واغتصب غليوم الثانى المجرم ولكنه الوحيد ، وقد أوسع سخرية وبصقا ، عزلة أبطالى الملكية تحت بصرى .

وكان هناك ماهو أنكى . فحتى ذلك الحين لم يكن هناك ما يثبت أو

يكذب ما كانت لويز تسميه ، أعمالى التى أنهكت نفسى فى تأليفها ، : كانت .
 أفريقيا واسعة وبعيدة وقليلة السكان ، والأخبار ناقصة ، ولم يكن أحد قادرا
 على أن يثبت أن مستكشفى لم يكونوا هناك وأنهم لم يكونوا يطلقون الرصاص .
 على الأقزام فى نفس الساعة التى كنت أصف فيها قتالهم . لم أكن أذهب
 إلى حد اعتبارى نفسى مؤرخهم ، ولكن من كثرة ما سمعت عن حقيقة
 الروايات الخيالية فقد اعتقدت أننى أقول الحقيقة خلال أساطيرى . بطريقة
 لم أكن أدركها بعد ولكنها سوف تكون واضحة كالشمس بالنسبة لقراءى .
 فى المستقبل . ولكن فى شهر أكتوبر المشؤم هذا ، حضرت ، عاجزاً ،
 اصطدام الخيال بالواقع فامبراطور ألمانيا الذى ولد من قلمى ، هزم وأمر
 بوقف إطلاق النار ؛ فكان المنطق يحتم أن يرى خريفنا عودة السلام ؛
 ولكن فى ذات الوقت كانت الصحف والكبار يرددون صباح مساء أننا
 استقررنا فى الحرب وأنها سوف تطول . وشعرت بأنى خدعت : لقد كنت
 دجلاً ، وكنت أحكى ترهات لا يريد أحد أن يصدقها : وباختصار فقد
 اكتشفت الخيال . ولأول مرة فى حياتى قرأت نفسى . واحمر وجهى خجلاً .
 لقد كنت أنا ، أنا الذى رضيت بهذه الأحلام الصيانية ؟ وكدت أترك
 الأدب : وأخيراً حملت كراسى إلى الشاطئ ودفنتها فى الرمل . وزال
 ضيقى ؛ واستمدت ثقتى : كانت لى دعوة بلا أدنى شك ؛ ولكن للأدب .
 سرها الذى قد تكشفه لى فى يوم من الأيام . وإلى أن يحين ذلك اليوم
 فإن سنى تأمرنى بأن أبالغ فى التحفظ . وابتظمت عن الكتابة .

وعدنا إلى باريس . وتركت إلى الأبد أرنو جالوبان وجان دى لاهير :
 فإنى لم أكن أستطيع أن أغفر لهذين الإتهامين إلتصارهما عنى . وأبديت .

استيائي من الحرب ، اللحمة الرديئة ، وفي مرارة هربت من العصر ولجأت إلى الماضي . وقبل ذلك بيضمة اشهر . في آخر السنة ١٩١٣ ، كنت قد اكتشفت نيك كارتر وبفالويل ونيكساس جالك وستيج بول : وقد اختفت هذه المطبوعات منذ بداية الأعمال الحزبية : وادعى جدى أن الناشر كان المانيا ولكننا كنا نجد لحسن الحظ عند بائعى الكتب القديمة على أرصفة السين أغلب الأعداد التي ظهرت . وجررت أمى على ضفاف السين وقمنا بنيش الصناديق واحدا واحدا من محطة أورسى إلى محطة أوسترليتز وكان يحدث أن نعود بخمس عشرة ملازمة معا ؛ وما لبث أن أصبح عندي خمسمائة ملازمة وكنت أرتبها في أكوام مرصوفة . وكنت لا أمل من عدها وأن أنطق بصوت عال عناوينها الغامضة ؛ « جريمة فى منطاد » ، « التعاقد مع الشيطان » ، « عبيد البارون موتوشيمى » ، « بعث دازار » . وكنت أحب أن تكون أوراقها قد اصفرت وامتلأت بالبقع وتصلبت برائحة غريبة تشبه رائحة الأوراق الذابلة . وقد كانت أوراقا ذابلة وأطلالا ، ذلك أن الحرب كانت قد أوقفت كل شيء . كنت أعرف أنني سوف أظل أجهل المغامرة الأخيرة للانسان طويل الشعر ، وأتقن سوف أجهل دائما آخر تحقيق للملك المخبرين : إن هؤلاء الأبطال المنفردين كانوا مثلى ضحايا النزاع العالمى ، ولذلك كنت أحبهم أكثر . وكى أهدى من الفرح كان يكفينى أن أتأمل الصور الملونة التي تحمل الأغلفة . بفالويل ممتطيا صهوة جواده يعدو فى المريج يطارد الهنود تارة ويفر منهم تارة أخرى . كنت أفضل صور نيك كارتر . قد يجدها المرء مملة : ففى كل هذه الصور تقريبا نرى المخبر الكبير وهو يسدد ضربة قاتلة أو وهو يتلقى ضربة مطرقة . ولكن

هذا الشجار كان يحدث في شوارع مانهاتن وفي أراض فضاء محاطة
بسياج بني أو بأبنية واهية مكعبة بلون الدم الجاف : كان ذلك يهرني
وكنت أتخيل مدينة بوريتانية ودامية يلتهمها الفضاء ولا تكاد تخفى
الأعشاب التي تحملها . كان كل من الجرعة والفضيلة خارج القانون في
هذه المدينة . إن كلا من القاتل والقاضي حر وذو سيادة وكنا يتفاهان
مساء بظلمات السكين . وفي هذه المدينة كما في إفريقيا تحت الشمس
الحارقة ذاتها — تعود البطولة ارتجالا دائما . ذلك هو سبب شغفي
بنيويورك .

لقد نسيت الحرب ورسالي معا . وعندما كانوا يسألونني : « ما الذي
ستفعله حين تصبح كبيرا ؟ » كنت أجيب بلطف وبتواضع بأنني سوف
أكتب ، ولكنني كنت قد تركت أحلامي في المجد والتمرينات الروحية .
وربما كانت سنة ١٩١٤ أسعد سنوات طفولتي لهذا السبب . كنت أنا وأمي
من سن واحدة ، وكنا لا نترك بعضنا بعضا . كانت تدعوني فارسها القائم
على خدمتها ورجلها الصغير . وكنت أقول لها كل شيء ، وأكثر من ذلك
كانت الكتابة تدخل وتتحول إلى ثروة وتخرج من فمي : كنت أصف
ما أراه وما تراه آن ماري مثلي : النازل والأشجار والناس . وكنت أشحن
نفسى بالمشاعر لكي أتلذذ بنقلها إليها . وأصبحت محولا للطاقة . كان العالم
يستخدمني ليجعل من نفسه كلاما . كان ذلك يبدأ بثرثرة في رأسي لا اسم
لها . كان أحدهم يقول : « أنا أمشي ، أنا أجلس ، أنا أشرب كوب ماء ، أنا
أكل ملبسة . » وكنت أكرر بصوت عال هذا التعليق الدائم : « أنا أمشي
يا أمي ، وأنا أشرب كوب ماء وأنا أجلس . » واعتقدت أن لي صوتين

أحدهما — كان لا يكاد يكون لى أو يتعلق بإرادتى ، وكان يعلى على الآخر أحاديثه . وقررت أننى مزدوج واستمرت هذه الاضطرابات الخفيفة حتى الصيف . كانت تنهكى وكنت أعطاش منها وانهى بى الأمر أننى أصبحت أخافها . قلت لأحدى إن شيئا يتكلم فى رأسى ، ولكنها لم تقلق لحسن الحظ . إن ذلك لم يكن يفسد سعادتى ولا وحدتنا . وكانت لنا أساطيرنا ولازماتنا فى الكلام ، ومزاحنا الذى يتكرر . وخلال سنة تقريبا كنت أنهى جنلى ، على الأقل مرة كل عشر مرات — بهذه الكلمة التى كنت ألقظها باستسلام ساخر : « معلش . » كنت أقول : « هذا كلب أبيض . إنه ليس أبيض بل هو رمادى ولكن معلش . » واعتدنا أن يحكى بعضنا للبعض — الأحداث الصغيرة لحياتنا بأسلوب ملحمى بمجرد حدوثها . كنا نتحدث عن أنفسنا بضمير الغائب الجمع . كنا نتظر السيارة العامة وكانت تمر أمامنا دون أن تتوقف ؛ وكان أحدها يصيح عندئذ : « لقد ضربوا الأرض بقدمهم وهم يلعنون السماء . » وكنا نأخذ فى الضحك . وكانت لنا اصطلاحاتنا السرية : كانت طرفة عين تكفى . فحين نكون فى متجر أو فى صالون للشاي إذا بدت لنا البائعة مضحكة ، كانت أمى تقول لى ونحن خارجين : « لم أنظر إليك خوفا من أن أقهقه فى وجهها ، » وكنت أشعر بفخر من قدرتى ، فلا يوجد عدد كبير من الأطفال يعرفون كيف يشيرون قهقهة أهمهم من نظرة واحدة . ولما كنا خجولين كنا نخاف معا . وذات يوم اكتشفت على أرصفة السين اثنى عشر عدداً من مجلة بفالويل لم أكن قد جصلت عليها بعد ؛ وكانت تستعد لدفع ثمنها عندما اقترب منا رجل سمين شاحب ، عيناه من لون الفحم وشاربه لامع وعلى رأسه قبعة من القش ذات حافة مسطحة ودقيقة ، وكان له ذلك المظهر الذى كان يصطنعه عن

طبيب خاطر الشبان الملاح في ذلك العهد . كان يحقق البصر في أمي ولكنه اتجه إلى وردد هذه العبارة بمجلة شديدة إنهم يدللونك أيها الصغير ، إنهم يدللونك ! ، لم أشعر أول الأمر إلا بأنني أهنت : فلم أكن أخاطب بصيغة المفرد هذه السرعة ، ولكنني فاجأت نظرتي الشهوانية ، وأصبحت أنا وآن ماري كفتاة واحدة جفلة ، قفزت إلى خلف . وابتعد السيد وقد فشلت خطته . لقد نسيت آلاف الوجوه ، ولكنني مازلت أذكر هذا الوجه المكثف . كنت أجهل أجهل كل شيء عن الجسد ، ولم أكن أتصور ما كان هذا الزجل يريده منا ، ولكن الشهوة كانت جلية ، بحيث خيل لي أنني أفهم ، وأن كل شيء قد كشف لي بطريقة ما . لقد شعرت بهذه الشهوة خلال آن ماري ، فمن خلالها تعلمت أن أحس بالذكر وأن أخشاه وأن أكرهه . وقد وثقت هذه الحادثة عرايانا : كنت اتسكع بوجه عابس ويدي في يد أمي وكنت واثقا من أنني أحميها . هل هي ذكرى هذه السنوات ؟ واليوم أيضاً فإني لا أستطيع أن أشاهد بلا سرور طفلاً غاية في الجد يكلم أمه الطفلة برصانة وحنان ، إنني أحب هذه الصداقات الرقيقة التوحشة التي تنشأ بعيداً عن الناس وضدهم . إنني أنظر طويلاً إلى هذه الأزواج الصغيرة ثم أتذكر أنني رجل وأشيخ بوجهي .

والحدث الثاني وقع في أكتوبر ١٩١٥ . كان عمري عشر سنوات وثلاثة أشهر ، ولم يكن في استطاعتهم أن يفكروا في إبقائي تحت الحجر مدة أطول . وكبت شارل شوايترز أحقادهم وسجل اسمي بالقلم الحارجي في لبيسه هنري الرابع الصغيرة .

وكان ترتيبي الأخير في أول موضوع إنشاء أعطى لنا ، ولما كنت

إقطاعيا صغيرا فقد كنت اعتبر التلميم رباطا شخصيا . إن الآنسة ماري لويز أعطتني عليها عن حب ، وتسلمته عن طيبة جباها . لقد صدمت بدروسها « النزلة » التي كانت تتوجه للجميع بالبرود الديمقراطي للقانون . ولما كنت خاضعا لمقارنات دأمة فإن تفوق الذي حملت به قد تلاشى . كان يوجد على الدوام تلميذ يجب أحسن أو أسرع مني . كنت محبوبا أكثر مما يجب لأضع نفسي من جديد موضع منافسة . كنت أعجب عن طيب خاطر بزملائي وكنت لا أحسدهم ، فسوف يأتي دوري في الحسنيين . وبالاختصار كنت أشرد دون أن أتألم : ولما كان يستبد بي زعر قوى فإني كنت أقدم باجتهاد واجبات رديئة جداً . وكان جدي يقطب حاجبيه . وأسرعنت أمني إلى طلب تحديد موعد من السيد أوليفيه معلني الرئيسى الذي استقبلنا في شفته كأعزب . واتخذت أمني صوتها المفرد . وكنت أصغى إليها واقفا بجانب كرسيها وناظراً إلى الشمس خلال الغبار على ألواح الزجاج . وجاهدت في البرهنة على أنني خير من واجباتي : فقد تعلمت القراءة وحدي ، وكنت أكتب روايات ، ولما أعيثها الحجج أعلنت أنني ولدت بعد عشرة أشهر ، فقد كنت أكثر « نضجاً » من الآخرين وأكثر تورداً وتقميراً ، لأنني مكثت في القرن مدة أطول ! كان السيد أوليفيه يصغى إليها بانتباه متأثراً بجاذبيتها أكثر من تأثره بمزاياي . كان رجلاً طويل القامة شديد النحول ، أصلع وبمجموعة بارزة وعينين غائرتين وبشرة بلون الشمع وتحت أنف طويل محدب ينمو بعض الشعر الأصهب . ورفض أن يعطيني دروساً خاصة ، ولكن وعد برعايتي . ولم أكن أطلب أكثر من ذلك . كنت أرقب نظرتة أثناء الدروس ؛ كنت متأكداً من أنه لم يكن يتكلم إلا من أجلى ، واعتقدت

أنه يحبني ، وأحبته ، وقام بالباقي بعض الكلمات الطيبة، وأصبحت بلا جهد تلميذاً مجتهداً إلى حد ما . وكان جدى يتذمر وهو يقرأ شهادات درجاتي بربع السنوية ، ولكنه كف عن التفكير في سعي من اللبسيه . وفي الصف الخامس أصبح لي معلمون آخرون ، وفقدت معاملتي الخاصة ولكنني كنت قد تعودت على الديمقراطية .

لم تكن أعمالي المدرسية تترك لي وقتاً للكتابة ؛ وقد انتزعت مخالطاتي الجديدة مني حتى الرغبة فيها . لقد أصبح لي زملاء أخيراً ، أنا البعد من الحداثي العامة قد ضموني منذ اليوم الأول وبأبسط ما يمكن . الشيء الذي أذهلني . والحقيقة كان أصدقائي يدون أقرب إلى من البردايانات^(١) المصغار الذين كانوا قد حطموا قلبي . كانوا في القسم الخارجي ، مدللين ، تلاميذ مجدين . وأيا كان الأمر فقد كنت أشعر بفرح عظيم . وكانت لي حياتان . فمع عائلتي كنت أقلد الرجل . ولكن الأطفال فيما بينهم يكرهون الصبيانية : إنهم رجال حقيقة . ولما كنت رجلاً بين الرجال، فقد كنت أخرج من اللبسيه كل يوم بصحبة الإخوة (ملكان) الثلاثة : جان ورينيه وأندرية، والأخوين بول ونورير مير ، وبران وماكس بركو ، وجريجوار . كنا نعدو ونحن نصيح في ميدان الباثيون . كانت لحظة سعادة رصينة فقد كنت أمخلص من التمثيلية العائلية ؛ ولما لم أكن أريد أن ألمع فقد كنت أضحك مقلداً . كنت أردد كلمات التعارف والكلمات الطيبة . كنت أصمت وكنت أطيع وأقلد حركات جيراني . ولم يكن لي إلا هوى واحد : أن

أنضم إلى المجموعه . ولما كنت جافا وصلبا ومبتهجا فقد كنت أشعر أنني من صلب ، وقد تخلصت أخيراً من خطيئة وجودى . كنا نلعب بالكرة بين قصر الرجال العظام^(١) وتمثال جان جاك روسو . كنت ضروريا «الرجل الصحيح فى المكان الصحيح»^(٢) . لم أعد أحسد السيد سيمونو على شئ : فإلى من كان مير سيمرر الكرة بعد أن غافل جريجوار إن لم أكن أنا موجوداً هنا الآن ؟ كم كانت أحلامى بالمجد تبدو تافهة وجنائزية إلى جانب هذه البدييات السريعة التى كانت تكشف لى ضرورتى .

وكانت تنطفىء مع الأسف بأسرع مما كانت تشتعل . إن ألعابنا كانت « تهيجنا » كما كانت تقول أمهاتنا ، وكانت أحيانا تحول جماعاتنا إلى جمع صغير موحد كان يتلعنى ، ولكننا لم نستطع قط أن ننسى أهلنا طويلا ، وكان حضورهم غير المرئى لا يلبث أن يهبط بنا إلى الوحدة المشتركة التى تعيش فيها الجماعات الحيوانية . ولما كان مجتمعنا بلا هدف ولا غاية ولا مراتب ، فإنه كان يتردد بين الامتزاج التام وبين التلاصق . كنا نعيش سويا فى الحقيقة ، ولكن كنا لا نستطيع أن ندفع عنا الشعور الذى كان ينسبه بعضنا لبعض ، وشعورنا بأن كلامنا ينتمى لجماعات ضيقة وقوية وبدائية ، تصنع أساطير ساحرة وتتغذى بالخطأ وتفرض علينا استبدادها . كنا مدلهين ومؤمنين ومرهفى الحس وكثيرى النقاش تنفر من القوضى ونكره العنف والظلم . يوحدنا ويفصلنا الامتناع الضمنى بأن العالم قد خلق .

(١) يقعد الباثيون (المترجم) .

(٢) The right man in the right place

لأستعمالنا ، وبأن أهلنا هم أفضل أهل قاطبة . كنا نحرص على عدم إهانة أحد ، وأن نبقى مجاملين حتى في ألبابنا . كانت السخرية والمزاح ممنوعين بتاتا . وإذا ثار أحدنا كانت الجماعة كلها تلتف حوله وتهدهه وتضطره إلى الاعتذار ، كما لو كانت أمه بنفسها هي التي تبكته بلسان جان مالنكان أو نورير مير . وعلى أى حال فإن كل أولاء السيدات كن يعرفن بعضهن بعضا ، وكن يعاملن بعضهن بعضا معاملة قاسية . كن ينقلن لبعضهن البعض أحاديثنا ونقدنا وأحكام كل منا على الجميع . أما نحن الأبناء فكنا نحصى بعضنا عن بعض أحاديثهن . وعادت أمي غاضبة من زيارة للسيدة مالنكان لأنها قالت لها بكل صراحة : « إن أندريه يجد أن بولو مدع . » ولم يكدرنى هذا الرأى : هكذا تتكلم الأمهات فيما بينهن ؛ ولم أحقد أبدا على أندريه ولم أقل له كلمة عن هذا الموضوع . كنا بالاختصار نحترم العالم كله ، الأغنياء والفقراء ، الجنود والدينين ، الشباب والشيوخ ، الناس والحیوانات . لم نكن نحقر سوى تلاميذ القسمين نصف الداخلى والداخلى : لابد أن يكونوا قد اقترفوا ذنوبا كبيرة مما جعل أسرهم تتركهم : ربما كان أهلهم سيئين ولكن ذلك لن يجدى شيئا : إن للأطفال الآباء الذين يستحقونهم . وفى المساء ، بعد الساعة الرابعة تصبح الليسه مهلكة حين يغادرها تلاميذ القسم الخارجى .

وإن صداقات بهذا القدر من الحذر لا يمكن أن تقوم دون بعض الجفاء . وفى العطلة الصيفية كنا نغرق غير آسفين . ومع ذلك كنت أحب بركو . كان بمثابة أخ لى لأنه كان ابن أرملة . كان وسيما وضعيفا ورفيقا ؛ لم أكن أكل عن النظر إلى شعره الطويل وقد مشط على طريقة جان

دارك . ولكن كان كلاتنا فخورا على الخصوص بأنه قرأ كل شيء ، وكنا نتحى ركننا تحت القسم السقوف من فناء المدرسة لتكلم فى الأدب ، أى نعاود مائة مرة ، وبرور - عد المؤلفات التى تناولتها أيدينا . وذات يوم نظر إلى نظرة هوس وأسر لى أنه يريد أن يكتب . لقد التقيت به بعد ذلك فى الصف الثمانى من القسم الثانوى ، وسيا كالعادة ولكنه مصاب بالسل : وقد توفى فى الثامنة عشرة من عمره .

كنا جميعاً ، حتى بركو العاقل ، نجيب بنار ، هذا الصبي المرتجف المستدير الذى كان يشبه الكتكوت . إن صدى مزاياء وصل إلى أسمع أمهاتنا فاستشعرن نحوه شيئاً من الغيرة ولكنهن لم يكن يكفنن عن تقديمه لنا مثلاً يحتذى ، دون أن يصلن إلى جعلنا تنفر منه . وليحكم الناس على تحيزنا ، كان فى القسم نصف الداخلى وكنا نحب لذلك أكثر ؛ فكان فى نظرنا تلميذا شرفيا فى القسم الخارجى . فى المساء ، تحت الصباح العائلى كنا تفكر فى هذا البشر الذى يبقى فى الغابة ليهدى أكلة اللحوم البشرية فى القسم الداخلى ، وكان خوفنا يقل . ومن العدل أن نقول إن تلاميذ القسم الداخلى بالذات كانوا يحترمونه . ولم أعد أعرف بكل وضوح أسباب هذا القبول الإجماعى . كان بنار رقيقا وبشوشا وحساساً وكان فوق ذلك الأول فى كل المواد . ثم إن أمه كانت تحرم نفسها من أجله . ولم تكن أمهاتنا تعاشر هذه الحياطة ، ولكنهن كن يحدثنا عنها كثيرا ليجعلنا نقدر عظمة حب الأم . لم نكون تفكر إلا فى بنار : كان شعلة هذه النعسة وبهجتها : كنا نقدر عظمة الحب النبوى . والخلاصة فإن الجميع كانوا يحنون على هذين الفقيرين الطيبين . ولكن ذلك لم يكن يكفى .

والحقيقة أن بنار كان يحى نصف حياة : فأنا لم أره أبدا بدون كوفية غليظة من الصوف . كان يتسم لنا بلطف ولكنه كان قليل الكلام ، وأذكر أنه منع من اللعب معنا . وكنت من ناحيتي أجله بقدر ما كان ضعف صحته يبعده عنا . لقد وضعوه خلف الزجاج . كان يحينا ويرسل لنا إشارات خلف زجاج النافذة ، ولكننا لم نكن نقرب منه . كنا نحبه من بعيد لأنه وهو حى كانت له أثرية الرموز . إن الطفولة تتمسك بالعرف والتقاليد ، وكنا نتعرف له بحميل دفعه الكمال إلى حد التجريد . وإن تحدث إلينا امتلأنا سرورا من كلامه الذى لا دلالة له . لم نره ساخطا قط ولا مبتهجا أكثر مما يجب . وفى الفصل لم يرفع إصبعه قط ، ولكن عندما كان يسأل كانت الحقيقة تتكلم بلسانه ، بلا تردد ولا جهد ، تماما كما يجب أن تتكلم الحقيقة . كان يثير دهشة شلتنا المكونة من أطفال نبغاء لأنه كان الأفضل دون أن يكون نابغا . فى ذلك الوقت كنا جميعا تقريبا أبناء الأب . لقد مات هؤلاء السادة ، أو كانوا فى جبهة القتال ، ومن بقى على قيد الحياة ، وقد قل شأنهم ونقصت رجولتهم — كانوا يعملون على أن ينساق أبنائهم . كنا فى عهد الأمهات ، كان بنار يعكس لنا الفضائل السلبية لسلطة الأم .

وقد توفى فى آخر الشتاء . إن الأطفال والجنود لا يهتمون قط بالموتى . ومع ذلك كنا أربعين نتحب خلف نمشه . كانت أمهاتنا ساهرات : لقد غطيت الهوة بازهور وقد اجتهدن فى أن يجعلتنا نقبر هذا الموت جائرة إضافية فى حسن السلوك والاجتهاد ، أعطيت أثناء العام الدراسى . ثم إن بنار كان يعيش قليلا ، بحيث أنه لم يمت حقيقة . لقد ظل بيننا وجودا

منتشراً ، في كل مكان ، ومقدساً . لقد قفرت حكمتنا قفزة : فأصبح لدينا فقيد عزيز ، كنا نتحدث عنه بصوت خفيض وسرور حزين . فلربما نحتطف مثله قبل الأوان . كنا نتخيل دموع أمهاتنا وكنا نشعر بأثنا عزاز . هل كنت أحلم مع ذلك ؟ إنني احتفظ في غموض بذكرى حقيقية غاية في القسوة هي أن هذه الحياطة ، هذه الأرملة ، قد فقدت كل شيء . هل حقا انقبض صدري رعباً من هذه الفكرة ؟ هل استشففت الشر ، وغياب الله وعالمنا غير مسكون ؟ أظن ذلك : ولماذا ؟ لو لم يحدث هذا الأمر لما احتفظت صورة بنار بوضوحها المؤلم في طفولتي المنكرة ، المنسية الضائعة .

وبعد ذلك بيضمة أساميع كان الفصل (١) أول من الصف الخامس مسرح حدث غريب : ففي أثناء درس اللاتيني فتح الباب ودخل بنار وبجانبه حارس البوابة ، وحيا السيد دورى معلنا وجلس . لقد عرفنا جميعاً نظارته الحديدية وكوفيته وأتفه المهدوب قليلا ومظهره الذي يشبه الكتكوت البردان واعتقدت أن الله قد رده لنا . وبدأ على السيد دورى أنه يشاطرنا دهشتنا : فقد توقف عن الكلام وأخذ نفسه بقوة وسأل عن اسم العائلة والاسم ونوع القيد ومهنة الوالدين ، وأجاب بنار أنه نصف داخلي وابن مهندس وأنه يدعى بول أيف نيزان . كنت أشد أقراني دهشة . وفي الفسحة عرضت عليه صداقتي ، فقبلها : وارتبطنا . ولكن هناك تفصيلا جعلني أشعر بأنني لست أمام بنار ولكن أمام صورته الشيطانية : إن نيزان كان أحول . ولكن فأت وقت أخذ هذا العيب في الاعتبار : لقد أحبيت في هذا الوجه تجسيد الخير ؛ وانتهى بي الأمر بأن أحببته لنفسه . ووقعت في الفخ ، إن ميلي للفضيلة قادني إلى التعلق بالشیطان . وفي الحقيقة

إن بنار المتحل لم يكن شريراً ... إنه كان حياً ، هذا كل ما فى الأمر . كانت له كل صفات شبيهه ، ولكنها ذابلة . إن تحفظ بنار كان يتحول فيه إلى مواربة ؛ فإذا سحقته انفعالات عنيفة وسلبية فإنه لم يكن يصرخ ، ولكننا رأيناه يبيض من الغضب ويتمتم : إن ما كنا نأخذ على أنه عذوبة لم يكن إلا شللاً مؤقتاً ؛ لم تكن الحقيقة هى التى تخرج من فمه ولكن لون من الموضوعية الوقحة والخفيفة ، التى كانت تضايقنا لأننا لم نكن قد ألفناها . وعلى الرغم من أنه كان يبد والدیه بالطبع فإنه كان الوحيد الذى يتكلم عنهم بسخرية . وفى الفصل كان أقل لمعانا من بنار ؛ ولكنه كان قد قرأ كثيراً ويتمنى الكتابة . وبالاختصار كان شخصاً كاملاً . ولم يكن يدهشنى شيء أكثر من أن أرى شخصاً فى ملامح بنار . ولما كان هذا التشابه متسلطاً على قأنى لم أكن أعرف قط إن كان يجب أن أمدحه لأنه يقدم مظهر الفضيلة أو أقدحه لأنه ليس لديه إلا هذا المظهر . وكنت انتقل بلا انقطاع من الثقة العمياء إلى عدم الثقة غير المعقولة . ولم نصبح أصدقاء بمعنى الكلمة إلا بعد ذلك بوقت طويل ، وبعد فراق طويل .

وخلال سنتين أوقفت هذه الأحداث وهذه الالتقاءات اجتراراتى ، دون أن تلتنى السبب . والواقع أن شيئاً لم يتغير من حيث العمق : وأن هذه الرسالة التى أودعها فى الكبار داخل ظرف غتوم ، لم أعد أفكر فيها ولكنها كانت باقية . لقد استولت على شخصى . وفى التاسعة من عمرى كنت أراقب نفسى حتى فى أشد حالات اندفاعاتى : وفى العاشرة توأريت عن نظرى . كنت أعدو مع بران وأتحدث مع بركو ونيزان . وفى هذه

الأثناء تركت رسالتى اثرائة لذاتها ، فوجدت وسقطت آخر الأمر فى ليلى ؛ ولم أعد أراها . لقد صنعتى ، وكانت تعارس قوة جاذبيتها على كل شيء ، فتلوى الأشجار والجدران وتقوس السماء فوق رأسى وكنت قد خلعت نفسى أميراً وكان ذلك جنونى . وقال أحد المحللين النفسيين من أصدقائى إننى مصاب باضطراب فى طبعى ، وهو على حق . فبين صيف سنة ١٩١٤ وخريف سنة ١٩١٦ أصبحت رسالتى هى طبيعتى ؛ لقد ترك هذيانى رأسى ليسيل فى عظامى .

لم يحدث لى شيء جديد : لقد عثرت على ما قتت بتمثيله وتنبأت به سالماً صحيحاً مع هذا الاختلاف الوحيد : أننى بلا معرفة وبلا كلات وبلا تبصر حققت كل شيء . وكنت من قبل أتصور حياتى فى صور : فكان موتى يسبب مولدى ، وكان مولدى يلتقى بى إلى موتى ؛ وما أن أعدل عن رؤيتها حتى أصبح أنا نفسى هذه البادلة . وشددت حتى التمزق بين هذين الطرفين أموت وأحيا عند كل خفقة تلب . وأصبحت آخرتى المستقبلية مستقبل اللبوس . كانت تضرب كل لحظة عبث ، وكانت فى مركز أعمق ابتاه ... شروداً أعمق ، وفراغ كل كمال ، واللاوقع الخفيف للواقع . كانت تمت من بعيد طعم الحلاوى فى فمى ، والأحزان والأفراح فى قلبى ؛ ولكنها كانت تنقذاً أكثر اللحظات بطلاناً بهذا السبب الوحيد وهو أنها كانت تأتى أخيراً وكانت تقربنى من آخرتى . لقد اعتدتى الصبر على الحياة : فلم أعد قط أتمنى أن أفزع عشرين سنة ، وأن أتصفح عشرين سنة أخرى ، ولم أعد أتصور الأيام البعيدة لاتصارى ؛ وانتظرت . وفى كل دقيقة كنت أنتظر الدقيقة القادمة لأنها كانت تشد إليها الدقيقة التى تليها . وعشت هاتفاً فى

المجلة القاسية ، متقدما دائما على نفسى . كان كل شيء يستغرقنى ، ولا شيء يوقفنى . ياله من انقراج فنى الماضى كانت أياى تتشابه إلى الحد الذى كان يجعلنى أسأل نفسى أحيانا إن لم يكن قد حكم على أن أكابد العودة الأزلية لليوم نفسه . ولم تغير أياى كثيرا . وقد احتفظت بمادة السقوط الدميعة وهى ترتجف ؛ أما أنا فقد تغيرت فيها : فلم يعد الزمن هو الذى يفيض على طفولتى الجامدة ، وكنت أنا ، السهم المرشوق بناء على أمر ، الذى يقب الزمن ويمرر رأسا إلى الهدف . وفى سنة ١٩٤٨ ، فى مدينة أوترفت ، أرانى الأستاذ فان لب اختبارات إسقاطية . واسترعت إحدى اللوحات اتبأى : فقد رسم عليها جواد يعدو ورجل يمشى ونسر يحلق وزورق بمحرك يطفر ؛ وكان على المختير أن يشير إلى الرسم الذى يعطيه أكبر شعور بالسرعة ، فقلت : « إنه الزورق » . ثم نظرت بفضول إلى الرسم الذى فرض نفسه بهذه الشراسة ؛ كان الزورق يبدو أنه ينسلخ عن البحيرة ، وأنه بعد لحظة سوف يحلق فوق هذا الجحود التموج . وظهر لى سبب اختيارى فى الحال : فى العاشرة من عمرى بدا لى أن صدرى يشق الحاضر ويتزعنى منه ؛ وجريت منذ ذلك الحين ، ومازلت أجرى . إن السرعة لا تهدر فى نظرى بالمسافة المقطوعة فى مدة معينة من الزمن ، قدر تقديرها بطاقة الانزاع .

منذ أكثر من عشرين سنة بينا كان جيا كوميتى يعبر ميدان إيطاليا^(١) ذات مساء صدمته سيارة فأصيب بجرح والتوت ساقه . وفى الاغماء

(١) أحد ميادين باريس (المترجم)

الجلية التي راح فيها شعر أولا بنوع من البهجة : « أخيراً شيء ما حدث لي ! » إني اعرف تطرفه : إنه كان ينتظر الأسوأ ، إن هذه الحياة التي كان يحبها إلى الدرجة التي لم يكن يتمنى معها حياة أخرى — كانت حياة مقلوقة ، وربما محطمة بحاقة عنف الصدفة . وكان يقول لنفسه « لم أخلق إذن لأتحت ولا حتى لأعيش ، لم أخلق لشيء » إن ما كان يحمسه هو نظام السببية المهدد عندما يرفع عنه القناع فجأة وأن يحرق في أضواء المدينة وفي الناس وفي جسمه هو نفسه وقد تلطخ بالوحل بتلك النظرة المحجرة ككوارث الطبيعة . وبالنسبة للنحات فإن سيطرة المعادن ليست بعيدة أبداً . إني اعجب بإرادة تقبل كل شيء هذه . وإن كنا نحجب المفاجئات فيجب أن نحجب حتى ذلك الحد ، حتى ذلك الحد ، حتى ومضاتها النادرة التي تكشف للهواة أن الأرض لم تخلق لهم .

وفي العاشرة من سنى كنت أدعى أنتى لا أحب غير المفاجئات كان على كل خيط في نسج حياتي أن يكون غير متوقع وأن تنبعث منه رائحة الطلاء الجديد . كنت أقبل مقدما الظروف الطارئة والعوارض ، وكى أكون عادلا يجب أن أقول إني كنت أقبلها قبولا حسنا . وذات مساء انطفأت الكهرباء بسبب عطل؛ وناداني أحدهم من غرفة أخرى وتقدمت فاتحا ذراعى فاصطدم رأسى بمصراع باب، وكانت الصدمة قوية بحيث كسرت سنا من أسناني . وألهاني هذا الحادث وضحت له على الرغم من الألم ، كما سوف يضحك جيا كومتى بعد ذلك لساقه ، ولكن لأسباب مناقضة على خط مستقيم . ولا كنت قد قررت مقدما أن تكون لقصتي نهاية سعيدة ، فإن غير المتوقع لا يمكن أن يكون سوى خديعة ، والجلدة لا يمكن

أن تكون سوى مظهر . إن احتياج الشعوب ، سوى كل شيء عندما جعلني أولاد ؛ ورأيت في هذه السن المكسورة علامة ... تنبئها غامضا سوف أفهمه فيما بعد . وبمعنى آخر كنت أحفظ نظام الغايات في كل ظرف وبأى عن . كنت أنظر إلى حياتي خلال موتى وكنت لا أرى سوى ذاكرة مقفولة لا يستطيع شيء أن يخرج منها أو يدخل فيها . هل يتصور أحد أمنى ؟ إن الصدف لا وجود لها : ولم أكن أتعامل إلا مع ما تقلده من الأشياء تقليدا صادرا عن العناية الإلهية . كانت الصحف تلتقي في الروع أن قوى مشتهة تجول في الطرقات ونحصد صغار الناس . أما أنا المختار فإني لن التقى بها . ربما فقدت ذراعا أو ساقا أو عيني . ولكن كل شيء كان في الطريقة : إن مصائبي لن تكون أبدا سوى محن ، سوى وسائل لعمل كتاب . تعلمت أن أتحمل الأحزان والأمراض . رأيت فيها بواكير موتى الانتصاري ، والدرجات التي ينحتها ليرفعني إليه . إن هذه العناية الفظة بمض الشيء لم أكن أستبجحها وكنت أعنى بأن أظهر جديرا بها . كنت أعتبر الأسوأ شرط الأفضل . إن أخطائي تقسها كانت تفيد ، وهذا يعني أنني لم أكن أقترف أخطاء . ففي العاشرة من عمري كنت واثقا من نفسي . ولما كنت متواضعا وغير محتمل ، فقد كنت أرى في هزائمي شروط نصرى بعد المات . وسواء كنت كفيفاً أو مقعداً ، تضللني أخطائي ، فإني سوف أكسب الحرب من كثرة خسارة المارك . لم أكن أفرق بين الحن المخصصة للمختارين والفشل الذي كنت أحمل مسئولته . إن ذلك يعني ان جرائمي كانت تبدو لي في الواقع تعاسات ، وأنني كنت أطالب بيلايى كأنها أخطاء ، والواقع أنني كنت لا أستطيع ان أمرض

سواء كانت الخسبة أو الزكام دون أن أعلن أنني مذنب : لقد أهملت الوقاية ونسيت أن أرتدى معطفي وكوفيتي . وفضلت دائماً أن أنهم نفسي على اتهام الكون ؛ لا عن سلامة قلب ، ولكن كي لا أكون متعلقاً إلا بنفسي . إن هذا التكبر لم يكن يمنع التواضع ، كنت أعتقد طوعاً أني كنت عرضة للخطأ بقدر ما كان ضعفي أقصر طريق طبيعي للخير ، وكنت أرتب أمري لأشعر في حركة حياتي بمجاذبية لا تقاوم كانت لا تنقطع في إجباري ، حتى على الرغم مني ، على تحقيق تقدم جديد .

إن كل الأطفال يعرفون أنهم يتقدمون . وعلى كل فإنه لا يسمح لهم بأن يجهلوا ذلك : « من تقدم يجب أن ينتقل إلى تقدم آخر ... تقدم جاد منظم ... » ، إن الكبار يقصون علينا تاريخ فرنسا : فبعد الجمهورية الأولى ، هذه الجمهورية غير الأكيدة جاءت الجمهورية الثانية ثم الثالثة وهي الجمهورية الصحيحة : الثالثة ثابتة ! إن التناؤل البورجوازي كان محلاً حينذاك في برنامج الحزب الراديكالي ^(١) : وفرة متزايدة في الخيرات ، وإلغاء الفقر بمضاعفة المعارف ، وبالملكية الصغيرة . أما نحن السادة الشبان ، فقد وضعوا هذا التناؤل في متناولنا . واكتشفنا ، راضين ، أن تقدمنا ، الفردى كان يصور تقدم الأمة . ومع ذلك فإن الذين كانوا يريدون أن يرتفعوا فوق آبائهم كانوا نادرة . فبالنسبة للأغلبية لم يكن يهمهم إلا الوصول ، إلى سن الرجولة ؛ ثم يتوقفون عن أن يكبروا وينموا ؛ إن العالم حولهم هو الذي يصبح تلقائياً أفضل وأكثر راحة . إن بعضنا كان ينتظر هذه

(١) حزب فرنسي تأسس بعد إعلان الجمهورية الثالثة وهو حزب الاخرار المتطرفين .
(المترجم)

للحظة بفروغ صبر ، والبعض في خوف وآخرون في أسف . أما أنا فقبل
أن أنذر كنت أكبر في عدم المبالاة : كنت لا أكرث بالثوب الأبيض^(١)
كان جدى يجدى قصيراً جداً ويبدى أسفه على ذلك . وكانت جدتى تقول
له لتغيظه : « سوف يكون له قوام عائلة سارتر ، . وكان جدى يتظاهر
بأنه لم يسمع ، وكان يقف أمامى وقيسى ، ثم يقول أخيراً دون اقتناع
كبير : إنه ينمو ، ولم أكن أشاطره لافلته ولا آماله : إن الأعشاب
الضرة تنمو هي أيضا ؟ وهذا برهان على أن المرء يمكن أن يصبح طويلاً
دون أن يكف عن أن يكون شريراً . وكانت مشكلتى آنذاك أن أكون
خيراً إلى ما شاء الله . وكل شيء تغير حينما أسرعت حياتى : فلم يعد يكفى
أن أفعل الخير ، كان يجب أن أفعل الأحسن فى كل وقت . ولم يعد لى إلا
قانون واحد : أن أنسلق . وكى أغذى مطاعى وكى أخفى شططها لجأت
إلى التجربة المشتركة : ففى تقدم طفولتى التعبير أردت أن أرى بوادر
مصرى . إن هذه التحسنات الحقيقية ولكن الصغيرة والعادية جداً أوهمتنى
بأنى أختبر قوتى على الارتفاع . ولما كنت طفلاً عاماً ، فقد اتخذت علناً
أسطورة طبقى وجيلى : إننا نستفيد من المكتسب ونستثمر التجربة ،
ويثرى الحاضر بالماضى كله . وفى الوحدة كنت بعيداً عن أن أرضى بها .
لم أكن أستطيع أن أقبل أننا نستقبل الوجود من الخارج ، وأنه يحفظ
نفسه بالقصور الذاتى ، ولا أن حركات النفس هى نتائج حركات سابقة .
ولما كنت قد ولدت من انتظار مستقبل فإننى كنت أثب متوجهاً بكلى ،
وكانت كل لحظة تكرر حفلة مولدى . كنت أريد أن أرى فى انفعالات

(١) ثوب كان يرتديه أبناء الأسر النبيلة الصبان فى روما القديمة (المترجم)

قلبي أزيز شرارات . لم أتراني الماضى إذن ؟ إنه لم . يصنعنى ، وعلى العكس ، كنت أنا المنبعث حيا من رمادى الذى ينزع من العدم ذاكرتى بخلق . يتكرر دائماً . كنت أولد من جديد أفضل مما كنت ، وكنت أستخدم الذخائر الجامدة لروحي استخداما أحسن . ذلك أن الموت كلما اقترب منى كان يزيدنى . نورا بضوئه المغم . وكثيرا ما كان يقال لى : إن الماضى يدفنا ، ولكنى كنت واثقا من أن المستقبل يشدنى . كنت أكره أن أشعر فى نفسى بقوى رقيقة وهى تعمل ، وبفتح استعدادى البطيء . لقد درست تقدم البورجوازيين المتصل فى نفسى ، وجعلت منه محركا ذا اشتعال داخلى ؛ وهبطت بقيمة الماضى أمام الحاضر . والحاضر أمام المستقبل ، وحولت التطورية هادئة إلى كوارث ثورية متقطعة . لقد لفت نظرى منذ بضع سنوات إلى أن شخصيات مسرحياتى ورواياتى يتخذون قراراتهم فجأة وفى نوبة ، وأنه تكفى لحظة مثالاكى لينجز أورش فى مسرحية « اللباب » ، تحوله .. ذلك أنتنى أضعمهم على صورتى ؛ لا كما أنا بالفعل بلا شك — ولكن . مثلما كنت أريد أن أكون .

أصبحت خائناً وظللت كذلك . وعبثاً حاولت أن أضع نفسى كاملا فيما أقوم به . أن أهب نفسى بلا تحفظ للعمل وللنضب وللصدقة . سوف أنكر نفسى بعد لحظة .. إني أعلم ذلك وأريده ، وهأنذا أفضح نفسى ، وأنا فى وقدة انفعالى بسعادة الشعور بخيائى المستقبل . وبالجملة فاني أوفى بتمهداتى كغيرى : ولا كنت ثابتاً فى عواطفى وفى سلوكى ، فاني غير مخلص لانفعالاتى : وجاء وقت كان فيه آخر ما أشاهد من آثار ولوحات ومناظر طبيعية هو دائماً أجل ما أرى .. كنت أغضب أصدقائى حين كنت

أثير في وقاحة أو فقط في طيش — ذكرى مشتركة قد تظل عزيزة عليهم.
لأقنع نفسي بأننى قد تخلصت منها . ولأننى لم أحب نفسي بما يكفي فقد
هربت إلى الأمام . والنتيجة أننى أحب نفسي أقل مما كنت أفعل ، وأن
هذه التوالية التى لا ترحم ما فتئت تحيط من قيمتى باستمرار أمام نفسي .
لقد أسأت التصرف أمس لأنه كان أمس ، وأحسن اليوم الحكم القاسى
الذى سوف أصدره على نفسي غدا . لا اختلاط بلا نظام على الأخص . أنى
أمنع ماضى من الاقتراب منى . فالراحة وسن النضوج وحتى السنة التى
ولت توا ، سوف تكون دائماً العهد القديم . إن العهد الجديد يعلن عن
نفسه فى الساعة الحاضرة ولكنه لا ينشأ أبداً . غدا الخلاقة مجانا !! لقد
شطبته على الخصوص سنواتى الأولى : وحين بدأت هذا الكتاب قضيت
وقتا طويلا لأفك رموزها تحت الشطب . وعندما كنت فى الثلاثين من
عمرى ، كان بعض الأصدقاء يقولون لى فى دهشة : « يبدو أنه لم يكن
عندك أهل ولم تكن لك طفولة : » وكنت أسر لذلك عن جهل . ومع
ذلك فأنى أحب وأحترم الإخلاص للتواضع والراخ الذى يكنه بعض
الناس وخاصة بعض النساء — لأذواقهم ولرغباتهم ولمشروعاتهم القديمة
ولالأعياد التى زالت . إننى أعجب بارادتهم أن يظلوا كما هم وسط التغيير
وأن يتخذوا ذاكرتهم وأن يحملوا فى الموت أول دمية وسن لبن وحب
أول . لقد عرفت من بينهم رجالا ضاحكوا فى آخر حياتهم امرأة كبرت فى
السن لهذا السبب الوحيد : أنهم اشتبهوا فى شبابهم . ورجالا آخرين
احتفظوا بالبغضاء نحو الموتى أو فضلوا البارزة على الاعتراف بغلطة
عرضية اقترفوها منذ عشرين سنة . أما أنا فلست حقودا وأعترف بكل

شيء في يسر : أنا موهوب فيما يختص بالنقد الذاتى على شرط ألا يستمر
 أحد إلى فرضه على . وفى سنة ١٩٣٦ . وسنة ١٩٤٥ ضايقوا الشخصية التى
 تحمل اسمى : فهل هذا يعينى ؟ انى أقيد فى حسابى الدين الالهات التى
 قاساها . إن هذا الأبله كان لا يعرف حتى كيف يجعل الناس تحترمه . لقد
 قابلنى صديق قديم ؛ وقص على كرتبه . إن فى نفسه شكوى منذ سبع
 عشرة سنة ؛ فى ظرف معين أسأت معاملته . إنى أكاد أذكر أننى كنت
 فى ذلك الحين أدافع عن نفسى بشن هجوم مضاد ، وأننى كنت آخذ عليه
 شدة حساسيته وجنون الاضطهاد عنده ، وبالاختصار إن لى روايتى الخاصة
 عن هذا الحادث : ولكن لم يزدنى ذلك إلا حرارة فى قبول روايته ،
 وواقفته على رأيه وجملت على نفسى : لقد تصرفت بغرور وبأنانية ، وليس
 لى قلب ؛ إنها مذبحة سارة : إنى أتلذذ بصفائى ؛ إن اعترافى بأخطائى بهذا
 القدر من طيبة خاطر ، برهان لى على أنى لن أستطيع قط اقترافها .
 هل من يصدق أن إخلاصى واعترافى الكريم قد زاد الشاكى هياجا ؟
 لقد كشفنى . إنه يعلم أننى أستخدمه : إنه يحقد على أنا ، أنا حيا ، حاضرا
 وماضيا ، أنا نفسى الذى عرفه دائما . وتركت له جثة بلا حراك لسرورى
 بأن أشعر بنفسى طفلا ولد توا . وانتهى بى الأمر بأن ثرت بدورى على
 هذا الهاج الذى ينبش الجثث . وبالعكس لو حدث وذكرنى أحد هم بظرف
 من الظروف لم أعبس فيه . كما قيل لى — فإنى أكنس يدي هذه
 الذكري ؛ إنهم يعتقدون أنى متواضع ، ولكن العكس هو الصحيح .
 إنى أرى أننى سأفعل الأحسن اليوم والأكثر حسنا غدا . إن الكتاب
 فى من الكهولة لا يحبون أن يهتوا تهمة مؤكدة على أول عمل لهم

ولكن أنا متأكد من أن هذه النهاية تسرنى أنا أقل من غيرى. إن خير
 كتي هو الذى أقوم بكتابته الآن. ويأتى بعده توا آخر كتاب نشر لى ،
 ولكنى أعد نفسى سرا لبكى أشمئز منه قريبا . ربما يسؤنى أن يجده النقاد
 اليوم رديثا ، ولكن بعد ستة أشهر لن أكون بعيدا عن مشاطرتهم رأيهم .
 لا مانع لى من أن يحكموا على هذا المؤلف بأنه فقير جداً وفارغ جداً ،
 بشرط أن يضعوه فوق كل ما كتبت من قبل . إلى أقبل أن تقل قيمة
 الحصة كلها على شرط المحافظة على الترتيب الزمنى ، وهذا وحده هو الذى
 يحفظ لى فرصة إجادة العمل غداً ، وإجادته أكثر بعد غد ، وأنت أختم
 أعمالى بإحدى الروائع .

يبدأنى لست غرا : فأنا أرى جيدا أننا نكرر أنفسنا . ولكن هذه
 المعرفة المكتسبة أخيراً جداً تأكل بداهاى القديمة ، دون أن تبددها
 تماما . إن لحياتى بعض الشهود المبوسين الذين لا يسامحوننى فى شيء ..
 إنهم كثيراً ما يفاجئوننى وأنا أسقط من جديد فى نفس الدروب .
 ويقولون لى ذلك وأصدقهم ، ثم فى آخر لحظة أهنى نفسى : فقد كنت
 أعمى بالأمس ؛ إن التقدم الذى حققته اليوم هو إدراكى أنى توقفت عن
 التقدم . وأحيانا أكون أنا نفسى شاهد إثباتى . فقد يحظر بيالى مثلا أنى
 كتبت قبل ذلك بستين صفحة يمكن أن تفيدنى . وأبحث عنها ولا أجدها
 لحسن الحظ . فقد كنت سأدخل ، مدفوعا بالكسل ، خرقة قديمة فى
 مؤلف جديد . إننى اليوم أجد الكتابة أكثر بكثير ... سوف أكتبها
 من جديد . وعندما أتهى من عملى تضع الصدقة يدى على الصفحة الضائعة .
 يا للدهشة : ففى ما عدا بعض علامات الترقيم أجد أنى قد عبرت عن نفسى .

الفكرة بنفس العبارات . وترددت ، ثم أقيت في السلة بهذه الوثيقة البائدة ، واحتفظت بالرواية الجديدة : إن فيها شيئا لا أعرفه عليها على القدية . وباختصار أسوى أمورى : فعندما تزول العشاوة عن عيني أغش نفسي لأشعر ، على الرغم من التقدم في السن الذى يضعفنى ، بالنشوة الغضة لتسلى الجبال .

وفي الماشرة من عمرى لم أكن أعرف بعد عاداتى المستهجنة وما أكرره من كلمات ، ولم يكن الشك راودنى : وكنت أنوب وأثرثر مأخوذا بما أشاهده في الشارع ، ولم أكن أكف عن تجديد جلدى ، وكنت أسمع جلودى القديعة تتساقط بعضها على بعض . وحين كنت أصدع في شارع سوفلو ، كنت أحس في كل خطوة ، في توارى واجهات العرض ، هذا التوارى المعشى للأبصار حركة حياتى وقانونها والترخيص الجميل لى ألا أكون وفيأ لشيء . كنت أصعب نفسى بكلى . إن جدتى تريد أن تجدد طقم المائدة ؛ فأصحبها إلى محل صيفى وزجاج ؛ وتشير إلى صفحة حساء على غطاها تفاحة حمراء وإلى صحنون محلاة بالأزهار . ليس هذا ماتريده تماما : فإن على صحنونها توجد أزهار بالطبع ولكن توجد كذلك حشرات سمراء تتسلق السيقان بطولها . وتتحرك البائمة بدورها : إنها تعرف غاما ماتريده العملية ، كان هذا الصنف عندها ولكن لم يعد يصنع منذ ثلاث سنوات ؛ إن هذا النموذج أحدث وأنتفع ، ثم أليست الأزهار أزهارا سواء كانت بحشرات أو بدون حشرات ؛ إن أحدا لن يذهب إلى حد تقليد الصحن على رأى المثل ١ ولكن جدتى ليست من هذا الرأى ، فتسأل مملحة : ألا يمكن أن نلقى نظرة على الحزن ؟ آه الحزن ؟ نعم بكل تأكيد

ولكن لابد من الانتظار فالبائسة وحدها : فقد تركها مستخدمها في التو .
وأودعوني ركناً وأوصوني بألا أمس شيئاً ، ونسوني . وقد أُرهِبَتِني الأشياء
القابلة للكسر التي تحيط بي والبريق المغبر وقناع بسكال وهو ميت ، ومبولة
على شكل رأس الرئيس فالير . وعلى هذا ، فعلى الرغم من المظاهر فإنني
شخصية ثانوية مزورة . وهكذا يدفع بعض المؤلفين بعض « النافع » إلى
مقدمة المسرح ويقدمون أبطالهم بسرعة في نظرة جانبية ناقصة . إن القارئ
لا يخطئ : فقد قلب صفحات الفصل الأخير ليرى إن كانت الرواية تنتهي
بنهاية سعيدة ، هو يعرف أن الشاب الشاحب المسند إلى المدفأة في جوفه
ثلاثمائة وخمسون صفحة . ثلاثمائة وخمسون صفحة من الحب والغامرات .
كان لدى على الأقل خمسمائة صفحة . كنت بطل قصة طويلة بنهاية سعيدة .
لقد توقفت عن قص هذه القصة على نفسي : فما جدوى ذلك ؟ كنت أشعر
في نفسي بأني عاشق ، هذا كل ما في الأمر . إن الزمن كان يشد إلى الحلف
السيدات المسنات وأزهار الصنفي وكل الحانوت . إن الجونلات السوداء
تشعب الأصوات وتصبح قطنية . كنت مشفقاً على جدتي ، فإننا لن نزاها
بالتأكيد في الجزء الثاني . وبالنسبة لي ، فقد كنت البداية والوسط والنهاية
ملومة في طفل صغير جداً بلغ الشيخوخة فعلاً ومات بالفعل ، هنا في الظل ،
بين أكوام الصحون المرسوسة الأعلى منه ، وفي الخارج بعيداً جداً في
وضع شمس المجد الجنائزية ، كنت الذرة في بداية مسارها وجلبة الموجات
التي تفيض عليها بعد اصطدامها بخدمات الوصول . فإذا ما جمعت نفسي
وأوثقتها لامسا بيد قبرى . وباليد الأخرى مهدي ، فإنني كنت أشعر بنفسى
وجيزاً وزاهياً ، شهاب خفائي مسحته الظلمات .

ومع ذلك فإن الملل لم يغادرني ؛ كان رزينا أحيانا ومقزأ أحيانا أخرى ، كنت أخضع لأخطر اغراء حين لم يقد في استطاعتي تحمله : لقد أضاع أورفيوس ^(١) أوريديس من قلة الصبر ؛ وكثيراً ما ضمت بسبب قلة الصبر . ولما كنت ضائعا من الفراغ ، كان يحدث أن ألقت إلى جنوبي في الوقت الذي كان يجب أن أتجاهله : أن أضعه تحت المسندة وأن أثبت اتباهي على الأشياء الخارجية . وفي تلك اللحظات ، كنت أريد أن أحقق تقى في الحال ، أن أعانق بنظرة واحدة المجموع الذي كان متسلطا على في الوقت الذي كنت لا أفكر فيه . باللكارثة ! إن للتقدم والتفائل والحانات السارة والغاية السرية ، كل ذلك قد أنهار مما كنت أضفته أنا نفسى إلى تنبؤ السيدة يكار لقد ظل التنبؤ ولكن ما الذي أستطيع أن أعمله به ؟ إن هذا العراف الذي كان يريد أن يتخذ كل لحظات حياتى لم يكن محدد القول وكان يرفض أن يميز واحدة منها . إن المستقبل الذي جف بضربة واحدة لم يعد إلا هيكلا . إني أجد صعوبة وجودى وألاحظ أنها لم تتركنى قط .

ذكرى بلا تاريخ : إني جالس على مقعد في حديقة اللوكسمبورج : لقد توصلت إلى آن مارى فى أن أستريح بالقرب منها ، لأنى كنت أسبح فى عرقى من كثرة الجرى . ذلك هو على الأقل ترتيب الأسباب . وبلغ بى

(١) أكبر موسيقي العصور القديمة . عن الثمان زوجته أوريديس يوم زفافها . وازل أورفيوس إلى الجحيم وسحر بموسيقاه الآلهة الذين أعادوا له زوجته بشرط ألا ينظر خلفه طالما هو فى جهنم . ولكن أورفيوس عصا الأمر ففقد زوجته إلى الأبد (الترجمة) .

الليل حداً جعلنى أتجراً على تغيير هذا الترتيب . لقد جريت لأنه كان يجب أن أسبح فى عرقى ولأعطى أى فرصة استدعائى . كل شيء ينتهى إلى هذا المقعد ، كل شيء يجب أن ينتهى إليه . ماهو دور هذا المقعد ؟ إني أجهله ولا أشغل بذلك أول الأمر : لن يضع انطباع من جميع الانطباعات التى أعنى ؛ هناك هدف : سوف أعرفه وأبناء أخوالى سوف يعرفونه . إني أهرساق القصيرتين اللتين لا تلمسان الأرض ، وأرى رجلاً ماراً يحمل صرة وأرى حذاء : إن ذلك سوف يفيد . وأردد فى انجذاب : « إنه من الأهمية بكان أن أظل جالساً . » ويتضاعف الليل : لم أعد أمتلك نفسى فى المخاطرة بمعنى : إني لا أطلب إحياءات مثيرة ولكنى أرغب فى أن أحس معنى هذه الدقيقة ، أن أشعر بضرورتها ، وأن أمتع قليلاً بهذا الإلهام الغامض الحيوى الذى أسنده إلى موسى وهوجو . يد أنى لا ألمح إلا ضباباً . إن الطلب الجرد لضرورتى والإحياء الإجمالى لوجودى يستمران جنباً إلى جنب دون أن يتقاتلا أو يختلط بعضهما ببعض . لم أعد أفكر إلا فى الحرب وإلا فى إيجاد السرعة الصماء التى كانت تحملنى عبثاً ؛ لقد قطعت اللذة . أشعر بتميل فى ساقى وأعمل . وفى هذه اللحظة بالذات كلفتى السماء برسالة جديدة . إنه من المهم جداً أن أستأنف الجرى . فاقفز على قدى وانساب زاحفاً ؛ والتفت عند نهاية المر : لم يتحرك شيء . ولم يحدث شيء . وأخفى عن نفسى خية أملى بببارات : إني أؤكد أنه فى غرفة مفروشة بأورباك ، حوالى سنة ١٩٤٥ سوف يكون لهذا الجرى نتائج لا تقدر . وأعلن رضى التام وأتمسك ؛ وكى أجبر الروح القدس ، ألعب عليه لعبة الثقة : وأقسم فى فورة الحماس أننى أستحق الفرصة التى

منحنى إياها . كل شيء يجرى على سطح الجلد تقريبا . كل شيء يجرى على مستوى الجلد تقريبا كل شيء يلعب على الأعصاب . إننى أعرف ذلك . قد هجمت أُمى على ، هاهو ذا الجرس المصنوع من الصوف ، والكوفية ، والمعطف : وأتركها تغطينى ، أنا صرة ! يجب على أيضا أن أتحمل شارع سوفلو وشارب البواب ، السيد تريجون وسجلات المصعد المائى . وأخيراً فإن المدعى الصغير الرزوء يجد نفسه فى المكتبة من جديد ، ويتحامل من كرسى إلى آخر ويقلب صفحات بعض الكتب ويلقى بها . وأقرب من النافذة وألح ذبابة تحت الستارة وأطبق عليها فى فح من الشاش ، وأوجه نحوها سبابة قاتلة . إن هذه اللحظة هى خارج البرنامج ، مستخرجة من الوقت المادى وموضوعة جانبا ولا نظير لها ، وجامدة لن يخرج منها شيء هذا المساء ولا بعد ذلك ، سوف تجهل أوريالك دأما هذه الأبدية المضطربة . إن الانسانية نائمة ، أما عن الكاتب المشهور — هذا القديس الذى لن يؤذى ذبابة — فقد خرج توا . وحيدا وبلا مستقبل فى دقيقة رأكدة وملوثة ، يريد الطفل من القتل أحاسيس شديدة ؛ فيما أنهم يرفضون أن يعطونى مصير إنسان ، فسأكون مصير ذبابة . ولا أتعجل فإنى آتلكها الوقت لتعزى المارد الذى ينحنى عليها . أقدم إصبعى فتفجر . لقد خدعت . ويحى ! كان يجب ألا أقتلها . كانت الكائن الوحيد الذى يخشانى من بين الخليقة كلها . لم يعد أحد يهتم بى . ولما كنت قاتل حشرات ، فقد أخذت مكان الضحية وأصبحت حشرة بدورى . أنا ذبابة وقد كنتها دأما . وفى هذه المرة لست القاع . لم يعد أمانى إلا أن آخذ من على المنضدة ، مغامرات القبطان كوركوران ، وأن أتهلك على السجادة وأن أفتح كيفما أتفق الكتاب الذى عاودت قراءته مائة مرة . إننى شديد التعب ، شديد الحزن بحيث لم أعد أشعر بأعصابى .

وأنى نفسى منذ السطر الأول. إن كوركوران يضرب الطبول فى المكتبة الخالية ويتأبط بندقيته ونمرته تتبعه : إن أشجار القابة تنهياً بسرعة حولها. وعن بعد زرعت أشجاراً ، والقروء تقفز من غصن إلى آخر . وخفاة تأخذ النمرة لوزون فى الزئير ، ويتسمركوركوران فى مكانه : هذا هو العدو . إن مجدى يختار هذه اللحظة المؤثرة ليعود إلى الأمية ، والإنسانية لتستيقظ مرتجفة وتستجد بى ، والروح القدس ليمس فى أذنى هذه الكلمات القلقة : « لولم تجدى لما بحث عنى . » ، إن هذا الملق سوف يضع : ولا يوجد هنا أحد لسمعها سوى الشجاع كوركوران . ودخل الكاتب الشهير وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا التصريح : إن أحد أحفاد أخوالى يعيل برأسه الأبيض على تاريخ حياتى وتبلل الدموع عينه . وينهض المستقبل ، ويلقى حب لانهاى ، وأضواء تدور فى قلبى ، ولا أتحرك ولا أعطى نظرة للاحتفال . وأتابع قراءة بكل عقل ، وينتهى الأمر بالأضواء أن تنطفئ . إنى لم أعد أحس إلا بإيقاع ، بدفع لا يقاوم . وأقلع ... لقد أقلت ! وأتقدم ... المحرك يهدر ! وأشعر بسرعة روحى .

هذه هى بدايتى : لقد هربت ، وشكلت قوى خارجية هروبي وصنعتى . وخلال إدراك بائد للثقافة يظهر الدين الذى كان يستخدم نموذجاً مضغراً . ولما كان طفلياً فهو أقرب شئ للطفل . فقد كانوا يعلموننى التاريخ المقدس والإنجيل والتعليم الدينى دون أن يعطونى وسائل الإيمان . وكانت النتيجة بلبلة أصبحت نظامى الخاص . وحدث انطواء وانطلاق كبير ؛ ولما كان المقدس مأخوذاً عن الكاثوليكية فقد رسب فى الأدب ، وظهر الكاتب مسيحياً مصنوعاً لم أكن أستطيع أن أكونه . كان الخلاص عمله الوحيد ، ولم يكن لإقامته على الأرض من هدف إلا أن يجعل مستحقاً لسعادة بعيد

الموت بمن يتحملها بجدارة . وتحول الموت إلى إحدى الشعائر العابرة ،
وقدم الخلود الأرضى نفسه ثابثاً عن الحياة الأبدية . وليؤكدوا إلى أن
الجنس البشرى سوف يخلدنى فقد اعترفوا فى رأسى بأنه لن ينتهى . أن
أموت فيه كان يعنى أن أولد وأن أصبح لا نهائياً . ولكن لو أبدوا أسمى
افتراضاً بأن كارثة كونية قد تدمر الأرض فى يوم من الأيام ، ولو بعد
خمين ألف سنة ، فإنى أصاب بالهلع . واليوم أيضاً ، وقد زالت أوهامى ،
فإنى لا أستطيع أن أفكر بلا خوف فى خلود الشمس . وسبان عندى أن
ينسانى أبناء جنسى غداة دفى ؛ فلسوف أخالطهم طالما عاشوا ، دون أن
يستطيع أحد أن يمسنى ويسمىنى ، وأكون موجوداً فى كل منهم كما
يوجد فى مليارات الموتى الذين أجهلهم ، والذين أحفظهم من المدمر .
ولم يكن إن حدث واختفت الإنسانية فإنها تمت موتاتها حقيقة .

إن الأسطورة كانت غاية فى البساطة وقد هضمتها بلا تعب . ولما كنت
بروتستانتياً وكاثوليكياً ، فإن تبعى الدينية المزدوجة كانت تمنعنى من
الإيمان بالقديسين وبالعلماء وأخيراً بالله من كثرة ما كانوا ينادونهم باسمهم .
ولكن قوة جماعية ضخمة نفذت فى ؛ وحين استقرت فى قلبى ، كانت
تتحين الفرص ، لقد كانت إيمان الآخرين ؛ يكفى أن يتغير اسم هذا الهدف
المادى ويمدل سطحه . لقد عرفه تحت التنكر الذى كان يمدعنى ، وألقى
بنفسه عليه ، واحتواه فى محالبه . كنت أعتقد بأننى أكرس نفسى للأدب
فى حين أننى دخلت فى الحقيقة سلك الرهبنة . وفى تحول يقين المؤمن
البالغ التواضع إلى البدهة المتكبرة لمقدورى . ولم لا أكون مختاراً وكل
مسيحى يعتبر مختاراً كذلك؟ ولقد دعوت كمثب برى على سماء الكاثوليكية،

وكانت جذورى تمتص عصارتها وأصنع منها عصيرى . ومن هنا جاء هذا العلمى الجلى الذى عانيت منه ثلاثين سنة . وذات صباح من سنة ١٩١٧ فى لا روشيل ، كنت أنتظر زملاء كانوا سيصحبونى إلى المدرسة ، وتأخروا ، ومالبت أن عجزت عن ابتكار شىء يلهينى ، وقررت أن أفكر فى القوى العزيز . وفى الحال تدرج فى زرقاة السماء واختفى دون أن يعطى تفسيراً . قلت فى نفسى بدهشة أدب أنه غير موجود ، واعتقدت أن الأمر قد سوى . لقد سوى من ناحية ما ، بما أننى منذ ذلك الحين لم أشعر بأية رغبة فى بعثه . ولكن الآخر قد ظل : اللامرئى ... الروح القدس ، الذى كان يضمن برسالتي ويهيم على حياتى بقوى كبيرة غفلة ومقدسة . لقد شقيت من التخلص منه بقدر ما كان قائماً خلف رأسى فى المعانى المهربة التى كنت أستخدمها لأفهم نفسى ولأحدد موقعى وأبرر نفسى . ولمدة طويلة كانت الكتابة معناها أن أطلب من الوت ، من الدين المقنع أن يتزعاً حياتى من الصدفة . كنت من الكنيسة . ولما كنت مجاهداً ، فقد أردت أن أخلص نفسى بالأعمال . ولما كنت متصوفاً ، فقد حاولت أن أكشف النقاب عن سكوت الكائن بحفيف مكدر من الكلمات ، وبخاصة ، فقد خلطت الأشياء بأسمائها : إنه الايمان . كانت على عيني غشاوة . وطالما بقيت ، اعتبرت نفسى متخلصاً من ورطة . ونجحت فى سن الثلاثين فى هذه الحبطة الطيبة : أن أكتب فى الثيان ^(١) — بكل إخلاص ، يستطيع الناس أن يصدقونى — الوجود غير المبرر والمر لأبناء جنسى وأن أخرج وجودى من الموضوع . كنت روكونتان ^(٢) ، كنت أرى فيه ، بلا محاملة ، لحمة

(١) أول رواية كتبها سارتر (الترجمة)

(٢) أحد أبطال الثيان (الترجمة)

حياتي . وفي الوقت نفسه كنت أنا المختار ، مؤرخ جهنم ، جهاز التصوير
المجهرى من الزجاج والصلب ، منحنيًا على سوائيل البروتو بلازمية . وعرضت
بعد ذلك بفرح أن الانسان محال . ولما كنت أنا نفسى محالا ، فإني لم
أكن أختلف عن الآخرين إلا بالوكالة الوحيدة لإظهار هذه الاستحالة ،
التي كانت تتحول في الحال وتصبح إحصاء إمكانياتي وموضوع رسالتي وحافز
مجدى . كنت جيس هذه البدايات ولكن لم أكن أراها : كنت أرى
العالم خلالها ولما كنت مزورا حتى العظم ومخدوعا ، فقد كنت أكتب
بسرور عن وضعا التمس . ولما كنت عقائديا فقد شككت في كل شيء .
عدا أنى موضوع اختيار الشك . كنت أضلح بيد ما كنت أخبره باليد
الأخرى ، وكنت أعتبر القلق ضمانا لأمنى ، وكنت سعيداً .

لقد تغيرت . وسوف أحكي مستقبلا أى أحماض أكلت الشفافيات
المشوهة التي كانت تكتفني ، ومتى وكيف تدرت على العنف واكتشفت .
بشاعتي — التي كانت زمناً طويلاً مبدئي السلبى ، والجير الحى حيث ذاب
الطفل العجيب . وبأى عقل استدرجت إلى التفكير المنهجي على الرغم منى ،
إلى حد تقدير بدهاة فكرة ، بالكرب الذى تسببه لى . إن الوهم الماضى
تكسر إربا ؛ إن كلا من الاستشهاد والخلاص والخلود ينهدم ، لقد أصبح
الصرح خرابا ، وأمست الروح القدس فى الأقيية وطرده منها ؛ إن
الإلحاد مشروع قاس وطويل : وأعتقد أنى وصلت به إلى النهاية . إنى
أرى بوضوح ، لقد تيقظت ، إنى أسرف واجباتى الحقيقية ، وأستحق
بالتاكيد جائزة على إخلاصى للوطن ؛ فنذ ما يقرب من عشر سنوات
وأنا رجل يستيقظ وقد شفى من جون طويل وميرير ورقيق ، وهو .

لا يزال متعباً ، لا يستطيع أن يتذكر دون أن يضحك ضلاله القديم ، ولم يعد يعرف ما يفعل بحياته . لقد عدت المسافر بلا تذكرة الذى كتبه فى السابعة من عمرى : ودخل الفتش إلى ديوانى ، ونظر إلى ، نظرة أقل قسوة من الماضى . والواقع إنه لا يطلب إلا أن يرحل ، وأن يتركنى أكمل الرحلة بسلام ؛ أن أعطيه حجة مقبولة ، أية حاجة ، فإنه سيرضى بها . وإنى لا أجد مع الأسف أية حجة ، وفضلاً عن ذلك فإنى لا أرغب حتى فى البعث عنها : سوف نمكث وجهها لوجه وحدنا ، فى القلق حتى ديجون . حيث أعرف جيداً أن لا أحد ينتظرنى .

لقد تخليت عن سلطتى ولكن لم أترك ثوبى : إنى ما زلت أكتب . وما الذى يمكن عمله غير ذلك ؟

لا ينقضى يوم دون أن أخط سطرًا (١) .

هذه عادتى ثم إنها مهنتى . لقد حسبت قلمى سيفاً زمناً طويلاً : وإنى أعرف الآن عجزنا . وهذا لا يهم : إنى أولف وسوف أولف كتباً ، لا بد من ذلك ، وإنه مفيد كذلك . إن الثقافة لا تنقذ شيئاً ولا شخصاً ، إنها لا تبرر . ولكنها نتاج الإنسان : إنه يعكس نفسه عليها ويعرف نفسه بها ؛ إن هذه المرأة الناقدة هي وحدها التى تقدم له صورته . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا المبنى القديم المتداعى — خدعتى — هو كذلك خلقى : إن المرء يتخلص من مرض عصبى ولكنه لا يبرأ من نفسه . إن كل قسمة الطفل ، وقد بليت ومسحت وأذلت وأهملت وكتمت ، قد ظلت عند الحسنى .

(١) مثل لانيى يذكره سارتر (المترجم)

إنها تتسطح في أغلب الأحيان في الظلام ، وترصد : وفي أول لحظة عدم انتباه ، ترفع رأسها وتدخل في وضع النهار تحت ثوب تنكرى . إننى أدعى بإخلاص أننى لا أكتب إلا لزمى ، ولكنى أغتاط من شهرتى الحالية . إنها ليست المجد ، بما أننى على قيد الحياة ، وهذا يكفى مع ذلك لتكذيب أحلامى القديمة ، حتى لو كنت لا أزال أدعها سرا ؟ غير أن الأمر ليس كذلك تماما : لقد كلفتها على ما أعتقد : فما أننى فقدت فرصى فى أن أموت مجهولا ، فإننى أغبط نفسى أحيانا على أنى أعيش مجهولا . فأنا جريديس التى لم تمت . إن باردیان لا يزال يسكن فى وكذلك ستروجوف . إننى لا أتبع غيرهم وهم لا يتبعون إلا الله الذى لا أعتقد فيه . هل تفهم شيئا من ذلك ؟ فمن ناحيتى أنا لا أفهم شيئا ، وإنى أسأل نفسى أحيانا ما إذا كنت ألعب لعبة الذى يخسر يربح ، وأجتهد فى أن أدوس آمالى الماضية لكى أعوض عن ذلك كله أضعافا مضاعفة . وفى هذه الحالة أكون فيلوكتيت (١) : ولما كان هذا العاجز عظما وممتنا فقد أعطى حتى قوسه بلا شرط : ولكننا فى الخفاء نستطيع أن نتأكد أنه ينتظر جزاءه .

ولنترك ذلك . إن أمى تقول فى ذلك :

« مروا أيها القانون ولا تلحوا . »

(١) قائد أغريقى اشترك فى حصار طروادة وقد أعزاء هرقل سهامه المسومة . وفى طريقه إلى طروادة غشه ثعبان وفاحت من جرحه رائحة كريهة اضطرت زملاءه إلى تركه فى جزيرة لنوس حيث مكث عشرين سنوات . وجاء أوليس هوديميد لإحضاره من هذه الجزيرة ، ذلك لأن هاتفا إليها كان قد أعلن أن طروادة لن تسقط إلا بسهام هرقل (المترجم) .

إن ما أحبه في جنوني هو حمايته لي منذ أول يوم من اغراءات
 « النخبة » : لم أعتقد أبداً بأنني صاحب «ملكة» سعيد ، إن همي الوحيد
 هو أن أخلص نفسي — خالي اليدين وفارغ الجيوب — بالعمل والإيمان .
 ومع ذلك فإن اختياري الصافي لم يرفعني فوق أحد . وبدون معدات
 وأدوات أخذت أعمل بكليتي كي أخلص نفسي كلياً . وإذا كنت أضع
 الخلاص المحال في مخزن اللواحق ، فماذا يتبقى ؟ إنسان ب كله مصنوع من
 كل الناس ، يساويهم جميعاً ، وأى واحد يساويه .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

